دروس في التفسير

تحتوي على موضوعات أدبيّة ولطائف عرفانيّة

ألقاها في مؤسسة الشهيد بدمشق
سماحة حجة الإسلام والمسلمين
السيد أحمد الفهري
ممثل الإمام الخميني دام ظله في سورية ولبنان



دروس في التفسير

١

دروس في التفسير

تحتوي على موضوعات أدبيّة ولطائف عرفانيّة

ألقاها في مؤسّسة الشهيد بدمشق
سماحة حجّة الإسلام والمسلمين

السيّد أحمد الفهري

ممثّل الامام الخميني دام ظله في سوريّة ولبنان

"١"



الدار الاسلاميّة
بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف/ ٨١٦٦٢٧ / ص.ب / ١٤/٥٦٨٠
فرع حارة حريك - مفرق الحلباوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِر

﴿إِنَّ هٰذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم﴾

مهما تنوّعت الكتابة في تفسير القرآن الكريم ، واختلفت مذاهبها ، وتعددت مدارسها ، وتباينت اهتماماتها واتجاهاتها ، فإنّها تبقى قاصرةً عن استيفاء ما يحمله من معانٍ ومفاهيمَ وأفكار ومناهج ، ذلك أنّ القرآن الكريم كما يصفهُ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ظاهره أنيق ، وباطنهُ عميق ، لهُ تخوم ، وعلى تخومه تخوم ، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه » ، وكما يصفه الإمام عليّ عليه السلام : « نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لا يُدرك قعرُه ، ومنهاجاً لا يُضلُّ نهجه ، وشعاعاً لا يُظلِمُ ضوءُه . . » .

والقرآن الكريم « يجري مجرى الشمس والقمر » ، فكلما مضت الأيام ، ازداد نداوةً وطراوةً واستيعاباً . سُئل الإمام الصادق عليه السلام : ما هو السرّ في بقاء القرآن على طراوته كلما يُتلى أكثر ، وكلما يمضي عليه زمن أطول ؟ فأجاب عليه السلام : « لأنَّ القرآن لم ينزل لزمانٍ دونَ زمان ، ولناسٍ دون ناس » .

نسأل الله تعالى أن يوفّق [العلاّمة السيد الفهري] لإكمال هذه الدروس التفسيرية القيّمة ، إنّه سميعٌ مجيب .

الناشر

سُورَةُ العَلَق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ* كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ* إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ* أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ* عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ* أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ* أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ* أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ* أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ* كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ* نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ* فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ* سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ* كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ*﴾ .

صدق الله العلي العظيم

ذكر أكثر المفسّرين والمؤرّخين بل كاد أن يكون إجماعاً أن هذه الآيات الخمس كانت أول ما نزل على رسول الله ، وذكروا في كيفية نزولها أنه أتاه جبرائيل فقال : اقرأ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : فقلت : ما أنا بقارئ ، أي أنا أميّ لا أحسن القراءة . وكنت نائماً بنمط، وهو نوع من

البسط،فغطني به أي غمني بـذلك النمط بـأن جعله على فمـه وأنفه قـال : حتى ظننت أنـه الموت؛ثم أرسلني فقـال : اقـرأ فقلت : مـاذا أقـرأ قـال : ﴿اقرأ باسم ربّكَ . . ﴾ وفي رواية أنه فعل ذلـك به ثـلاثاً ثم قـال : ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ إلى عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فقرأتها وانصرف عنّي وقـد استقرّ ذلـك في قلبي . وفي رواية : فكـأنّما كتب في قلبي كتـاباً ، أي حفظته .

وفي تفسـير الميزان قـال في الدرّ المنثـور : أخرج عبـد الرزاق وأحمـد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصـاحف ، وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنـين أنها قالت : « أول مـا بُدئ بـه رسول الله من الـوحي الـرؤيـا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح ،ثم حُبِّبَ إليـه الخلاء ، وكـان يخلو بغار حـراء فَيُحَنِّثُ فيه وهـو التعبد الليـالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لـذلك ، ثم يـرجع إلى خـديجة فيتـزود لمثلها ، حتى جاء الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : قلت ما أنا بقارئ قال : فـأخذني فغـطّني حتّى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني فقال : اقرآ فقلت : ما أنا بقارئ قال : فـأخذني فغـطّني الثانيـة حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغـطّني الثالثـة حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمَ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ . . الآية ﴾ . .

فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده ، فدخل على خـديجة بنت خـويلد فقـال : زمّلوني زمّلوني ، فزمّلوه حتى ذهب عنـه الـروع ، فقـال لخـديجة

وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلّا ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ وتكسي المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الخلق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبدالعزّى ابن عمّ خديجة وكان أمرأً قد تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يابن عمّ اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى . يا ليتني أكون فيها جذعاً ، يا ليتني أكون فيها حيّاً إذ يخرجك قومك ! فقال رسول الله : أومخرجيّ هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلّا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي .

أقول :

في القصّة إشكالات :

أولاً : ما معنى غطّ رسول الله بالنمط الذي كان صلّى الله عليه وآله نائماً عليه حتى ظنّ أنّه الموت إلى ثلاث مرّات ؟ هل عومل رسول الله كما يعامل الطفل الذي يكون في بداية دراسته ،فيهدد ويضرب ليقرأ، أو أنه لغرض آخر لا نفهمه ؟ ومن العجيب ما نقله في تفسير روح البيان فقال : وأخذ منه عن القاضي شريح من التابعين أن المعلم لا يضرب الصبي في تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات .

وثانياً : ما معنى قول رسول الله : ما أنا بقارئ ، حتى قال جبرائيل

في المرة الثالثة اقرأ باسم ربّك الـذي خلق ، الآيات . . . فـإن كان مـراد جبرائيل من قوله اقرأ أن يتلقى رسول الله الآيات منه ويحفظها بعدما يقرأها جبرائيل فكأنّه يقول له اقرأ الآيات بعدما قرأتها ؛ فحينئذٍ الجواب من النبيّ ما أنا بقارئ ليس مناسباً له ، لأنّه كان قادراً على ذلـك قطعـاً . فلا معنى لقوله صلّى الله عليه وآله : ما أنا بقارئ . وإن كان مراد جبرائيل من قـوله اقـرأ أن الآيات كـانت مكتوبـة في شيء فعرضـه للنبيّ وقـال اقـرأ مـا هـو مكتوب في هذا ، فحينئذ يناسب جواب النبي له بأنه ما أنا بقارئ ،ولكن، **أولاً** : ليس في الروايات من المكتوب عين ولا أثـر ، **وثانيـاً** : نزول هـذه الآيات كنزول بقية الآيات من دون فرق ، ولم يكن فيها مكتوب يقيناً ، **وثالثاً** : ما يقوله صاحب الميزان بقوله : وأهون ما فيها من الإشكال شكّ النبيّ صلّى الله عليه وآله في كون مشاهدة وحياً إلهياً من ملك سماوي ألقى إليـه كلام الله ، وتـردّدهُ بل ظنّـه أنه من مسّ الشيـاطين بـالجنـون ، وأشكل منه سكون نفسه في كونه نبوة إلى قول رجل نصراني مترهب . وقد قال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾[1] وأي حجّة بيّنة في قول ورقـة ؟ وقال تعالى : ﴿قُـلْ هَذِهِ سَبِيـلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَـلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَـا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فهل بصيرتـه هي سكون نفسـه إلى قول ورقـة ، وبصيرة من اتبعـه سكون أنفسهم إلى سكون نفسه إلى مـا لا حجة فيـه قاطعـة ؟ وقال تعـالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ كَـمَا أَوْحَيْنَـا إِلى نُـوحٍ وَالنَّبِيِّـينَ مِنْ بَعْـدِهِ﴾[3] . فهـل كـان اعتمادهم في نبوتهم على مثل ما تقصه هذه القصة ؟!

(١) سورة الأنعام ـ آية ٥٧ .

(٢) سورة يوسف ـ آية ١٠٨ .

(٣) سورة النساء ـ آية ١٦٣ .

والحق أن وحي النبوة والرسالة يلازم اليقين من النبيّ والرسول بكونه من الله تعالى ، على ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام . انتهى .

أقول : إذا كان ما ذكره قدّس الله نفسه أهون ما في هذه القصة من الإشكال كما أشار إليه ؛ فما حال بقية الإشكالات التي كانت في نظره ؟ وعلى أي حال نذكر ما ورد عن أهل البيت عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام ، وجزاهم الله عن الإسلام وثقافته وكيانه أفضل الجزاء . فبهم عرّفنا الله معالم ديننا ، وأصلح ما كان فسد من دنيانا ، وبموالاتهم تمّت النعمة ، فمن ذلك ما رواه العلاّمة السيد هاشم البحراني في تفسيره القيّم البرهان عن عليّ بن إبراهيم الأوسي ؛ قال ابن عباس :

إنّ أوّل ما ابتدأ برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح . ولمّا تزوّج بخديجة وكمل له من العمر أربعون سنة ، قال فخرج ذات يوم إلى جبل حراء فهتف به جبرائيل ، ولم يبدله ، فغشي عليه ، وحمله مشركو قريش إليها وقالوا : يا خديجة تزوجت بمجنون ؟ فوثبت خديجة من السرير وضمته إلى صدرها ، ووضعت رأسه في حجرها ، وقبّلت عينيه وقالت : تزوّجت نبيّاً مرسلاً .

فلمّا أفاق قالت : بأبي وأمّي يا رسول الله . . ما الذي أصابك ؟ قال : ما أصابني غير الخير ، ولكني سمعت صوتاً أفزعني وأظنّه جبرائيل . فاستبشرت ثم قالت :إذا كان غداة غد فارجع إلى الموضع الذي رأيت فيه بالأمس . قال : نعم فخرج صلّى الله عليه وآله وإذا هو بجبرائيل في أحسن صورة وأطيب رائحة ، فقال : يا محمد ، ربّك يقرئك السلام ويخصك

بالتحية والإكرام ، ويقول لك : أنت رسولي إلى الثقلين ؛ فادعهم إلى عبادتي ، وأن يقولوا لا إله إلا الله محمّد رسول الله عليّ وليّ الله . فضرب بجناحه الأرض فنبع عين ماء فشرب صلّى الله عليه وآله وسلّم منها وتوضّأ وعلمه ﴿اقرأ باسم ربّك الذي﴾ إلى آخرها . وعرج جبرائيل إلى السماء وخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله من حراء . فما مرّ بحجر ولا مدر ولا شجر إلا وناداه : السلام عليك يا رسول الله . فأتى خديجة وهي بانتظاره وأخبرها بذلك ففرحت به وسلامته وبقائه .

وأما تفسير الآيات .

فأول ما يلفت النظر في هذه الآيات ما تحتويه من المعاني ، وذلك في المجتمع الذي لا يحكم فيه إلا الهوى والطغيان والظلم ، وليس فيه من العلم والثقافة أثر بيّن . فربما يقاتلون أربعين سنة لأجل دخول إبل في مرعى ، ويقتلون أولادهم خشية إملاق ، وهم كما قال أمير المؤمنين عليه السلام :

« أرسله على حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم ، واعتزام من الفتن ، وانتشار من الأمور ، وتلظ من الحروب ؛ والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرارٍ من ورقها ، وإياسٍ من ثمرها ، واغورار من مائها ، قد درست منار الهدى ، وظهرت أعلام الردى ؛ فهي متجهمة لأهلها ، عابسة في وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف » .

ففي هذا المجتمع رجل أميّ قد عاش بينهم أربعين سنة ، ولم يَدَّعِ في تلك المدة شيئاً ، وليس له علاقة حتى بالشعر الذي كان في ذلك اليوم

مظهراً لأفكار العرب ، وأعظم فن لهم ، ينزل من جبل حراء وعلى شفتيه حديث القراءة والعلم والتعليم والقلم ويقول : ﴿**إقرأ باسم ربّك الذي خلق**﴾ الآيات . . . ثم إن هذا الأمر أي ﴿**إقرأ**﴾ ليس أمراً تشريعياً . لأنّ الأمر التشريعي لأميّ لا يقدر على القراءة تكليف بما لا يطاق ، وذلك قبيح من المولى الحكيم . بل هو أمر تكويني ممن قال للنار : ﴿**كُوني بَرْدَاً وَسَلَاماً عَلىٰ إبْرَاهِيمَ**﴾[1] فصارت برداً وسلاماً . وممن قال للسموات والأرض ﴿**ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[2] . وممن ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[3] . فهذا القادر المتعال يأمر نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بالقراءة فيكون قارئاً .

نعم إن هذا عجيب . وإن أميّاً غير قادر على القراءة يصبح قارئاً بغير تعليم وتعلّم . ولكن ليس بأعجب من أصل الخلقة وإعطاء الوجود للشيء المعدوم . فالمبدأ الذي ظهرت منه معجزة الخلقة قد صدرت منه معجزة الوحي ، ولعله لذلك جاءت الصيغة بالذي خلق .

وأمّا معنى الباء في «باسم ربّك» فقد قيل إنها زائدة ، كما نقله الميبدي عن أبي عبيدة قال : وتقديره : اقرأ اسم ربك . وقد ذكرنا غير مرة أنه لا معنى لوجود كلمة أو حرف زائد في القرآن . فالأنسب أن تكون الباء للاستعانة ، فيمكن أن يكون معنى الآية : إن هذه القدرة على القراءة مع أنك رجل أمّي تتحقق بالاستعانة باسم ربك .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٩.

(٢) سورة فصلت آية ١١ .

(٣) سورة يس آية ٨٢.

ولكن على ما ذكرنا من التفسير من أن الأمر في ﴿اقرأ﴾ تكويني ؛ فتكون الباء على هذا متعلقاً بمضمر هو حال من ضمير الفاعل أي اقرأ متلبساً باسم الله تعالى ، أي مبتدئاً به ، أي قل : بسم الله الرحمن الرحيم . كقوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرٰيهَا ومُرسٰيهَا﴾ على ما قيل . وقيل إنه دخلت الباء في «اقرأ باسم ربّك» لتدلّ على الملازمة والتكرير، كأخذت بالخطام[1] ولو قلت أخذت الخطام لم يدل على التكرير والدوام . فمعنى الآية على هذا أنه لا بدّ من القراءة دائماً أن تكون باسم الله وتقديم بسم الله الرحمن الرحيم .

وأما الربّ : فله معان كما ذكره الإمام الخميني ـ دام ظلّه ـ في تفسير « الحمد لله ربّ العالمين » وقال : الرب إن كان بمعنى المتعالي والثابت والسيد فهو من الأسماء الذاتية ، وإن كان بمعنى المالك والصاحب والغالب والقاهر فهو من الأسماء الصفاتية ، وإن كان بمعنى المربّي والمنعم والمتمم فهو من الأسماء الأفعالية ، ثم قال دام ظلّه ما حاصله : إن تقسيم أسماء الله تعالى بأسماء الذات والصفات والأفعال على اصطلاح أرباب المعرفة ؛ وقد ذكروا في ميزان هذا التقسيم أن الأسماء وإن كانت كلها أسماء الذات ؛ ولكنها باعتبار ظهور الذات يقال لها أسماء الذات ، وباعتبار ظهور الصفات والأفعال يقال لها الأسماء الصفاتية والأفعالية ؛ بمعنى أن الاسم تابع لاعتبارٍ يكون أظهر . فلهذا قد يجتمع في بعض الأسماء اعتباران أو الاعتبارات الثلاثة ، فيكون من الأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية ، أو الاثنين من هذه مثل الرب كما ذكر .

---

(١) الخطام : حبل يجعل في عنق البعير.

ولـه ـ دام ظلّه ـ كـلام في تقسيم الأسـماء والميـزان فيـه ، من أراد فليراجع كتاب الآداب المعنوية للصلاة .

فعلى هذا يختلف معنى الآيـة باختـلاف معاني الـرب . وبالنسبـة إلى المعنى المعروف وهو المربي فالمعنى : اقرأ مستعيناً باسم من رباك وأعـطاك هذه اللياقة وهذا الاستعداد . وهو الذي أعطى الوجود للموجـودات . فإعـطاء كمال الوجود ليس بأهمّ من إعطاء أصل الـوجود . والقـادر على هـذا قادر على ذاك أيضاً . وهذا نظير قـوله تعـالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَـا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَـهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1] .

يقول المفسّر الكبير الطباطبائي : إن الآية تدل على قصر الربوبيـة في الله عـزّ وجلّ ، وهـو توحيـد الربـوبية المقتضيـة لقصر العبـادة فيـه ؛ فـإن المشركين كانوا يقـولون إن الله سبحـانه ليس لـه إلا الخلق والإيجاد . وأمـا الربوبية وهي الملك والتدبـير فلمقربي خلقـه من الملائكـة والجن والإنس . فـدفعه الله بقـوله ، ربّـك الذي خلق النـاس على أن الـربوبيـة والخلق له وحده . انتهى .

أقول :

ويستفاد ما ذكره « قدّس سـرّه » من كثير من الآيـات كقولـه تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُـلِّ شَيْءٍ﴾[2] . وقولـه تعالى : ﴿أَلا لَـهُ الْخَلْقُ وَالأَمْـرُ تَبارَكَ اللهُ ربُّ الْعَـالَمِينَ﴾[3] وقـوله تعـالى : ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ

---

(١) سـورة يس آيـة ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٤ .

(٣) سورة الأعراف آية ٥٤ .

السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿وَلاَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2] . وغيرها من الآيات الكثيرة التي يستفاد منها أن الربوبية منحصرة لله وله توحيد الربوبية .

وأمّا قوله ـ قدّس سرّه ـ توحيد الربوبية المقتضية لقصر العبادة فيه ، وأن العبادة لا بدّ وأن تنحصر للرب لا لغيره ، فقد أشير إلى ذلك أيضاً في كثير من الآيات . كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[3] . وقد أشير في هذه الآية إلى أن الله هو الخالق والرب ، وأمر بعبادة هذا الرب . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾[5] . وغير ذلك من الآيات التي تفيد قصر العبادة للربّ تعالى .

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ :

هذه الآية من قبيل ذكر الخاص بعد العام ؛ فإن الآية الأولى وإن كانت تشتمل على أن الله سبحانه هو الخالق لجميع الموجودات ، ولكن الإنسان لأهميته خصّ بالذكر ثانياً .

فكأنّ خلق الإنسان يعدّ عملاً مستقلاً في مقابل خلق غيره فخصّ بالذكر .

---

(١) سورة الرعد آية ١٦ .　(٢) سورة آل عمران آية ٨٠

(٣) سورة البقرة آية ٢١ .　(٤) سورة آل عمران آية ٥١ .

(٥) سورة مريم آية ٦٥ .

ويستفاد أيضاً أن الآية الأولى تشتمل على معنى الخلقة من العدم . وهذه الآية على خلق شيء من شيء آخر .

والعلق : الدم المتجمد . والمراد ما تستحيل إليه النطفة في الرحم . لكن على هذا لا بد أن يكون للعلق خصوصية تخصّه بالذكر ، وإلا فالأفضل أن يذكر المبدأ الأول وهو التراب، أو المبدأ للنشء الآدمي وهو النطفة ؛ لكونهما أدلّ على كمال القدرة من العلقة ؛ لأنّهما أبعد من العلقة بالنسبة إلى الإنسانية .

أمّا العلقة فهي كالمضغة ، وما بعدها من الحالات المستحيلة من النطفة لا خصوصية لها لتذكر كمبدأ للخلقة ، وربما يدفع هذا التوهم بما ذكر في معنى العلق ؛ وهو كما في المنجد : دويبة سوداء تمتص الدم . والواحدة علقة ، وربما يقال إنّه دويبة صغرى يسمى به بعض الأسماك في مبدأ ولادته . وقد شاهدناه كثيراً .

والمادة الأولية لخلق الإنسان المسمى بـ (اسبر ما توزئيت) أشبه شيء بهذه الدويبة على ما جاءت صورتها مكبّرة في بعض الكتب الطبية . فلو كان هذا المعنى صحيحاً لكانت هذه الآية من المعجزات العلمية القطعية للقرآن الكريم . وإلا فلا بدّ من توجيهٍ للعدول عن النطفة إلى العلقة .

﴿اقرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ :

لعل الوجه في تكرار اقرأ والأمر بالقراءة ثانياً التأكيد كما يقوله صاحب الميزان . ويستدل ـ قدّس سرّه ـ على ذلك بالإطلاق . ثم قال : وقيل المراد به الأمر بالقراءة على الناس وهو التبليغ ؛ بخلاف الأمر الأول

فالمراد به الأمر بالقراءة لنفسه . كما قيل إن المراد بالأمرين جميعاً الأمر بالقراءة على الناس . قال : والوجهان غير ظاهرين .

أقول :

وعلى ما ذكرنا من أن الأول أمر تكويني فالثاني يمكن أن يكون تشريعياً ؛ إما بالقراءة لنفسه أو للناس أو لكليهما ، والله العالم .

﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ :

الواو في وربّك إما حالية أو استئنافية ، فتكون الجملة حالية على الأول واستئنافية على الثاني . وعلى أي تقدير يحتمل أن يكون معنى الربّ في الثانية إشارة إلى معنى غير ما أشير إليه في الآية الأولى ؛ بأن يكون الرب في الأولى إشارة إلى الربوبية الخَلقية والتكوينية ؛ ولهذا وصفه بالذي خلق . وفي الثانية إشارة إلى الربوبية الخُلقية والتشريعية ؛ ولهذا وصفه بالذي علّم بالقلم . وزاد في هذه وصفه بالأكرم تعريفاً لشموخ مقام العلم ، وأنه أعظم النعم الإلهية ، ولا تساويه نعمة من نعمائه حتى نعمة الوجود .

ولتوضيح ذلك ، وأن نعمة العلم أعظم وأشرف من نعمة الوجود ، نشير تطبيقاً إلى آية من سورة الانفطار . قال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾**[1] . فنرى أن الله سبحانه قد وصف نفسه بالكرم في مقابل نعمة الخلقة والتسوية والتعديل ، وقال ما غرك بربك الكريم ، ولكنه في مقابل إفاضة نعمة العلم وصف

---

(١) سورة الانفطار آية ٦ ـ ٧.

نفسه بالأكرمية وقال : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بيّن سبحانه بهذا البيان أهمية القلم ، وأنه الوسيلة لنشر العلوم وبقائها ، كما أن الله تعالى بيّن أهميته أيضاً بجعله مقسماً به في كتابه بقوله : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1] . ومما يلفت النظر في هذه الآيات هو تنظيم الكلمات وكيفية تقدمها وتأخرها : فإن القراءة قدمت على الكتابة وكررت القراءة لأن حدوث اللسان والبيان قبل الكتابة . والقراءة مقدمة على الكتابة زماناً ، ومن حيث المقام والأهمية أيضاً ؛ لأنّه لو لم تكن القراءة فالكتابة لم توجد مضافاً إلى أن كل كتابة للقراءة ، وليست كل قراءة للكتابة ، وأيضاً كل كتابة تستلزم قراءتين الأولى من الكاتب قبل الكتابة لأنه لا بدّ فيها من العلم بها قبلاً ، والثانية حين الكتابة وإن لم يتلفظ بها . هذا مضافاً إلى قراءة غير الكاتب من القراء .

ولعله لهذه الجهة أي لأرجحية القراءة على الكتابة سمي كتاب الله المجيد بالقرآن . مضافاً إلى أن القرآن أرقى من الكتاب معنى . فإنه ينظر إلى الأمام لا إلى الوراء . فإن المكتوب باعتبار أنه كتب قبلاً يسمى كتاباً ، ولكن القرآن بمعنى المكتوب الذي يقرأ وينبغي أن يقرأ . كذا قيل .

ومن لطائف هذه الآيات تكرار لفظ العلم . وهذا مضافاً إلى إفادته تعظيم العلم وتجليله يمكن أن يكون إشارة الى نوعين من العلم : الاكتسابي والإلهامي . فإن فعل ﴿علّم﴾ في المرة الأولى قيد بالقلم الظاهر في العلم الذي يتعلّمه أفراد البشر بعضهم من بعض . وحيث إن القدرة على التعلم والاستعداد له أمر مفاد من الله سبحانه ، والوسائل والأسباب

---

(١) سورة القلم آية ١ .

له كلها من الله تعالى ، نسب التعليم إلى نفسه وقال : علَّم بالقلم . ونظير هـذه النسبة كثير في القرآن كقولـه : ﴿**والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون**﴾[1] . وكذلك نسب خلق الفلك إلى نفسه مع أنه مصنوع للبشر وقال : ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ**﴾[2] . وهذا من لطائف معارف القرآن التي لم يسبقه بذلك أحد من الحكماء والفلاسفة قبل الإسلام . ولا شيء من الكتب السماوية الموجودة بأيدينا على ما يعتقده الإمام القائد دام ظلّه . وله بيان تفصيلي ليس هنا موضع ذكره .

وبالجملة ، يستفاد من تقييد الفعل في الآية الأولى بالقلم أنها تنظر إلى العلم الاكتسابي ، وفعل علّم في الآية الثانية يكون إشارة الى العلم الذي يحصل بوسيلة الوحي والإلهام من الله سبحانه ، ويكون على هذا معنى ما لم يعلم أي علّم الانسان ما لم يقدر أن يعلم ، ولم يكن له طريق إلى ذلك غير طريق الوحي والإلهام . وهذا الاستعمال كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿**لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾[3] . أي لا يقدرون أن يأتوا . وقوله تعالى : ﴿**وَلَنْ تَفْعَلُوا**﴾[4] . أي ولن تقدروا أن تفعلوا .

ومن هذا قبيل قوله تعالى : ﴿**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾[5] . أي ما لم تكونوا قادرين على تعلمه من غير النبي . وهذا النوع من التعليم هو اللائق بشأن النبي ؛ وإلا فتعليم ما لم يكن الإنسان يعلم يتأتّى من كل عالم ، على اختلاف مراتبهم في العلم ، وليس شأناً مخصوصاً للنبيّ ليذكره الله في مقام الإمتنان بقوله : ﴿**يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ**

---

(١) سورة الصافات آية ٩٦. (٢) سورة الزخرف آية ١٢ . (٣) سورة الاسراء آية ٨٨.

(٤) سورة البقرة آية ٢٤ . (٥) سورة البقرة آية ١٥١ .

﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[1] .

وللإمام القائد في بعض خطاباته إشارة إلى ما ذكرنا ؛ فإنه قال في خطابه للمعلمين والأساتذة وهو يذكر أهمية التعليم وأنه فعل الله وفعل أنبياء الله ، واستشهد بالآية الشريفة : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[2] . وقال إن التدبّر في الآية الشريفة يعطي نكاتاً ، وذكر منها قوله تعالى : ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ قال :

فإن المراد من الأمّيين جميع أفراد البشر ، لأن جميع البشر أمّيون بالنسبة إلى العلوم الإلهية التي أفيضت عليهم بواسطة النبيّ الأعظم ، وإن كان بعضهم عالمين بعلوم ماديّة . والرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم له حقّ التعليم على جميع العائلة البشرية . ـ انتهى ـ

كما أن لله تعالى حقّ التعليم على نبيّه حيث يقول مخاطباً إياه : ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[3] .

ومن المعلوم أن العلوم التي أفيضت على نبيّنا لم تكن من العلوم المتداولة بين البشر ، ولم يكن لها طريق سوى الوحي والإلهام . وهذا الموضوع ـ أي موضوع أن من العلوم ما هو إلهامي وبواسطة الوحي ـ موضوع وسيع النطاق ، يقتضي أن يؤلف في توضيحه وتشريحه كتاب مستقلّ .

مع العلم بأنّ العصبية العمياء ربما تمنع بعض الناس عن قبوله ، وإن أُوتي بالبراهين والأدلة القوية لبعض المعاندين الذين يحكي القرآن عن

---

(١) سورة البقرة آية ١٥١ . (٢) سورة الجمعة آية ٢ . (٣) سورة النساء آية ١١٣ .

أحـوالهم بقولـه : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ بِكُـلِّ آيَـةٍ مَـا تَبِعُـوا قِبْلَتَكَ﴾[1] . فجميع المعجزات لو أُتي بها لم تنفع المشرك المعاند ، وهكذا الأدلـة والبـراهـين للمتعصبـين الجـاهلين ، ولكن العـاقـل المنصف يكتفي بالإشارة . ولتفصيل الكلام محل آخر .

﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ :

كلّا : كلمة ردع ، ولها معان أخر ، منها التحقيق والتنبيه كما ذكـرها اللغـويون ، ولكن حيث إن معنـاها المشهـور هو الـردع فقد فسّـرهـا أكـثر المفسّرين في جميع القرآن بمعناها المشهور . ووقعوا في التكلف فيما لم يكن ما بعـدها مـرتبطاً بمـا قبلها ، كـما في سورة «المـدثر» مثـلاً : : قـولـه تعـالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَـرَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَـا سَقَرُ* لاَ تُبْقِي وَلاَ تَـذَرُ* لَوَّاحَـةٌ لِلْبَشَرِ* عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ* وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلى قوله وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّـكَ إِلاّ هُوَ ومَا هِيَ إِلاّ ذِكْرَى لِلبَشَرِ* كَلَّا وَالقَمَرِ* واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ* إِنَّهَا لَإِحْدَى الكُبَرِ﴾[2] فمن الواضح أن ﴿كلّا﴾ هنـا لا يستقيم معناها بمعنى الردع ، ومع ذلك فسّرها كثير من المفسرين بهذا المعنى . منهم الفيض رحمه الله وقال : ردع لمن أنكـرها ؛ وهكـذا فسرهـا في روح البيان وغيـره مع تكلف في تـوجيهها كـما لا يخفى . وإذا كان أحـد معـانيهـا هـو التحقيق أو التنبيه فلا موجب لحملها على معنى يوجب التكلف .

وكذلك في الآية التي هي مورد للبحث ؛ فإن معنى الردع يحتـاج إلى التوجيه كما فعله المفسر الكبير الطباطبائي «قدّس سـرّه» حيث قال : ردع عمّا يستفاد من الآيات السابقة أنه تعالى أنعم على الإنسان بعظائم نعم مثل

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٥ . (٢) سورة المدثر آية ٢٦ ـ ٣٥ .

التعليم بالقلم وسائـر ما علّم والتعليم من طـريق الوحي فعـلى الإنسان أن يشكره على ذلك ولكنه يكفر بنعمته ويطغى . انتهى .

ولـو قلنـا بـأنها بمعنى التحقيق أو التنبيـه فتكـون جملة مستقلة تـامـة المعنى . وليس من الـلازم أن تكون الآيـات كلها في جميـع القرآن مـرتبـطة بعضها ببعض كما هو ظاهـر ؛ ويؤيد كـون الآية مستقلة في معنـاها ، غـير مـرتبطة بمـا قبلها إجمـاع المفسرين بـأنها نزلت فيـما بعد ، وأن الآيـات التي نزلت في بداية البعثة هي قوله تعالى ﴿اقرأ باسم﴾ إلى ﴿ما لا يعلم﴾ .

﴿لَيَطْغَى﴾ : طغيان بضمّ الـطاء وكسرهـا وطغيا في النـاقص اليائي وهكذا في طَغْواً وطُغُواً وطُغوانـاً في الناقص الـواوي بمعنى : الغلو في الكفر والظلم والمعاصي . وكأن الجامع للموارد هو التجاوز عن الحدّ . ومنه طغى الماء أي ارتفع .

﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ : الـظاهـر أن رأى من الـرأي لا من الـرؤيـة البصـرية ، أي إذا كـان رأيه أنـه استغنى . الغنى والغناء بـالفتـح والمـد : الاكتفـاء وعدم الحـاجة : وإنمـا يطلق عـلى المال والثـروة لأنها سبب لعـدم الحـاجة من بـاب تسمية السبب بـاسم المسبّب . وأما الاستغنـاء عن مورد البحث فقد استعملت هذه الكلمة في القرآن في أربعة موارد :

الأول : في سورة التغابن : ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَىٰ اللهُ﴾[1] .

الثاني : في سورة عبس : ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾[2] .

---

(١) سورة التغابن آية ٦ . (٢) سورة عبس آية ٥ ـ ٦ .

الثالث : في سورة الليل : ﴿**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾[1]

الرابع : هذه السورة : ﴿**أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾[2] .

في الثلاثة الأخيرة التي فاعل الفعل فيها هو الإنسان،الآيات في مقام الذمّ للمستغنين ، بخلاف المورد الأول فإن فاعله هو الله ، ولا يمكن أن يكون مورداً للذمّ ؛ فلا بدّ من النظر في معنى الاستغناء حتى يعلم أنّه في أي مورد مذموم وفي أي منه غير مذموم . فبالتوجه إلى موارد الاستعمال ومعاني باب استفعال تستفاد هذه المعاني لهذا الفعل :

الأول : أن يكون الاستغناء بمعنى الاكتفاء؛وعلى هذا يكون المستغني من يكتفي بماله ويراه كافياً لنفسه،ولا يشتغل بالأمور المهمة الأخرى من وظائفه الدينية والأخلاقية والأمور المعنوية والأخروية، وتكون جميع أوقاته مستغرقة في جمع المال والثروة والكسب والتجارة، أو تحصيل المنصب والمقام وغير ذلك من الشؤون الدنيوية؛وهذا على خلاف أُولئك الذين مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمَاً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾[3] . ويمكن أن يكون الاستغناء في السورتين : الليل وعبس بهذا المعنى .

الثاني : أن يكون بمعنى الاغتناء أي كونه غنياً ، ومقابله الافتقار أي كون الإنسان فقيراً ، كما استعمله في هذا المعنى أمير المؤمنين في خطبة يصف فيها الدنيا . يقول عليه السلام :

---

(١) سورة الليل آية ٨ ـ ١٠ . (٢) سورة العلق آية ٧ . (٣) سورة النور آية ٣٧ .

« ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن » .

والاستغناء بهذا المعنى ليس مذموماً في حدّ نفسه ، سواء كان الفاعل هو الله سبحانه فإنه الغنيّ الحقيقي : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾[1] . أو كان فاعله الإنسان . كما أن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً ليس في مقام ذمّها في هذه الخطبة ، بل يبين أن الغنى والمال موجب للافتتان والابتلاء والامتحان ؛ ولذلك قيل : إن الصبر على الغنى أشدّ من الصبر على الفقر حيث إن أكثر أفراد البشر عندما يكونون ذوي غنى ومال تفسد أخلاقهم ويتمردون على أوامر الله ، ويتكبرون ويأخذهم الغرور بالمال والثروة ، ويتجاوزون حدود الآداب الإنسانية ، فلذلك يكون مذموماً .

وقد روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال : « إنّما أتخوّف على أمّتي من بعدي ثلاث خصال ؛ أن يتأوّلوا القرآن على غير تأويله ، أو يبتغوا زلة العالم ، أو يظهر فيهم المال حتى يطغوا ويبطروا » .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في صفة أعجب ما في الإنسان وهو القلب : « إن أفاد مالاً أطغاه الغنى وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع » .

وفي الحديث : جاء رجل موسر الى رسول الله نقي الثوب ، فجلس إلى رسول الله ، فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر ، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه ، فقال له رسول الله : أخفت أن يمسك من فقره شيء ؟ قال : لا . قال : فخفت أن يصيبه من غناك

---

(١) سورة فاطر آية ١٥ .

شيء ؟ قال : لا . قال : فخفت أن يوسخ ثيابك ؟ قال : لا . قال : فما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله ، إن لي قريناً يزين لي كل قبيح ويقبح لي كل حسن ، وقد جعلت له نصف مالي . فقال رسول الله للمعسر : أتقبل ؟ قال : لا . فقال له الرجل : لم ؟ قال : أخاف أن يدخلني ما دخلك .

فيكون معنى الآية على هذا أن الإنسان إذا تلبس بالغنى وصار غنيّاً يطغى ويتعدى طوره . وهذا إخبار بما في طبع الإنسان . كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1] . فلا ينافي أن يمنع من ظهور ما اقتضاه طبعه كما في غيره من الصفات .

الثالث : أن يكون الاستغناء بمعنى طلب الغنى . ولا شكّ أن أشهر معاني الاستغناء أي باب الاستفعال هو هذا المعنى ؛ أي طلب مادة الفعل كاستفهام واستعلام واستشهاد واستعفاء واستخراج ؛ بمعنى طلب الفهم والعلم والشهادة والعفو والخروج ، وكثير من هذا القبيل . وهكذا في المعتلّات كالاستخارة والاستشارة والاستفادة والاستضاءة ؛ بمعنى طلب الخير وطلب المشورة وطلب الفائدة وطلب الضوء والنور .

هذا المعنى لا يستقيم في الآية الأولى التي ذكرناها ، وهي الآية السادسة من سورة التغابن : ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾[2] . كما هو ظاهر ؛ فإن جميع الصفات الذاتية في الحق تعالى فعلية ومتحققة ، وليست بالقوة حتى يتصور طلبها . ولكنه يستقيم في سورتي عبس والليل كما ذهب إليه بعض المفسّرين ؛ منهم الطباطبائي (قدّس سرّه) حيث قال في تفسير :

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٤ .   (٢) سورة التغابن آية ٦ .

﴿... ما مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى﴾[1] . والاستغناء طلب الغنى والثروة بالإمساك والجمع . وقال في تفسير : ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾[2] . إنك تعتني وتقبل على من استغنى واستكبر عن اتباع الحق وإن كان في كلامه هذا تهافت مع صدره فليراجع .

كما أن هذا المعنى لا يستقيم فيما نحن فيه ، لأنّه لا معنى لأن نقول إن الإنسان ليطغى أن رآه يطلب الغنى ؛ فإنه من البديهي أن الطغيان ليس معلولاً لطلب المال والثروة والغنى . فلا بدّ أن يفسر في المقام بمعنى أنه يطغى إذا رأى نفسه أنها صارت ذات مال وارتفعت حاجتها .

ولكن الفخر الرازي على ما حكي عنه جعل استغنى في هذه الآية بمعنى طلب الغنى . واستفاد من نكتة لطيفة وهي أن معنى الآية أن الإنسان ليطغى حينما يرى أنه هو الذي استغنى ، وهو الذي طلب المال واكتسبه بسعيه وتدبيره ، لا بلطف من الله وعطائه . والإنصاف أنها دقة في الآية ، نظير ما يحكى في القرآن عن قارون حيث قال : ﴿إنَّما أُوتِيتُهُ عَلَىَ عِلْمٍ عِنْدِي﴾[3] وللاستغناء معنى آخر ذكره المفسرون تركناه .

ونتيجة البحث أن القرآن في توجيهاته المتكررة ينبّه البشر إلى أن الثروة والمال من أعظم مصائد إبليس . وقد وقع في فخّه هذا كثير من الناس ؛ فمنهم من صرف أكثر عمره في جمع المال وآثره على كل شيء من أمور الآخرة ، حتى على راحة نفسه وعياله ، ولم يستفد من ماله في حياته الشخصية أيضاً ، فبقي العناء له واللذة لغيره ؛ وهذا من أكبر الخسائر . ومنهم من أخذه الاستكبار والغرور واتكل على نفسه وغفل عن فضل الله

---

(١) سورة الليل آية ٨. (٢) سورة عبس آية ٥ ـ ٦ . (٣) سورة القصص آية ٧٨ .

وعنايته ، كما ذكرنا عن قارون . ومنهم من أوقعته كثرة المال في الشهوات والطغيان والعصيان ، وهذا الخطر عظيم جداً وكثير في الناس عدداً ، ولا سيّما في سني الشباب كما قيل :

إن الفراغ والشباب والجِدَة مفسدة للمرء أي مفسدة

ولكن كل تلك المفاسد للذين لم يتربّوا تربية دينية ، ولم يعتقدوا بالمبدأ والمعاد .

وفي مقابل هؤلاء تجد أفراداً يستخدمون نعم الله سبحانه في سبيل طاعته وصلاح أنفسهم ومجتمعهم ، ويتخذون المال وسيلة لنيل درجات الآخرة ، فيجاهدون في سبيل الله بأموالهم ، فيقدمون أموالهم لآخرتهم ويحسبونها زاداً لسفرهم ، كما نبّه بذلك أمير المؤمنين عليه السلام في وصية كتبها لابنه الحسن عليه السلام منصرفاً في صفين ، منها :

« وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمّله إياه ، وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه ، فلعلك تطلبه فلا تجده ، واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك » الوصية . .

فإذا تربّت النفس بهذه التربية ، ورأى المال والثروة وسيلة الى قضاء حوائج النّاس وأداء الواجبات ؛ فيكون كما قال صلى الله عليه وآله : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . وكما قال عليه السلام : « نعم العون على التقى الغنى ». بل ربـمّا تقوم بالمال قواعد الدين فلولا بذل المسلمين أموالهم في سبيل الإسلام لما قام للإسلام قائمة .

﴿إن إلى ربّك الرجعى﴾ :

الـرجعى مصدر معنى الـرجوع . قـال الـطبـاطبـائي قـدّس سـره : والظاهر من سياق البعيد الآتي أنه بعيد وتحـديد بـالموت والبعث والخـطاب للنبي . انتهى .

أقول على مـا ذكره : يستفـاد من الآية تأسي النبي صلّى الله عليـه وآلهفي ما أصابه من الأذى من عدوه الذي نهاه عن الصلاة وعن المناجـاة مع مولاه ، بأن مرجعه إلى الله بصفته الربوبية لك ، فيجزيه الرب تعالى جزاء من أساء الأدب بجنابك .

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهىٰ * عَبداً إذا صلّى* أَرَأَيْتَ إن كَانَ عَلىٰ الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بالتَّقْوىٰ* أَرَأَيْتَ إنْ كَذَّبَ وتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَمْ بأنَّ الله يرى﴾ .

ذهب بعض المفسّرين إلى أن الآيات نـزلت في أبي جهل ، وأنـه قال في مـلأ من طغاة قـريش : لئن رأيت محمداً يصـلّي لأطأنّ عنقـه . فـرآه في الصلاة ـ وهي صلاة الظهر ـ فجاءه ثم نكس على عقبيه ، فقالوا ما لـك ، فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة فقال صلّى الله عليه وآله : « والـذي نفسي بيده لـو دنا منّي لاختـطفته المـلائكة عضـواً عضواً » .

وقال بعض آخر : إن الناهي كان وليداً والمنهي سلمان أو المسلمون ؛ وكيف كان فلا يختلف المعنى بشأن النزول كما هو كذلك في أكثر الموارد في القرآن ، ولا يكون المورد مخصصاً كما هي القاعـدة المعروفـة . والعمدة أن لفظ «أرأيت» كرر ثلاث مرّات وهو استفهام ظاهراً وتعجب وتقبيح وتشنيـع معنى ؛ كـما في قولـه : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَـذِّبُ بِالـدِّين﴾ . وسيأتي . ولكن المخاطب من هو؟ قال بعض المفسرين : إن المخاطب في الجميع هو النبيّ صلّى الله عليه وآلـه وسلّم . فعلى هـذا يكون التكـرار للتأكيـد فقط . وهو الظاهر في الخطابات المفردة في القرآن وأن المخاطب هو النبيّ إلا أن تكون

قـرينة صـارفة عن هـذا الـظهـور . وقـال بعض : إن المخـاطـب في الأولى والثالثة هو النبي وفي الثانية هو الناهي عن الصلاة (أبو جهل أو الوليد) . وقـالوا في تـوجيه ذلـك إن الله سبحانـه في المقام كمـولى يخاطب عبـدين : مطيعاً وعـاصياً ، أو كحـاكم يخاطب المتخـاصمَين فيـوجه الكـلام تارة إلى أحدهما وأخـرى إلى الآخـر ، فعلى هذا يكـون معنى الآية : أرأيت يـا أبا جهل إن كان الـذي تنهاه عن الصـلاة على الهـدى ؛ ويهدي النـاس بقولـه وفعله إلى التقـوى ؛ فما جـزاؤك في نهي هذا العبـد عن الصلاة وإيـذائـك إياه ؟

ثم يخاطب النبيّ ويقول : أرأيت يـا رسول الله إن كـذب ناهيـك عن الصلاة وتولى عن الحق ؛ ألم يعلم بأن الله يرى ؟!

ونظير ذلك ، أي العدول من مخاطب إلى مخاطب آخر في القرآن قوله تعـالى : ﴿يُوسُفُ أَعْـرِضْ عَنْ هَذٰا وَاسْتَغْفِـري لِـذَنْبِـكِ﴾[1] . وإن كـان تـأنيث الضمير في هـذه الآيـة قـرينـة للعـدول ، ولكن الغـرض أن أصـل العدول موجود في القرآن . وفي الآيات أقوال أخر تركناها .

والحاصل من مجموع الآيات أن الله سبحـانه بعـد ما بـيّن أنه تعـالى بقدرته وحكمته خلق الإنسان وربّـاه وأكرمـه بالتعليم وعلمـه ما لم يعلم ، فهذا الإنسان حينما يرى نفسـه مستغنية عن الله ، ويتكـل إلى حولـه وقوتـه يطغى ؛ وهو مع ما له من الشرف والكمال يخضع لكل موجـود من الجماد والنبات والحيوان ، ويتعلق قلبه بالمال ومتاع الدنيا ، ويتمرد على طاعـة الله الذي هو ولي هذه النعم ، غفلة عن أن الله سبحانه هو الذي أعطاه العقل

(١) سـورة يـوسف آيـة ٢٩ .

والفكر والقوة والقدرة للاستمتاع بهذه النعم ، وأن جميع هذه القوى من الله ؛ فوجوده ومزايا وجوده كلها لله ، وإليه يعود ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ومنه المبدأ وإليه المعاد ، وإن إلى ربّك الرجعى .

لكن طغيان هذا الموجود ليس له حدّ يقف عنده ، بل يتجاوز ، ولا يكتفي بعدم إتيانه وظيفة عبوديته ، بل ينهىٰ أشرف خلق الله وأكرم عباده عن أعظم عبادة لله وهي الصلاة . ولم يذكر اسم الناهي لعله للتنبيه على أن العناية إنما هي على نفس العمل ، وأنه هو الذي يتصف بالقبح والحسن ، ليس للعامل فيه دخل سواء أكان العامل عظيماً أو حقيراً ، وسواء أكان صالحاً أو غير صالح ، فربما صدرت أعمال حسنة من غير الصالحين ، وبالعكس ربما صدرت أعمال قبيحة من الصلحاء ؛ فالحسن من الكل حسن والقبح من الكل قبيح ، وإن كان من بعض أحسن ومن بعض أقبح ؛ وهذا الأصل التربوي المهم في الإسلام قد روعي في كثير من الموارد ، وأُيّد بقول الأئمّة وهداة الدين وعلمائه وبفعلهم بأنه لا بدّ أن يكون الأصل المذكور مورداً للتوجه كي لا يغتر المتظاهرون بالصلاة ، ولا ييأس المشتهرون بالسوء .

أتى الحارث بن حوط أمير المؤمنين عليه السلام وهو يريد الناكثين الذين نقضوا عهدهم . فقال : أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة ؟ فكأنّه أراد أن يقول : كيف يمكن أن يكون طلحة والزبير حواريّا رسول الله وعائشة أم المؤمنين على باطل ؟ فقال عليه السلام : يا حارث ، إنّك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت ؛ إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه ، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه .

قال عبده : إنك نظرت إلى آخره ، أي أصاب فكره أدنى الرأي ولم يصب

أعلاه .

وفي ما نقل عن أمالي المفيد : فقال لـه الحـارث : لـو كشفت ـ فـداك أبي وأمّي ـ الرَّيْنَ عن قلوبنا وجعلتنـا في ذلك عـلى بصيرة من أمرنا ؛ قـال عليه السلام . . . . فإنك امرؤ ملبـوس عليك ؛ إن دين الله لا يعـرف بالـرجال بل بآية الحق ، فاعرف الحق تعرف أهله .

وفيـما نقـل عن كتـاب « عـليّ وبنـوه » لـطه حسـين : إنـك لملبـوس عليك ، إن الحق والباطل لا يعرفان بأقـدار الرجـال ؛ اعرف الحق تعـرف أهله ، واعرف الباطل تعرف أهله . انتهى .

ومع الأسف إن مجتمعنا الإسـلامي حتى اليوم قـد خسر كثيراً نتيجـة عدم رعاية هذه الحقائق والأصول الإسلامية .

وبالجملة : إن للقرآن الكريم عناية خاصة بهذا الأصـل التربـوي . وجميع القرآن من أولـه إلى آخره يـركز عـلى نفس الأعمال من حيث الحسن والقبـح ، من دون النظر إلى من يصـدر منـه العمـل ؛ ولـو ذكـر في بعض الموارد بعضاً من العالمين كقارون وفرعون وأبي لهب وغيرهم فلحكمة أخرى كـانت في ذكـر أسمــائهم ، لا أن العمـل اكتسب صبغــة الحسن والقبـح منهم ، كما يأتي في تفسير سورة أبي لهب .

﴿أرأيت الـذي ينهى﴾ : أتى بالفعـل المضـارع الـذي يـدل عـلى الاستمرار إشارة إلى أن الإتيـان بالأعمـال القبيحة إذا كـانت مستمرة فهي موجبة للوم والعتاب والعقاب ، وأما إذا صدر عمل ما من أحـد غفلة ، أو ارتكب معصية ثم تاب ورجع ، فإنه موضع للغفران . قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَـرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَـرُوا

لذنوبهم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[1] وقال تعالى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى* الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ﴾[2] في المنجد ألمّ بالأمر لم يتعمق فيه وبالطعام لم يسرف في أكله .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : الفواحش : الزنى والسرقة . واللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله .

﴿عبداً﴾ :

جاء باسم الظاهر دون ضمير المخاطب مع أن أكثر المفسرين أجمعوا على أن المخاطب هو النبي . ولم يقل ينهاك لعله للإشارة إلى أمور :

١ ـ لإفادة العموم ، وأن نهي أي عبد من العباد عن الصلاة وعن العبادة أمر قبيح ومذموم ؛ ولو قال أرأيت الذي ينهاك ؛ ربما يستفاد أن نهي النبي بالخصوص كان مذموماً لأنه نبيّ ، وأما الآخرون فلا بأس بمنعهم عن الصلاة ؛ وفي نفس الوقت تتضمن الآية أن منع كل عبد من العباد عن العبادة إذا كان قبيحاً فنهي نبيّ الله عنها أقبح .

٢ ـ إن العبد مشتق من العبودية ، والعابد من العبادة ، فالإتيان بهذه الكلمة للإشعار إلى أن منشأ النهي للناهي هو الإتيان بوظيفة العبودية ، وذلك لقاعدة عليّة مبدأ الاشتقاق ، وأن تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعليّة .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٢) سورة النجم آية ٣١ ـ ٣٢ .

وبعبارة أوضح كان الناهي يمنع عبداً عن الإتيان بما هو وظيفته ، وهذا ـ مضافاً إلى أنه على خلاف الشرع ـ خلاف للعرف ونقض للقوانين الاجتماعية والدولية . فالناهي ليس ملتزماً بأحكام الشرع فحسب ، بل ليس له ثقافة اجتماعية . ورعاية للقوانين في المجتمع ؛ فتقبيح عمله لا يختص بالمتشرعين ، بل غيرهم أيضاً يقبحونه في عمله هذا .

٣ ـ لفظ العبد وإن كان نكرة ومطلقاً ولكن بالقرائن ، ومنها اشتغاله بالعبادة والصلاة ؛ لا يشكّ أن المراد منه ليس عبداً من عباد الناس بل هو عبد من عباد الله ، والفرد الأكمل لهذا المطلق من بين عباد الله هو الرسول الأعظم، الذي مدحه الله سبحانه بهذه الصفة في عدة موارد كقوله : ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[(١)] . ﴿أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾[(٢)] . ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ﴾[(٣)] . ﴿نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[(٤)] . ﴿فَأَوْحَى إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾[(٥)] . وغير ذلك . فالتنكير في المقام لا يؤثر ؛ بل هو كعبد الله ، وعبده معلوم ومشخص . ومع ذلك تنكيره من جهة التفخيم والتعظيم في العبودية : فكأنه يقول : لا يمكن لأحد وصف عبودية هذا الفرد وإخلاصه في العبودية .

﴿إِذَا صَلَّىٰ﴾ .

ربما يستفاد من هذه الكلمة أن للصلاة خصوصية بين الوظائف العبودية وأنها من أهمها،فإن النهي والمنع عن وظيفة العبودية قد استفدناه من لفظ ﴿عبداً﴾ بحكم مبدئية الاشتقاق كما ذكرنا ، وبعد ذلك الإتيان

---

(١) سورة الاسراء آية ١ . (٢) سورة الكهف آية ١ . (٣) سورة الجن آية ١٩ .
(٤) سورة الفرقان آية ١ . (٥) سورة النجم آية ١٠ .

بجملة ﴿إذا صلّى﴾ يعطي مزيد خصوصية للصلاة من بين الوظائف ، وهو كذلك ، فإنها أول ما عرّف به المتقون والمؤمنون في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ﴾ [1] للأوّل ﴿الذينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[2] للثاني . وجعل السهو عنها علامة للمكذبين بالدين والمرائين في قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِين هُمْ يُرَاؤُونَ﴾[3] .

﴿أَرَأَيْتَ إن كان على الهدى﴾ قال الطباطبائي - قدّس سرّه - وغيره : أرأيت بمعنى أخبرني ، والاستفهام للتعجب . وقال : أخبرني عن هذا الناهي إن كان ذلك العبد المصلي على الهدى أو أمر بالتقوى ، كيف يكون حال هذا الناهي وهو يعلم أن الله يرى ؟ أخبرني عن هذا الناهي إن تلبّس بالتكذيب للحق والتولي عن الإيمان به ، ونهى العبد المصلي عن الصلاة وهو يعلم أن الله يرى، هل يستحق العذاب ؟!

فعلى ما ذكر - قدّس سرّه - يتغير الضمير في الأفعال ؛ فالضمير في ﴿كانَ على الهُدىٰ أَوْ أَمَرَ﴾ راجع إلى العبد المصلّي ، وفي ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ راجع إلى الناهي ، مضافاً إلى التعقيد الذي يشاهد في المعنى .

وبنظري القاصر : لو كان الضمير في الجميع راجعاً إلى الناهي لكانت استقامة المعنى أكثر ، فيفسّر : أليس برأيك أن الناهي لو كان صالحاً وكان على الهدى أو أمر بالتقوى فما أحسنه ! وفي مقابل ذلك إن كذب وتولى كما هو حاله الآن فماذا يضرنا ؟ وإنما ضرر فعله وخسرانه على نفسه .

---

(١) سورة البقرة آية ٣.   (٢) سورة المؤمنون آية ٢ .   (٣) سورة الماعون آية ٤ - ٦ .

وبنظري أيضاً يستفاد من الآية ﴿**أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى**﴾ مرتبتان من الصلاح :

الأولى : أن يكون الإنسان على الهدى وفي طريق الهداية لينجي نفسه ويخلصها من الهلاك والشقاء .

والثانية : أنه إذا لم يكن هو في طريق الصلاح والهداية فعلى الأقل لا يكون مانعاً غيره عن الصلاح ، بل يأمره بالتقوى والصلاح . وهذه أيضاً درجة يرجى لصاحبها الخير لما فيه من حسن السريرة ، نظير ما قيل :

أحبّ الصالحين ولستُ منهم ... ولي قلب يهش إلى الصلاح

ولكن الشقاوة كلها في أن الإنسان لا يكون على الهدى ولا يأمر بالتقوى بل يكون صادّاً لسبيل الله على سُلّاك طريقه .

﴿أَلَمْ يَعْلَم بأنَّ الله يَرىٰ﴾ :

هذه الآية الشريفة من الأصول التربوية المهمة التي تختص بالدين الإلّهي ، وبالأخص الإسلام ، ولا توجد في منظمة من المنظمات البشرية .

ولتوضيح المقام نقول : إن الله سبحانه جعل بقدرته وحكمته للإنسان أموراً فطرية تكون هادية لصالح دنياه وآخرته ، ويشترك جميع أفراد البشر في هذه الأمور الفطرية ، سواء العامّيّ والعالم والمدني وغيره والمثقّف وغيره ، وتوجد تلك الأمور الفطرية حتى في الأفراد المتوحشين من البشر الذين لم يشتمّوا رائحة العلم والثقافة ، ولا يستثنى منها أحد من البشر ، ولهذا البحث تفصيل ليس هنا محلّ ذكره . وقد أثبت الحكماء الإلّهيون بتلك الأمور الفطرية كثيراً من المعارف الإلّهية ؛ كما بيّنه الإمام القائد الإمام الخميني دام ظلّه ، ويذكر منها شيئاً كثيراً عن شيخه وأستاذه في العلوم

الإلهية الشيخ محمد علي شاه آبادي قدّس سرّه .

وبالجملة : من هذه الأمور الفطريـة المستودعـة في فطرة جميـع البشر الحياء في الحـضـور . فالإنسان مهما بلغ من الوقاحـة والتهتك يفرق بين أن يعمـل عملاً سيّئـاً في الخلاء أو في المـلأ . فيستحيي في الملأ لا محـالة ، وإن كان بشيء من الحياء . فالحياء من الحاضر أمر جبليّ فطري لا يشذّ عنه أحـد من البشر، خصوصـاً إذا كان الحـاضر عظيـماً من العـظماء ، فيكـون الاستحياء منه أشدّ ، بل ربما لا يقدر على الإتيان بعمـل قبيح عنـد العظيم استحياء منه ، وخصوصاً إذا كان ذاك العظيم ولي نعمة له ، فيستحيي منه أكثر من غيره .

وتختلف مراتب الحياء عـلى حسب مراتب الحضـور ومراتب العـظمة ومراتب ولاية النعمة ، وعلى حسب عظمة النعمـة وكثرتهـا كمية وكيفيـة . ففي قضية الحضور مثلاً : تارة يكـون الحضور حضـوراً علمياً لا حضـوراً خارجياً ووجودياً ؛ فنفرض أن العبد يعمـل عملاً في بيتـه وغرفتـه ، ولكنه يعلم بأن المولى وإن كان غائباً عن مجلسه ولكنه في غرفة أخرى مشرفة عـلى غرفته فيرى ما يعمله . وأخرى يكون الحضور حضوراً خارجياً ووجـودياً ، فنفرض العبد يرى المولى حاضراً وموجوداً عنـده . فمن الواضـح أن الحياء في الصورة الثانية أكثر وأشدّ منه في الصـورة الأولى . وإلى هاتـين المرتبتـين أشير في الرواية المرويـة عن النبيّ صلّى الله عليـه وآله وسلّم وعن الصـادق عليه السلام . ونحن نذكر الـرواية عن الصـادق عليه السـلام لما فيهـا من الفوائد الأخرى :

روى المحـدث الجليل المجلسيّ رضـوان الله عليـه عن كتـاب قضـاء الحقوق وثواب الأعمال ورجال الكشّي بأسانيدهم ، عن إسحاق بن عمـار

قال : لما كثر مالي أجلست على بابي بواباً يردّ عنّي فقراء الشيعة ، فخرجت إلى مكّة في تلك السنة ، فسلّمت على أبي عبد الله فردّ علي بوجه قاطب مزورّ[1] ؛ فقلت له :

جعلت فداك . . ما الذي غير حالي عندك ؟ قال : تغيرك على المؤمنين . فقلت : جعلت فداك ، والله إني لأعلم أنهم على دين الله ، ولكن خشيت الشهرة على نفسي . فقال : يا إسحاق أما علمت أن المؤمنين إذا التقيا فتضافحا أنزل الله بين إبهاميهما مئة رحمة ، تسعاً وتسعين لأشدهما حباً ، فإذا اعتنقا غمرتهما الرحمة ، فإذا لبثا لا يريدان بذلك إلا وجه الله تعالى قيل لهما غفر لكما ، فإذا جلسا يتساءلان قالت الحفظة بعضها لبعض : اعتزلوا بنا عنهما ، فإنّ لهما سرّاً وقد ستره الله عليهما ؟ قال : قلت جعلت فداك . فلا تسمع الحفظة قولهما ولا تكتبه وقد قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ : قال : فنكس رأسه طويلاً ثم رفعه وقد فاضت دموعه على لحيته وقال : إن كانت الحفظة لا تسمعه ولا تكتبه فقد سمعه عالم السرّ وأخفى . يا إسحاق خَفِ اللهَ كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك .

فهذه الجملة الأخيرة هي التي ذكرنا أنها إشارة الى المرتبتين من الحضور . فكأنّ الإمام يقول لا بدّ أن يكون يقينك وخوفك من الله عز وجل بحيث ترى إحاطته الوجودية على جميع الأشياء وأنه محيط بكل شيء إحاطة وجودية وأنه قيّوم كل شيء وشهيد على كل شيء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2] فحينئذ تخاف الله كأنّك تراه ، وتكون ملتفتاً ومتوجهاً

---

(١) قطب الرجل : زوى وقبض ما بين عينيه وعبس .وازورّ عنه : مال.

(٢) سورة فصلت آية ٥٣ .

إلى محضر الله وحضوره ، ولو لم يكن لك هذه المرتبة من الحضور فلا أقل من المرتبة الثانية ؛ وهي أن الله تعالى يراك ، وأنك في محضره وإن كنت غائباً عن الحضور ، وهذه المعرفة إذا حصلت تمنع الانسان من ارتكاب المعصية ، كما منعت يوسف عليه السلام إذ همّت به وهمّ بها ، وهذا هو البرهان الذي رآه يوسف كما في روايته عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما همّت به وهمّ بها قامت إلى صنم في بيتها فألقت عليه ملاءة لها فقال لها يوسف : ما تعملين ؟ فقالت : ألقي على هذا الصنم ثوباً لا يراني ، فإني أستحيي منه ، فقال يوسف : أنت تستحيين من صنم لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحيي أنا من ربّي ؟!

ولرواية إسحاق هذه ذيل تقشعر منه الجلود ، وهو أنه بعد قوله فإن كنت لا تراه فإنه يراك . . قال عليه السلام : فإن شككت أنه يراك فقد كفرت،وإن أيقنت أنه يراك ثم بارزته بالمعصية فقد جعلته أهون الناظرين إليك .

فيا لها من كلمة ما أعظمها وأوحشها ! لذلك يقول الإمام زين العابدين في مناجاته ، في الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي ، ويعلمنا الاعتذار لربنا : « فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته ، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته ، لا لأنّك أهون الناظرين وأخفّ المطلعين عليَّ ، بل لأنّك يا ربّ خير الساترين . . .

وبالجملة : فقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ﴾ توجيه للمعتدي والناهي إلى الفطرة الإلهية المودعة فيه ، وأنه لا بدّ له بحكم هذه الفطرة أن يتناهى عما يفعل ، لكن حكم الفطرة قد تعطل بكثرة المعاصي وحجاب الذنوب الذي وقع على القلب ، فلا يبالي بما يفعل وما يصدر منه . .

أعاذنا الله منه .

قال الطباطبائي قدّس سرّه في هذه الآية : المراد به العلم على طريق الاستلزام . فإنّ لازم الاعتقاد بأن الله خالق كل شيء هو الاعتقاد بأن له علماً بكل شيء ، وإن غفل عنه . وقد كان الناهي وثنياً مشركاً ؛ والوثنيون معترفون بأن الله هو خالق كل شيء ، وينزهونه عن صفات النقص ، فيرون أنه تعالى لا يجهل شيئاً ولا يعجز عن شيء وهكذا . انتهى .

أقول ما ذكره قدّس سرّه دقيقة لطيفة في الآية ؛ ولكن جملة ﴿ألم يعلم﴾ لا يختص استعمالها في مورد يكون العلم موجوداً حتى نحتاج إلى ما ذكره من التوجيه بأن الوثنيين يعلمون بأن الله يرى وإن كانوا غافلين ؛ بل يستعمل هذا الفعل في مورد أعمّ من أن يكون العلم موجوداً فعلاً ، أو معدوماً ولكن يكون عدمه العدم بالملكة ، وإذا كانت ملكة العلم موجودة في مورد يستعمل فعل ﴿ألم يعلم﴾ أيضاً ويكون معناه أنه لو لم يعلم فمِن حقه أن يكون يعلم بأن الله يرى . وعلى أي حال هذه الآية تتضمّن وعداً ووعيداً وتكريماً وتهديداً ، فإن علم العبد بأن الله يراه يكون مرغباً له في العمل وزاجراً له عن مخالفة مولاه ، وهنا أبواب من المعارف الإسلامية . ولأولياء الله في هذا المقام أقدام راسخة ولقلوبهم حالات وجذبات ، ولله تعالى معهم في هذا المجال ألطاف وعنايات نعجز عن وصفها وإدراكها ، وقد أشير إلى جملة منها في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ، والقضايا والحالات المنقولة عن الأولياء وأصحاب القلوب يطول الكلام بذكرها .

﴿كلّا لَئِن لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بالنَّاصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع ناديه سندع الزبانية كلّا لا تطعه [واسجد واقترب]﴾ .

لنسفعاً : فعل المتكلم مع الغير بنون التأكيد المخففة . وحيث إن هذه النون في حالة الوقف تبدل بالألف .

وأبدلنها بعد وقف ألفاً وقفاً كما تقول في قِفن قِفا

والكتابة تابعة لحالة الوقف في الكلمة ، فلهذا كتبت الآية بهذه الصورة الموجودة ، كذا قيل وذكره بعض الأعاظم من المفسرين ، ولكنه منتقض بالتاءات التي تبدل هاءً بالوقف ، ومع ذلك تكتب في جميع القرآن بصورة التاء : كالصلاة والزكاة والتوراة وغيرها ، أو الألف المقصورة : كموسى وعيسى تكتب بالياء على خلاف ما يتلفظ . والظاهر أنه رسم خط مخصوص بالقرآن كما في كثير من الموارد تكتب ألفاظ القرآن على خلاف ما هو المتعارف ، وذلك تشديداً لحفظه من التغيير والتحريف ، حتى في كيفية كتابته فكيف بالألفاظ .

فما كان مكتوباً في القرآن للصدر الأول وإن كانت كتابته على خلاف القواعد المعمولة للكتابة فقد حفظها المسلمون في القرآن المتأخر ولم يجوزوا تغييرها . فمثلاً بعد « واو » الجمع يكتب « ألف » ، وقد راعى الكتّاب هذه القاعدة في القرآن لعصر الصحابة إلاّ في كلمة جاءو وباءو وفاءو « وسعو في آياتنا » في سورة سبأ ، « وعتو عتوّاً كبيراً » في سورة الفرقان ، « والذين تبوءو الدار» في سورة الحشر فإنها حيث كانت في ذلك القرآن بلا ألف كتبها المتأخرون بلا ألف ، ولم يجوزوا كتابة الألف لنعلم بحفظ القرآن وعدم تحريفه . وفي عدة موارد كتبوا الألف واواً مثل قوله تعالى : «بلؤ مبين » في سورة الدخان « وعلمؤ بني إسرائيل» في سورة الشعراء .

وهكذا التاء في آخر الكلمات تكتب على صورة الهاء المربوطة « كسنه

ورحمه » ، ولكن في عهد الصحابة كتبت في عدة موارد التاء ممدودة على غير صورة التاء المربوطة ، « كالرحمت » في سورة البقرة والأعراف وهـود ومريم والروم والزخرف ، وأيضاً كلمة « نعمت » كتبت بالتـاء الممدودة في البقـرة. وآل عمـران والمائـدة وإبراهيم والنحـل ولقمـان وفـاطـر والـطور ، وكلمـة « سنت » في الأنفال وفاطر وغافر ، وفي بقية الموارد تكتب مربوطة ؛ وأيضاً « كلمت ربـك الحسنى » ، « فجعـل لعنت الله » ، و« الخـامسـة أنّ لعنت الله » ، « وإن شجـرت الـزقـوم » ، « وقـرت عـين » ، و« جنت نعيم » ، و« بقيت الله خـير لكم » . « وامرأة » كلما استعملت مـع زوج « كـامـرأت فرعون » ، و« معصيت » في قد سمع الله تكتب بالتاء الممدودة .

وأيضـاً كلمة « شيء » كتبت في جميـع القرآن بـالشـين بعـدهـا اليـاء وبعـدهـا الهمـزة إلا في سـورة الكهف « ولا تقـولن لشـأيٍ » حيث تكتب الألف قبـل الياء فحفـظوها بهـذا النحو ، وكـذلك في كلمـة « لا أذبحنه » و« لا أضعوه » كتبوا ألفاً للمتابعة وهكذا في كلمة « نبأى المـرسلين » فكتبوا يـاء زائدة وأيضـاً في « آناءِىالليـل » في طه ومـوارد أخرى كتبـوا ياء زائـدة وأعجب من ذلـك أنهم كتبـوا في كلمـة « بـأييكم المفتـون » ، و « بنينـاهـا بأييد » كتبوا بدل الياء بسن واحدة الياء بسنين ، ومن هذا القبيل في القرآن كثير وللتفصيل محل آخر .

وعـلى أيّ حال ذكـر اللغويـون للسفع معـاني ، ١ ـ الضـرب . ٢ ـ اللطم . ٣ ـ الوسمة والعلامة . ٤ ـ الوصمة بـالنار . ٥ ـ صيـرورة اللون أسود من النار أو الرياح الحارة . ٦ ـ القبض والاجتذاب ، لـذا قيل سفـع بناصيته .

والأنسب هنا المعنى الأخير سواء كان معناه اللغوي أي نأخذ بناصيته

فنجتذبه أو معناه الكنائي ، يقال : أذل فلان ناصية فلان أي : أهانه وحط من قدره وشرفه أو كلاهما ، فإن الأخذ بالناصية للإنسان وجذبه جذباً شديداً إلى العذاب كالحيوان من أشدّ مراتب الإهانة والتحقير والتعذيب ، وبقية المعاني أيضاً يصحّ أن تكون مرادة في الآية حتى الوسمة والعلامة والوصمة بالنار فتكون نظير قوله تعالى : ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ . والمقصود الأصلي من الآية هو تهديد المستغني الناهي عن الصلاة بأنه لو لم يتنبه وينزجر عن عمله هذا؛ واستدام على نهيه العباد عن امتثال أوامر الله ، فنحن أيضاً نذلّه ونستحقره ونأخذ بناصيته .

ويزيد لطف بيان القرآن لو صحّ ما قيل في حقّ أبي جهل أنه كان شديد الاهتمام بترجيل الناصية وتطييبها ، فهدد من ناحية ناصيته هذه .

ثم يصف الله هذه الناصية المستحقة للتعذيب بالنار بقوله : « ناصية كاذبة خاطئة » . من المعلوم أن الكذب والخطأ صفتان لصاحب الناصية لا الناصية نفسها وإنما أطلقتا عليها مجازاً ، أو كما احتمله بعض المفسرين أن الناصية التي تطلق على مقدم الرأس أيضاً لا على الشعر الموجود عليها من الأعضاء التي يعرف منها الغرور والكبر والإعجاب بالنفس ، فتصبح نسبة الكذب والخطأ إليها حقيقة ؛ كاللسان الكاذب ، مع أن الكاذب حقيقة هو صاحب اللسان . وقيل : إن في قوله تعالى : ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ من الجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطىء، فكأنّ الكافر بلغ في الكذب قولاً وفي الخطأ فعلاً إلى حيث أن كلاً من الكذب والخطأ ظهر من ناصيته . وكان أبو جهل كاذباً على الله في أنه لم يرسل محمداً ، وكاذباً في أنه ساحر ونحوه ، وخاطئاً بما تعرض له صلّى الله عليه وآله وسلّم من أنواع الإيذاء . ويحتمل أن يكون المراد من سفع هذه الناصية الكاذبة الخاطئة

سحبه على وجهه في الدنيا فتكون بشارة للمسلمين من تمكنهم من ناصيته حتى يجرّوه على وجهه لو عاد إلى نهيه وإيذائه ؛ فلما عاد مكّنهم الله من ناصيته يوم بدر . فقد روي أنه لما نزلت سورة الرَّحمٰن قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : من يقرأها على رؤساء قريش فتثاقلوا ، فقام ابن مسعود (رضي الله عنه) وقال أنا ، فأجلسه النبيّ صلّى الله عليه وآله . ثم قال ثانياً : من يقرأها عليهم ، فلم يقم إلا ابن مسعود (رضي الله عنه) ، ثم قال ثالثاً إلى أن أذن له . وكان صلّى الله عليه وآله يبقي عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته . ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة فافتتح قراءة السورة فقام أبو جهل فلطمه فشقّ أذنه وأدماها . فانصرف وعينه تدمع ، فلما رآه صلّى الله عليه وآله رقّ قلبه وأطرق رأسه مهموماً ، فإذا جبرائيل جاء ضاحكاً مستبشراً ، فقال يا جبرائيل تضحك ويبكي ابن مسعود ! فقال : سيعلم .

فلمّا ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان له رمق فاقتله ، فإنك تنال ثواب المجاهدين . فأخذ يطالع القتلى فإذا أبو جهل مصروع يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه ، فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ، فلما عرف عجزه قال : فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت : أخزاك الله يا عدوّ الله . قال : وبمَ أخزاني ، أعار على رجل قتلتموه ؟ وفي رواية : وهل أشرف من رجل قتله قومه ؟ ثم قال له:لو غير أكّارٍ قتلني[1] لكان أعظم لشأني ولم يكن عليّ

(١) الأكّار : الزراع. يعني الأنصار لأنهم كانوا أصحاب زرع . أي لو كان الذي قتلني غير فلاح .

نقص ، ثم قال لابن مسعود : أخبرني لمن الدبرة (أي النصرة والظفر) اليوم ، لنا أو علينا ؟ قلت لله ولرسوله . وسأل ابن مسعود عن أهل الأجسام الطوال الذين يقتلون ويأسرون فينا ، فقال له : أُولئك الملائكة . فقال : هم الذين غلبونا لا أنتم . وهذا غاية في كفره وعناده ، حيث تحقق ذلك كله ولم يؤمن بالله ورسوله .

ثم إن ابن مسعود وطأ على عنقه وعلا فوق صدره يريد جزّ رأسه ، فقال : لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقىً صعباً . قال ابن مسعود : فضربته بسيفي لأجزّ رأسه فلم يغن عنّي شيئاً ، فبصق في وجهي وقال : خذ سيفي واجتز به رأسي من عرشي ليكون أنهى للرقبة ـ والعرش عرق في أصل الرقبة ـ وجاء أنه قال لابن مسعود : اجتز من أصل العنق ليرى عظيماً مهاباً في عين محمد ، وقل له : ما زلت عدواً لي سائر الدهر واليوم أشد عداوة . ولما أُتي النبي برأسه وأخبره بقوله قال : كما أني أكرم النبيّين على الله ، وأمتي أكرم على الله ، كذلك فرعون هذه الأمة أشد وأغلظ من فراعنة سائر الأمم ، إذ فرعون موسى حين أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وفرعون هذه الأمة ازداد عداوة وكفراً . فلما قطع ابن مسعود رأسه لم يقدر على حمله ، فشقّ أذنه وجعل الخيط فيها وجعل يجره إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وجبرائيل بين يديه يضحك ويقول : يا محمد أُذنٌ بأذن ؛ لكن الرأس هاهنا مع الأذن مقطوع . وقيل إن ابن مسعود أخذ بناصيته يجره ، فتحقق الوعيد المذكور في قوله لنسفعاً بالناصية . وهذا من المعجزات الباهرة للقرآن .

فلنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ليتنبّه المستكبرون المغرورون بالاستغناء بالأموال والأقوام ، ويكفوا عن الفسوق والطغيان ،

ويعلمـوا أن عذاب الـدنيا لـه نهاية وانقضـاء ، ولكن عذاب الآخـرة أشدّ وأبقى .

﴿فَلْيَدع نَادِيه﴾ :

أي قـومه وعشيـرته وأعـوانـه الـذين يجتمعـون في النـادي . والأمـر تعجيزي ، والنادي المجلس ، والمراد به أهل المجلس ، كقولـه : ﴿واسأل القرية﴾ وقيل الجليس .

﴿سندع الزبانية﴾ :

والزبانية الملائكة الموكلون بالنار . قال ابن عباس : لما نهى أبو جهل رسول الله انتهره رسول الله وزجره ؛ فقال أبو جهل : يا محمـد لقد علمت ما بها أكثر نادياً منّي ، فوالله لأملأنّ عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جُرداً ورجالاً مُرداً . فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾ .

الزبانيـة واحدهـا زبني مأخـوذ من الزبن كضـرب وهو الـدفع لأنهم يدفعون أهـل النار إليهـا دفعاً . وفي الخبـر لو دعـا ناديـه لأخذتـه الملائكـة الغلاظ الشداد عياناً . والظاهر أنه تهديد له في الآخرة .

﴿كلاّ لاَ تطعه﴾ :

ليس الأمر على ما يظنّه أبو جهل ، وأنت يا رسـول الله لا تطعه في ما يـريد من تـرك الصلاة ، ودُم عـلى ما أنت عليـه في معاصـاة ذلك النـاهي الكاذب الخاطىء ، كقوله تعالى : ﴿ولا تطع المكذّبين﴾ .

﴿واسجد﴾ :

على رغمه وواظب على سجودك .

﴿واقترب﴾ :

تقرّب إلى الله بطاعتك ، وقيل بالسجدة ؛ فإن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد .

أقول :

إن السجود من العبادات المهمة الذاتية ، وله أثر كبير في تنوير القلب ، وكان الصالحون يواظبون عليه ويعينونه كوظيفة يومية للسالك .

قال العارف الكامل الحاج ميرزا جواد ملكي : سألت شيخي وأستاذي المولى حسين قولي الهمداني عن أكثر الأعمال الظاهرية تأثيراً في نور القلب فذكر منها السجدة الطويلة في كل أربع وعشرين ساعة ، بحيث تتعب الأعضاء فيها لطولها . وقد ورد أن طول السجود من دين الأئمة ، وأنه من سنن الأوّابين ، وأنه يحتُّ الذنوب كما يحتُّ الريح ورق الشجر .

وفي خطبة آخر شعبان لرسول الله : أيّها الناس إن ظهوركم ثقيلة بذنوبكم فخففوها بطول سجودكم . وقال رسول الله لمن سأله التحمل على ربه الجنة : أعنّي على ذلك بكثرة السجود .

روى المحدث القمّي عن أعلام الدين عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : جاء رجل إلى النبيّ قال : علّمني عملاً يحبّني الله تعالى ويحبّني المخلوقون ، ويثري الله مالي ، ويصح بدني ، ويطيل عمري ، ويحشرني معك ، قال : هذه ست خصال تحتاج إلى ست خصال ، إذا أردت أن يحبك الله فخفه واتقه ، وإذا أردت أن يحبك المخلوقون فأحسن إليهم وارفض ما في أيديهم ، وإذا أردت أن يثري الله مالك فزكّه ، وإذا أردت أن يصحّ الله بدنك فأكثر من الصدقة ، وإذا أردت أن يطيل الله عمرك

فصل ذوي أرحامك ، وإذا أردت أن يحشرك الله معي فأطل السجود بين يدي الله الواحد القهّار .

وعن منصور الصيقل قال : حججت فمررت بالمدينة ، فأتيت قبر رسول الله فسلّمت عليه ، ثم التفت فإذا أنا بأبي عبد الله عليه السلام ساجداً ، فجلست حتى مللت ، ثمّ قلت : لأسبّحن ما دام هو ساجداً ، فقلت سبحان ربّي العظيم وبحمده ، أستغفر الله ربّي وأتوب إليه ، مائة مرّة ونيفاً وستين مرة فرفع رأسه ثم نهض .

وفي الكافي عن أبان بن تغلب قال : دخلت على أبي عبد الله وهو يصلي فعددت له في الركوع والسجود ستين تسبيحة .

وكان عليّ بن الحسين إذا صلّى يبرز إلى موضع خشن فيصلي فيه ويسجد على الأرض ، فأتى الجبّان يوماً ثم قام على حجارة خشنة محرقة ، وكان كثير البكاء ، فأقبل يصلّي وقال في سجوده :

« لا إله إلا الله حقاً حقاً لا إله إلا الله تعبداً ورقاً لا إله إلا الله إيماناً وتصديقاً » ألف مرّة ، فرفع رأسه من السجود كأنّما غمس في الماء من كثرة دموعه .

وفي زيارة موسى بن جعفر عليه السلام : حليف السجدة الطويلة والدموع الغزيرة .

وربّما يقال إن هؤلاء هم الأئمة وخيار العباد المصطفين ، فلا يقاس بهم أحد ، وأين لنا ما كانوا عليه من عبادة الله ؛ ولكن ينبغي التوجه إلى أن هذه العبادات ليست من خصائصهم عليهم السلام ، وإنما شارك فيها غيرهم من الأصحاب والعباد واقتدى بهم جماعة من أصحابنا رضيْ الله

عنهم أمثال محمد بن أبي عمير الثقة الجليل .

روي عن الفضل بن شاذان قال : دخلت العراق فرأيت أحداً يعاتب صاحبه ويقول : أنت رجل عليك عيال وتحتاج أن تكسب عليهم ، وما آمن أن تذهب عيناك لطول سجودك. فلما أكثر عليه قال : أكثرت عليّ ويحك ؛ لو ذهبت عين أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير . ماظنّك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما يرفع رأسه إلا عند زوال الشمس ؟



سُورَةُ القَدْر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ* سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الفَجْرِ*﴾ . صدق الله العليّ العظيم

هـذه السورة من السـور الجليلة في القرآن ووردت في فضلهـا أخبـار كثيرة .

ففي ثواب الأعمال للصدوق والمجمع عن الباقر عليه السلام قـال : من قرأ إنا أنزلناه في ليلة القدر فجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله ، ومن قرأها سرّاً كان كالمتشحّط بدمه في سبيل الله ، ومن قـرأها عشر مرات محا الله عنه ألف ذنب من ذنوبه .

ولا بدّ في تفسيرها من البحث في أمور :

الأول : في وجه الإتيان بصيغة الجمع في إنّـا وأنـزلنـاه ؛ قـال المفسّرون : إن ضمير الجمع في الآية للدلالة على التعظيم . والتعظيم تـارة يراد منه تعظيم المتكلم كما هـو المتعارف في الخـطابات ، وأخـرى يراد منـه تعظيم القرآن . وقد يستدل للثاني بأمور :

الأول : أن الجملة ابتدأت بحرف التحقيق والتأكيد فتشعر بالأهميه من الأول .

الثاني : أن الله تعالى أسند الإنزال الى نفسه ليفهم اختصاص هذا الكتاب بذاته المقدسة .

الثالث : الإتيان بضمير الجمع مع أنه واحد أحد ؛ وذلك ليدل هذا على عظمة المُنْزَل . ومن المعلوم أن ما أنزله العظيم يكون عظيماً وذا أهمية لا محالة كما يأتي نظير ذلك في : ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ وسيأتي مثله في ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ .

الرابع : استعمال الضمير مكان الاسم الظاهر مع أنه لم يسبق لفظ القرآن ، بقوله : ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ**﴾ ، وهذا يعطي أن هذه الصحيفة السماوية في الشهرة والجلالة بحيث يعرفها كل أحد ويتذكر به الجميع ، وكلٌ يعلم أن ما أنزله الله هو القرآن . فلا يحتاج إلى ذكر اسمه الظاهر كما هو في قوله تعالى : ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ فإن مرجع ضمير « هو » ذاته المقدسة وذلك لكمال ظهوره ، وجلالته لا يحتاج إلى مرجع ظاهر في الكلام .

الخامس : أنّه قد أنزل في أفضل الأوقات وأحسنها وهو ليلة القدر . وقال بعض المفسرين : إن الإتيان بضمير الجمع للدلالة على الذات مع الصفات ، وقال الإمام الخميني في هذا المقام :

اعلم أن نكتة ذلك هي تفخيم مقام الحق تعالى بمبدئيته تنزيل هذا الكتاب الشريف[1] . ولعل هذه الجمعية باعتبار الجمعية الأسمائية ،

---

(١) يعني بما أنه تعالى مبدأً لتنزيل هذا الكتاب الشريف ، وهو عظيم العظماء ، بل هو =

والإشـارة إلى أن الحق تعالى مبـدأ لهـذا الكتـاب الشـريف لجميـع الشؤون الأسـمائية والصفـاتية(١) ، ولهـذه الجهة كـان هذا الكتـاب الشريف صـورة أحدية ، جمع جميع الأسماء والصفات ، ومعرفاً لمقـام الحق المقدس بجميـع الشؤون والتجليات . وبعبارة أخرى : هذه الصحيفة النورانيـة صورة الاسم الأعظم ،كما أن الإنسان الكامل أيضاً صورة الاسم الأعظم(٢) . بـل حقيقتا هذين في الحضرة الغيبية واحدة ، وهما في عالم التفرقة متفـرقان عـلى حسب

= المتفرد بالعظمة وليس غيره عظيم أصلاً ، فلا بدّ أن يكون مُنزَله أيضاً عظيماً كما أشرنا إلى ذلك .

(١) الفعل هو مجلى للصفة ، فربما يكون الفعل مجلى لصفة واحدة أو اثنتين أو أكثر .

لنفرض أن شاعراً قال شعراً ، فهذا يدل على أن فيه ملكة الشاعرية ، وأنه يقدر أن يأتي بكلام مسجع ومقفى وموزون . وربما يكون الشعر مشتملاً باللغات المشكلة ، فيدل حينئذ على أن الشاعر ـ مضافاً إلى أن فيه ملكة إنشاء الشعر ـ له تسلط واطلاع على اللغات ، وأنه أديب في اللغة أيضاً . وإذا اشتمل الشعر على مطالب علمية وفلسفية مثلاً فيكون دليلاً على أنّه عالم فلسفي أيضاً . وهذا يعني أن الشاعر المذكور قال هذا الشعر بوصف أنه شاعر ، وبوصف أنه أديب ، وبوصف أنّه فيلسوف ، وجميع هذه الصفات لها دخل في إنشاء هذا الشعر .

وهكذا لو فرضنا أن أحداً كتب كتاباً فقهياً بخط حسن ، فهذا الكتاب يدل على أنه عالم بالفقه ، وأنه يعلم الكتابة ، وأنه يعلم حسن الكتابة أيضاً ، فإن حسن الكتابة أمر غير العلم بها كما هو ظاهر .

ولذلك قال تعالى : ﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فهذه الكمالات موجودة في النفس بصورة الوحدة والبساطة . النفس في وحدته كل القوى ولذلك يقول الإمام و لعل هذه الجمعية الخ . . .

(٢) ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾ .

الصـورة ، ولكن على حسب المعنى لا يتفـرقـان . وهـذا أحـد معـاني « لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض . . . »

وكـما أن الحق تعالى خمـر طينـة آدم الأول والإنسـان الكـامـل بيـدي الجمـال والجلال ؛ كـذلك أنـزل الكتاب الكـامل والقـرآن الجامـع بيـدي الجمال والجلال . ولعله لهذه الجهة يقال له القرآن . لأن مقام الأحدية جمع الوحدة والكثرة ، ولهذه الجهة ليس هذا الكتاب قابلاً للنسخ والانقـطاع ، لأنّ الاسم الأعظم ومظاهره أزلي وأبدي ، وجميـع الشرائـع دعوة إلى هـذه الشريعة والولاية المحمدية . ولعل الذكر في الآية الشريفة : ﴿إنَّـا عَرَضْنَـا الأَمَانَةَ عَـلَى السَّمٰوَاتِ﴾[1] بصيغـة الجمع لما ذكرنـا من النكتة في : ﴿إنّـا أنْزَلْنَاه﴾ لأن الأمانة على حسب الباطن هي حقيقـة الولايـة ، وعلى حسب الظاهر هي الشريعة ، أو دين الإسلام ، أو القرآن ، أو الصلاة .

وأما الضمير في ﴿إنّـا أنْزَلْنـاه﴾ فلا ريب في أنـه يرجـع إلى القرآن ، ولكن الاختلاف في أنه هل يرجع إلى مجموع القـرآن أو بعضه، فقـال أكثر المفسرين ومنهم الطباطبائي : إنه يرجـع إلى جملة الكتاب لا بعض آيـاته ، وإن كـان يطلق « القـرآن » على بعض الآيـات كإطـلاقه عـلى مجمـوعهـا . ويؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعـة ، دون التنزيـل الظاهـر في التدريج . قال : وفي معنى الآية قوله تعالى : ﴿وَالكِتَابِ المُبِينِ* إنَّا أنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[2] . وظاهره الإقسـام بجملة الكتاب المبـين ، ثم الإخبار عن إنزال ما أقسم به جملة .

هذا ونحن نعلم أن القرآن نزل نجومـاً وتدريجاً على النبيّ صـلّى الله

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢ . (٢) سورة الدخان آية ٢ ـ ٣ .

عليه وآله وسلّم في مدّة ثلاث وعشرين سنة ، كما يشير إليه قوله تعالى :

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[1] .
وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[2] .

فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟

قال بعض المفسّرين : إن المقصود من النزول في ليلة القدر هو ابتداء الإنزال ، ومعنى إنّا أنزلناه : ابتدأنا بإنزاله . فالمراد إنزال بعض القرآن . وقال البعض الآخرون ومنهم الطباطبائي : إن للقرآن نزولين : نزول جملي ونزول تدريجي فالنزول الجملي كان في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، أو إلى البيت المعمور . والتدريجي منه في خلال ثلاث وعشرين سنة . وقد أشير إلى هذا المعنى في كثير من الروايات .

روي في الكافي عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : سألت عن قول الله : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وأنما أنزل القرآن في عشرين سنة بين أوله وآخره ، فقال أبو عبد الله : نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ، ثم نزل في طول عشرين سنة . ثم قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان ، وأنزل الزبور لثماني عشرة خلون من شهر رمضان ، وأنزل القرآن في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان » .

---

(١) سورة الإسراء آية ١٠٦ . (٢) سورة الفرقان آية ٣٢ .

وروي في الكافي والفقيه بإسنادهما عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[1] قال : هي ليلة القدر ، وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر ، ولم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر . الحديث .

وخبر إلياس الذي أورده في الكافي في باب شأن نزول : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وتفسيرها من كتاب الحجة ، أن القرآن نزل كلّه جملة واحدة في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان إلى البيت المعمور . فبهذه الروايات يمكن الجمع بين الآيات المذكورة ؛ وما ذكرناه من التنافي في النزول جملة وتدريجاً . ولكن تبقى هنا مشكلة عويصة وهي أن مرجع ضمير ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ على هذا يكون جميع القرآن ، وحينئذٍ يأتي الإشكال في أن هذه الآية والآيات المشابهة لها كقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أو : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآن﴾[2] هل تشمل أنفسها أم لا . وبعبارة أخرى : نفس هذه الآيات من القرآن ، فكيف يقول إنا أنزلناه ؟ نظير ذلك ما قيل في قضية كل خبري كاذب، وأنها هل تشمل نفس هذا الخبر أم لا ؟ فقالوا بأنه لا يشمل ، لأنه بشموله يكون جميع أخباره صادقاً لا محالة ؛ وهذا خلاف المقصود ؛ فلا بدّ أن لا يشمل . وفي المقام أيضاً لو التزمنا بأنه لا يشمل مورد الآية يرتفع الإشكال ولكن لا يمكن لنا ذلك بمعنى أنه لا يمكن أن نلتزم بأن هذه الآيات ليست من القرآن ، فلا بدّ من توجيهٍ وحل لهذا الإشكال إما بأن الضمير لا يرجع إلى جميع القرآن ، أو بأن نلتزم أن المُنزَل في ليلة القدر كانت حقيقة في غير

---

(١) سورة الدخان آية ٣ . (٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .

هـذه الصورة . وهـذه الآيات تشـير إلى تلك الحقيقـة . فيمكن أن يكـون المراد من البيت المعمور الـذي نزل القـرآن عليه جملة واحـدة قلب النبي ، والمنزَل هو معنى القرآن . أشير إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿نَـزَلَ بِهِ الـرُّوُحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1] . ثم نزل في طول عشرين سنة نجوماً .

ثم إن هنا إشكالاً آخر وهو أنه : إن قلنا بنـزول القرآن جملة واحـدة كما هو صحيح الروايات . فما معنى نزوله في كل سنة في ليلة القدر ؟

ففي بعض الـروايات كـما في الكافي والفقيـه بإسنـادهما عن يعقـوب قال : سمعت رجلاً يسـأل أبا عبـد الله عن ليلة القدر فقـال : أخبرني عن ليلة القدر كانت أو تكون في كل عام ، فقال أبو عبد الله : « لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن » . فمعنى هذه الرواية أنه ينزل في كل سنة تبيين القرآن وتفسيـره ما يتعلق بـأمور تلك السنـة إلى صـاحب الأمـر ، فلو لم تكن ليلة القدر ولم ينزل من أحكام القرآن ما لا بدّ منه في القضايـا المتجددة ، وإنمـا ذلـك إذا لم يكن من ينزل عليه ؛ وإذا لم يكن من ينزل عليـه لم يكن قرآن ، لأنّهما متصاحبان لن يفتـرقا حتى يـردا على رسـول الله حوضـه ، كما ورد في الحديث المتّفق عليه .

فمعنى إنـزاله في كـل سنة في ليلة القـدر إلى صـاحب الـوقت إنـزال بيانه : بتفصيل مجمله ، وتأويل متشابهه ، وتقييد مـطلقه ، وتفـريق محكمه من متشابهه ، وبكلمة واحدة معنى إنـزاله في كـل سنة تتميم فـائدة إنـزاله بحيث يكون هدى للناس وبيّنات من الهـدى ، ويكون فـرقانـاً بين المحكم والمتشابه . كما قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآن﴾ يعني في

---

(١) سـورة الشعـراء آيـة ١٩٣ ـ ١٩٤ .

ليلة القدر منه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2] . وقد فسرت هذه الآية ما في الآية الأولى من قوله ﴿مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ ؛ فإن معنى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ و ﴿الْفُرْقَانَ﴾ واحد ، كما في حديث حمران الذي ذكرناه وفيه : « ولم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر » . قال تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل ؛ من خيرٍ أو شرٍّ ، أو طاعة أو معصية ، أو مولود أو أجل ، أو رزق . ويمكن أن تكون الإشارة إلى ما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي إذا أتى جبرائيل بالوحي وقرأه عليه بألفاظه ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[3] ، في ليلة القدر بإنزال الملائكة والروح فيها عليك وعلى أهل بيتك من بعدك ، لتفريق المحكم من المتشابه ، وتبيين الأحكام والوقائع التي تصيب الخلق في تلك السنة إلى ليلة القدر الآتية . فبما ذكرنا يحصل التوفيق بين نزوله تدريجاً ودفعة . وقد أخذنا ما ذكرنا من التحقيق من المفسر الجليل والحكيم المتأله الفيض قدّس سرّه .

قد ذكر للقدر والقدر بفتح الدال وسكونها معانٍ : **الأول** : الضيق والتضييق ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾[4] . **والثاني** : المقدار والكمية ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ .
(٢) سورة الدخان آية ٣ ـ ٤ .
(٣) سورة القيامة آية ١٦ ـ ١٩ .
(٤) سورة الطلاق آية ٧ .

لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[1] والثالث :هو التقدير والقضاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثم جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾[2] . و ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[3] . والرابع : العظمة ومنه هذه السورة : ﴿إنّا أنزلناهُ في ليلة القدر﴾ أي ليلة العظمة . ثم إطلاق هذه المعاني كلها صحيحة في ليلة القدر .

أمّا الأول: وهو الضيق ؛فقال بعض إن الأرض تضيق بواسطة كثرة الملائكة فسميت ليلة القدر. وهذا الوجه وإن كان بعيداً ،وإن كان القائل به أعجوبة الزمان الخليل بن أحمد رضوان الله عليه ، ولكن ما يمكن أن يقع مورداً للبحث هو أن الملائكة ليست من سنخ عالم الطبيعة والمادة ، وليست لهم مادة ، فما معنى ضيق الأرض بهم ؟ ولكن قد ورد نظير ذلك في الروايات الشريفة ؛ مثل قضية تشييع سعد بن معاذ[4] ومثل بسط الملائكة أجنحتهم لطالب العلم . والروايات في هذا المعنى كثيرة جداً . فهذا إما من باب تمثل الملائكة بالصورة المثالية وتنزلها من عالم الغيب إلى عالم المثال وتضييق ملكوت الأرض . أو من باب تمثلهم الملكي في ملك الأرض . وإن كانت الأبصار الطبيعية الحيوانية لا تراها ، فإن كثيراً من الأمور الملكية والمادية لا تراها العيون . وهذا الأمر مبرهن اليوم كالذرات المادية الموجودة التي لا تدرك إلا بالآلات ، والأمواج الموجودة في الفضاء وغيرها . وبالجملة التضييق باعتبار التمثلات المثالية أو الملكية . وقد أشار إلى ذلك

---

(١) سورة الطلاق آية ٣. (٢) سورة طه آية ٤٠ . (٣) سورة القمر آية ١٢ .

(٤) في الكافي : صلّى رسول الله على سعد بن معاذ مع تسعين ألف ملك فيهم جبرائيل . وروي أن رسول الله كان يمشي في تشييع سعد بأطراف أصابع رجله الشريفة فسُئل عن ذلك فقال : ذلك لكثرة نزول الملائكة للتشييع فضاقت بهم الأرض .

الإمام القائد دام ظلّه في تفسيره لهذه السورة .

وأما المعنى الثاني وإليه يرجع المعنى الثالث وهو تقدير الأمور والآجال ، فقد ورد فيه روايات كثيرة ، منها ما في الكافي بإسناده عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾** قال : نعم ليلة القدر هي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر ، فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر . قال الله عزّ وجلّ : **﴿فِيهَا يفرق كُلّ أمر حكيم﴾** قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل من خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق ، فما قدر في تلك الليلة وقضي فهو المحتوم لله عز وجل فيه المشيئة . الحديث .

أقول : ولله فيه المشيئة يرتبط ببحث البداء ، وهو من أمّهات المباحث العرفانية والعلمية ، ولا يناسب المقام البحث عنه . ومنها ما ورد عن السيد الجليل ابن طاووس في كتابه « الإقبال » بإسناده إلى عبد الله بن سنان قال : سألته عن النصف من شعبان ، قال : ما عندي فيه شيء ، ولكن إذا كان ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قسم فيها الأرزاق وكتب فيها الآجال وخرج فيها صكاك الحاج واطلع الله عزّ وجلّ إلى عباده . فيغفر لمن يشاء إلا شارب مسكر . وفي معناها روايات أخر . وعن ابن عباس رضي الله عنه : أن قدر فيها كل ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة وغيرها إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ، فيسلمه إلى مدبرات الأمور من الملائكة ، فيدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب والرياح والزلازل والصواعق والخسف إلى

جبرئيل ، ونسخة الأعمال إلى اسرافيل ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت . والرواية عامية .

وأمّا الرابع : وهو القدر والشرف ، وذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي . فالقدر بمعنى الشرف والمنزلة إما باعتبار العامل بأن من أتى بالطاعة فيها صار ذا قدر وشرف ، وإما باعتبار نفس العمل بمعنى أن الطاعة والعبادة في هذه الليلة لها قدر وشرف زائدان على الواقعة في غيرها من الليالي . وإما باعتبار نفس الزمان ، بمعنى أن نفس الزمان أشرف منه في غيرها . وفي هذا المقام بحث وكلام بين العلماء ؛ وهو أنه لا ريب أن الشرع والكتاب والسنة شرّفت بعض الأزمنة على الأخرى كليلة الجمعة وشهر رمضان وليلة الفطر وغيرها من الليالي والأيام ، كما أنها شرّفت بعض الأمكنة على الأخرى .فمن الزمان ما هو شريف وما هو غير شريف ، ومنه ما هو سعيد أو نحس ، كما أن الأمر في المكان أيضاً كذلك . وذلك مما لا يرتاب فيه أحد المتشرّعين ، بل يؤمن به جميع الملتزمين بأي دين من الأديان الإلٓهية . وإنما الكلام في أن هذه الشرافة أو الخسّة أو السعادة أو النحوسة أمر ذاتي للزمان ومن تشخصاته الذاتية ، أو أنه أمر عرضي له وبواسطة وقوع الوقائع والأمور الشريفة أو الخسيسة .

واستدل للقول الأول بأن المستفاد من ظواهر الأخبار والآيات التي أثبتت للزمان أو المكان شرافة أو نحوسة أنها صفة نفس الزمان والمكان . فإن ظاهر كل صفة أنها صفة لنفس الموصوف . لا أنها صفة للحال المتعلق بالموصوف . وحيث إنه لا مانع عقلياً من كون نفس الزمان شريفاً أو نحساً فيتعين حمل الآيات والأخبار على ظاهرها .

واستدل للقول الثاني ؛ وأن شرف الزمان والمكان لأمور عارضة لهما ، بأن كلاً من الزمان والمكان حقيقة واحدة وشخصية واحدة ، ولا يمكن أن يكون شخص واحد متجزئاً ومختلفاً في الحكم . فبناء على هذا يحمل ما ورد في شرفهما أو نحوستهما على الوقائع والقضايا الحاصلة فيهما . ولكن هذا الاستدلال ليس برهانياً . لأن الزمان وإن كان شخصاً واحداً وحقيقة واحدة لكن حيث إنه متدرج وممتد وحقيقة مقدارية فلا مانع من أن يكون بعض أجزائه مختلفاً مع البعض الآخر في الحكم والأثر . ولم يقم برهان بأن الشخص كيفما كان وعلى أي حال كان لا يكون له حكمان وأثران ، بل خلافه ظاهر . فمثلاً : أفراد الإنسان ، مع أن كل واحد منه شخص واحد فله مع ذلك في الصورة الجسمية اختلافات كثيرة ، وبعض أجزائه أشرف من البعض الآخر ؛ كالقلب والدماغ والعين ؛ فإنها أشرف وألطف من الأعضاء الاخرى . وكذلك القوى الباطنية والظاهرية بعضها أشرف من بعض ، وذلك لأن الإنسان ليس له ظهور بالوحدة الحقيقية التامة وإنما ظهر بوصف الكثرة ، فأحكامه أيضاً تختلف . فبناء على هذا فكلا الوجهين محتمل ، ولا مانع من الالتزام بكليهما .

وبما ذكرنا ظهر ضعف ما ذكره الشهيد مطهري في المقام من عدم الفضل لأجزاء الزمان بعضها على الآخر ، ولا لقطعات الأرض إحداها على الأخرى ، فإنه بعدما بيّن أن الأجزاء المكانية أي الحيّز المكاني من الأرض قد يكون هناك فرق بين أرض وأرض ، ويضرب المثل بالأرض السبخة والأرض الزراعية ، يقول : هذا أمر مادي ويرتبط بحياة الإنسان ، فماذا عن الجانب المعنوي فهل في الأرض بحدّ ذاتها اختلاف من حيث المعنويات ، أي بقطع النظر عن ارتباطها بأي حدث أو واقعة ؟

وقبل أن يوجد أي إنسان في العالم فهل يكون لقطعة أرض فضل على أخرى ؟ فمثلاً هل إن أرض مكة أو الكعبة قبل أن يخلق بشر على وجه الأرض ، وقبل أن يظهر إبراهيم وإسماعيل ، كانت ممتازة بشيء على أية قطعة أرض أخرى ؟ الجواب هو أن ليس لأجزاء الزمان ولا لأجزاء المكان بذواتها أي اختلاف معنوي فيما بينها . فليست ثمة أرض مباركة ولا أخرى خبيثة معنوياً ، وأجزاء الأرض كلها متساوية . غير أنّها قد يتغير حالها لأمر طارىء فتصبح مباركة ، كقطعة أرض متروكة ثم تبنى مسجداً فتصبح معبداً إلى آخر ما ذكر .

وهذا الكلام منه عجيب؛ لأن هذا الادعاء من أي فرد يصح إذا كان له الإحاطة بحقائق الأشياء ، ويرى باطنها كما يرى ظاهرها ، وهذا المقام لا يحصل لأمثالنا ولعل إلى هذا أشار النبيّ في دعائه : « اللهمّ أرني الأشياء كما هي » فمن أين لنا العلم بحقائق الأشياء ونحن لا نفقه تسبيحها المنصوص به في القرآن بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] . وليس هذا التسبيح ما يؤوله الحكماء والفلاسفة بأن كل موجود يدل بوجوده على من أوجده ، فهو يسبح الله بلسانه التكويني ، لأن هذا النوع من التسبيح يفقهه كل مسلم حتى العجوز التي تدير المغزل ، فلا يصح أن يقول القرآن : ﴿وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهمْ﴾ . فإذا لم نعرف هذا فكيف يمكن لنا الحكم بما هو من لوازم الوصول إلى حقيقة الشيء ، بينما نعلم أنّا لا نرى من الأشياء إلا ظواهرها ، وأما بواطن الأشياءفمحجوبة عنا بالكلية ؟

فما دمنا في حجاب الطبيعة فهذه الإحاطة مستحيلة لنا إلا إذا خرجنا

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٤ .

من هـذا العالم ، وربينـا الروح تـربية معنـوية ، نستـطيع بعـد خرق هـذا الحجـاب النفوذ في العـوالم المعنـويـة وملكـوت هـذا العـالم . وإلا فمجـرد الخروج من هذا العالم أيضاً لا يوجب الإحاطة بما وراءه . فطائر الـروح لما يتخلص من قفص البدن يقدر على الطيران إذا كان جنـاحه سالماً وبـدنه سالماً ؛ وأما إذا انـكسـر جناحه في القفص ، وحصلت في بـدنه جـراحات من كثـرة التصادم في داخـل القفص ، فربمـا يكون حـاله بعـد الخروج من القفص أسوأ من حاله داخله ، ويكون طعمة للحيوانات والسباع .

وبـالجملة علينا أن نعترف بقصـورنا وجهلنـا ، ولا نجزم في الأحكـام العقلية الخارجة عن نطاق إحاطتنا بهـا . نعم لا بأس بـذكرهـا على سبيـل الاحتمـال ، وما ذكـرنا هـو المستفاد من ظـاهر كثـير من الأخبار في المـوارد المختلفة ، بحيث لا يقبل التأويل إلا بتكلف كثير .

فمثلاً ورد في الحديث عن أبي عبـد الله عليه السـلام : أن الله تبارك وتعالى فضل الأرضين والمياه بعضها على بعض ، فمنها ما تفاخرت ومنها ما تواضعت،فما من ماء ولا أرض إلا عوقبت لتركها التواضـع لله حتى سلط الله على الكعبة المشركين ، وأرسل إلى زمزم ماء مالحاً حتى أفسد طعمـه ، وأن كـربلاء ومـاء الفرات أول أرض وأول مـاء قدس الله تبـارك وتعالى وبـارك عليهـا ، فقال لهـا تكلمي بما فضلك الله فقـالت : لما تفـاخرت الأرضـون والمياه بعضها على بعض قالت أنـا أرض الله المقدسـة المباركـة ، الشفاء في تربتي ومائي ولا فخر ، بل خاضعة ذليلة لمن فعل بي ذلك ، ولا فخـر على من دوني بل شكراً لله ، فأكرمهـا وزادها بتـواضعها ، وشكـراً لله بالحسين عليه السلام وأصحابه .

ثم قـال أبو عبـد الله : من تواضـع لله رفعه الله ، ومن تكبّـر وضعه

الله . ولعله إلى هذا أشار العلاّمة الطباطبائي بقوله :ومن حديث كربلاء والكعبة ، لكربلاء بَاْنَ علّو الرتبة .

فهذه الحقائق التي جرت على لسان أولياء الله وأمنائه على وحيه لا يمكن تأويلها وتوجيهها بالسفسطات الفلسفية ، بل لا بدّ من التعبد بها والتسليم لأولياء الله . فعلى ذلك كلا الوجهين كما ذكرنا محتمل ، ولا مانع من الالتزام بهما في بعض الموارد منها ليلة القدر فنقول : إن هذه القطعة من الزمان كانت لها شرافة ذاتية ، التي جعلها الله تعالى فيها لحكمة اقتضاها وزاد في فضلها وشرافتها الأصلية أنها كانت زمان نزول القرآن . وبتعبير من الإمام الخميني دام ظلّه : لأنّها ليلة وصال النبيّ الخاتم ، وليلة وصول العاشق الحقيقي إلى محبوبه ، وذلك لأن تنزل الملائكة ونزول الوحي يكون بعد حصول الفناء والقرب الحقيقي على ما يراه دام ظلّه ، وهذا هو الوصال والوصول .

هذا كلّه في معاني القدر ، ووجه تسمية ليلة القدر . ونقل عن أبي بكر الوراق أنه قال : سميت ليلة القدر لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذي قدر ، لأمة لها قدر، قال : ولعله تعالى إنما ذكر لفظ القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةَ القَدْرِ﴾ إلى آخر السورة .

الآية الأولى تفيد عظمة ليلة القدر ، وهذه الكلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ تستعمل في ذلك الغرض في لسان العرب وفي الفارسي أيضاً[1].

فمع أن الحق تعالى جلّت عظمته هو المتكلم ، والمخاطب هو الرسول الأكرم ، مع هذا الوصف ربما يكون المعنى عظيماً بحيث لا يمكن

بيانه في نسج الألفاظ وتركيب الحروف والكلمات ؛ فكأنه تعالى يقول : لا تدري ما ليلة القدر في حقيقتها العظيمة ؛ أي لا يمكن بيان حقيقتها ولا يليق بتلك الحقيقة نسج الحروف والكلمات ونظمها ، ولهذا مع أن كلمة « ما » لبيان الحقيقة فقد صرف النظر عن بيانها وعرّفها بخواصها وآثارها وقال : **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾** لأن بيان حقيقتها غير ممكن .

قال الإمام الخميني دام ظلّه : لهذا يحتمل قوياً أن تكون حقيقة ليلة القدر وباطنها غير هذه الصورة والظاهر ، وإن كان هذا الظاهر ذا أهمية وعظمة ؛ ولكن ليس بمثابة يعبر بهذا النحو من التعبير بالنسبة الى رسول الله الولي المطلق والمحيط بكل العوالم .

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ :

ربما يقال كما عليه بعض المفسرين : أن المراد من تعيين هذا العدد هو المبالغة ، وليست تعني الآية العدد المذكور محدداً ، ولكن في بعض الروايات ما يدل على أن العدد معنيّ خاصاً ، كما في الكافي عن الصادق عليه السلام ، قال :

رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن بني أميّة يصعدون على منبره من بعده ويضلون الناس عن الصلاة القهقرى ، فأصبح كئيباً حزيناً ، قال : فهبط عليّ جبرئيل فقال : يا رسول الله ما لي أراك كئيباً حزيناً قال : يا جبرائيل رأيت بني أمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقرى . فقال : والذي بعثك بالحق نبياً إني ما اطلعت عليه ، فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآيٍ من القرآن يؤنسه بها . قال : **﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا**

يُوعَدُونَ* مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[1] . وأنزل عليه : **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾** جعل الله ليلة القدر لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم خيراً من ألف شهر ملك بني أمية .

قال الفيض رحمه الله : وفي معناه أخبار أخر ؛ فقد روي ما في معنى هذه الرواية في كتب الشيعة وبعض أهل السنة عن الحسن بن علي ، وهذه الروايات مع العلم بأن انقراض سلطنة بني أمية المشؤومة كانت متأخرة عن زمان الحسن بن علي عليه السلام ، ومع العلم أنها كانت ألف شهر تماماً ، ربما تعدّ من المعجزات ومن الإخبارات بالغيب .

وفي المجمع عن ابن عباس قال : ذُكر لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رجل من بني إسرائيل أنه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر ، عجب من ذلك عجباً شديداً ، وتمنى أن يكون ذلك في أمته ، فقال : يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً . فأعطاه الله ليلة القدر وقال ليلة القدر خير من ألف شهر الذي حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله ، ولأمتك من بعدك إلى يوم القيامة في كل رمضان .

وهذه الرواية ـ مضافاً إلى أنها تبيّن الحكمة في تقرير هذا العدد ـ يستفاد منها دوام ليلة القدر ، وأنها لا تختص بالنبي وبزمانه بل هي للأمة إلى يوم القيامة . وسيجيء لذلك مزيد توضيح في تفسير تنزل الملائكة إن شاء الله .

ثم إنّه ربّما يتبادر إلى الذهن إشكال : وهو أنه إذا كانت ليلة القدر

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

في كل سنة ، فما معنى أنها خير من ألف شهر سلطنة بني أمية ، فإن ألف شهر تعادل ثمانين سنة تقريباً ، فلا بد أن تكون فيها أيضاً ثمانون ليلة القدر ، فكيف التوجيه ؟ وجوابه أن لليلة القدر كما ذكرنا معانيَ. وبعبارة أخرى لها اعتبارات ، فهي باعتبار أنها تقدر فيها أمور السنة لا معنى لكونها خيراً من ألف شهر ، وإنما تكون خيراً من ألف شهر بمعنى آخر ، أي باعتبار أن المسلم يستفيد من العبادة فيها وإحيائها والتوجه إلى الله تعالى .

وبعبارة أخرى : العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ، كما هو الظاهر وصريح بعض الروايات أيضاً . فعلى هذا تكون ليلة القدر بهذا الاعتبار بالنسبة إلى كل فرد فرد ، فمن استفاد منها فليلة القدر له موجودة ، ومن لم يستفد فليست له ليلة القدر ، كالكفار والمنافقين والغافلين ، فلا معنى لكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر للذين يسهرون تلك الليلة بالفسق والفجور والمناهي والفواحش .

فعلى ذلك يرتفع الإشكال . فإن المقاس عليه ليس ألف شهر يكون فيها ثمانون ليلة القدر كما توهّم ، بل هي خالية عن ليلة القدر بهذا المعنى . ويدل على ما ذكرنا ما عن القمي وغيره قال : رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كأن قروداً تصعد منبره فغمه ذلك ، فأنزل الله سورة القدر : ﴿**إنّا أنزلناهُ في لَيْلَة القدْر وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَة القَدر لَيلة القدر خير من ألف شهر**﴾ تملكه بنو أمية ليس فيها ليلة القدر .

ثم إنه لا بأس من الإشارة إلى تعيين ليلة القدر وأنها في أية ليلة من ليالي السنة . ذهب الأكثرون من المفسرين والعلماء إلى أن ليلة القدر مختفية لا تعيين لها محدداً ، وقالوا إن السر في إخفائها تحريض من يريدها للثواب

الكثير بإحياء الليالي الكثيرة رجاء لموافقتها . قالوا ونظيره إخفاء ساعة الإجابة في يوم الجمعة ، والصلاة الوسطى في الخمس ، واسمه الأعظم في الأسماء ، ورضاه في الطاعات ، حتى يرغب الراغبون في الكل . وإخفاء غضبه في المعاصي ليتحرزوا عن الكل ، ووليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل ، والمستجاب من الدعوات في سائرها ليدعوه بكلها ، ووقت الموت ليكون المكلف على عدة واستعداد في جميع الأوقات ، كما في الدعاء : « اللهم ارزقني التجافي عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل حلول الفوت » .

ويؤيد ما ذكر من السر ما في بعض رواياتنا أن السائل يطلب من الإمام تعيينها من الليلتينِ فقال عليه السلام : « وما عليك أن تجتهد في ليلتين » .

وأمّا تعيينها في الجملة ؛ فالمشهور بين العامة والخاصة أنها في شهر رمضان ، ولعله المجمع عليه عند أصحابنا . ويشهد بذلك روايات كثيرة ، وربما استفيد ذلك من القرآن أيضاً بدلالة الاقتضاء التي هي إحدى الدلالات ، وذلك كاستفادة أقل الحمل وهو ستة أشهر من الآيتين **﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾**[1] و **﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾**[2] .

وكذلك فيما نحن فيه فربما يقال إنه يستفاد ذلك من القرآن ، ومن القائلين الشهيد الاستاذ مطهري لقوله في تفسير السورة **﴿إنّا أنزلناه﴾** إن القرآن نزل في ليلة القدر ، غير أن هذه السورة لا تعيّن أية ليلة هي ليلة

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٣ .   (٢) سورة الأحقاف آية ١٥ .

القدر هذه ، إلا أن هناك آية أخرى في سورة البقرة تقول **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾**[1] . . . ثم هو يصف شهر رمضان الذي نزل فيه القرآن فيستنتج أن ليلة القدر هي إحدى ليالي شهر رمضان ، بدلالة الآية الأولى من سورة القدر وهذه الآية من سورة البقرة ، ولكن هذه الاستفادة تتم لو قلنا : إن المراد من الإنزال في كلا الموردين من سورة القدر وسورة البقرة واحد . وأما لو كان للإنزال منازل مختلفة كما عليه الإمام الخميني دام ظلّه ؛ وأشرنا إليه في جواب إشكال عَوْد الضمير في **﴿إنّا أنزلناه﴾** إلى مجموع القرآن ، فلا يستفاد من الآيتين كون ليلة القدر في شهر رمضان . إلا أن لنا في الروايات غنى وكفاية عن هذا المبحث ؛ وقد مرّ شيء منها في بيان معنى ليلة القدر فراجع . ونذكر بعضاً آخر في المقام .

فمنها ما رواه السيد ابن طاووس في كتابه الإقبال بإسناده إلى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام ؛ قال : سمعته يقول : وناس يسألونه يقولون : إن الأرزاق تقسم ليلة النصف من شعبان، فقال : لا والله ما ذلك إلا في ليلة تسع عشرة من شهر رمضان وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين ؛ فإن في ليلة تسع عشرة من شهر رمضان يلتقي الجمعان ، وفي ليلة إحدى وعشرين يفرق كل أمر حكيم ، وفي ليلة ثلاث وعشرين يمضي ما أراد الله جلّ جلاله ذلك ؛ وهي ليلة القدر التي قال الله خير من ألف شهر . قلت : ما معنى قوله : يلتقي الجمعان ؟ قال : يجمع الله فيها ما أراد الله من تقديمه وتأخيره وإرادته وقضائه . قلت : وما معنى يمضيه في ليلة ثلاث وعشرين ؟ قال : إنه يفرق في ليلة إحدى وعشرين ويكون له فيه البداء ، فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين أمضاه فيكون من

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ .

المحتوم الذي لا يبدو له فيه تبارك وتعالى . قال : فمن ذلك ما رويناه بإسنادنا إلى زرارة عن حمران قال : سألت أبا عبد الله عن ليلة القدر قال : هي في إحدى وعشرين وثلاث وعشرين . ومن ذلك بإسنادنا أيضاً إلى عبد الواحد المختار الأنصاري قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : أخبرني عن ليلة القدر ، قال : التمسها في ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين . فقلت : أفردها لي فقال : وما عليك أن تجتهد في ليلتين .

وغير ذلك من الروايات التي يطول ذكرها .

قوله تعالى : ﴿تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ والرُّوحُ فيهَا بِإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ :

﴿تَنَزَّل﴾ أصلها تتنزّل « بالتاءين » فحذفت إحداهما للتخفيف ، وهي من باب التفعل وباب التفعل للتدريج .

قال في المنجد : تجرع الماء : شربه شيئاً فشيئاً وجرعة بعد جرعة . فعلى هذا معنى تنزل الملائكة هو النزول فوجاً بعد فوج . وقد قيل في ذلك إن الملائكة لها كثرة عظيمة لا تحتملها الأرض ، فلذلك ينزلون فوجاً بعد فوج . ولكن من المعلوم أن الملائكة إما أرواح فلا تزاحم بينها أو أنهم أجسام لطيفة وذلك كالنور .

ولا يعجبني هذا التفسير لعدم الموجب للنزول التدريجي ، وما ذكر من أن باب التفعل للتدريج كما ذكره بعض الأفاضل من المفسرين غير تام ، وما يستفاد من موارد استعماله أنه للاستمرار ، وأما التدريج فإنه ربما يلازم الاستمرار . وأما التدريج في قولك تجرع الماء فيستفاد من الخارج ، فإن الاستمرار الحقيقي في شرب الماء غير مراد قطعاً . فينطبق لا محالة على

شربه جرعة بعد جرعة . وأما في مورد يكون الاستمرار ممكناً ومراداً فيحمل على معناه . ويظهر صحة ما ذكرنا بالتتبع في موارد استعمال هذه الهيئة ، مثلاً : التلبس ، يقول في المنجد لبس الثوب : استتر به ، ثم يأتي إلى تلبس ويقول : تلبس بالأمر وبالثوب : اختلط به . وتلبس بي الأمر : تعلق علي الأمر ، وتلبس حبه بدمي : أي اختلط . فكل ذلك يعطي معنى الاستمرار . ثم يقول تلبس لباساً حسناً : أي لبسه ، وهذا غير صحيح قطعاً، لأنّه إذا كان معنى تلبس: لبس ، فما شأن هذه الهيئة ؟ فلا بدّ لها من خصوصية ؛ فإن كثرة المباني تدل على كثرة المعاني .

فإذاً معنى تلبس اللباس أي استمر في لبس اللباس في مقابل لَبْسِه ساعة مثلاً . فمثلاً نقول : فلان تلبس بالعمامة ، أي اتخذها لباساً لنفسه بالاستمرار . ومنه قوله عليه السلام : « أمّا والله لقد تقمّصها فلان » فعلى هذا تفيد « تنزل » معنى الاستمرار ، وأن نزول الملائكة مستمر في كل سنة ، كما ذكرنا من أن ليلة القدر في كل سنة . ويؤيد ذلك أيضاً ما في غير واحدة من الروايات ،منها ما في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : يا معشر الشيعة خاصموا بسورة إنّا أنزلناه في ليلة القدر تفلجوا ، فوالله إنّها لحجة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله ، وإنّها لسيدة دينكم ، وإنها لغاية علمنا » . الحديث . وفي المقام روايات أخرى يعجبني نقل واحدة منها وهي ما رواها في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : بينا أبي جالس وعنده نفر إذ استضحك حتّى اغرورقت عيناه دموعاً ، ثم قال : هل تدرون ما أضحكني ؟ قال : فقالوا : لا ، قال : زعم ابن عباس أنه من الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا ؛ فقلت له : هل رأيت الملائكة يا بن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة مع الأمن من

الخوف والحزن ؟ قال : فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾؛ وقد دخل في هذا جميع الأمة . فاستضحكت ثم قلت : ما ترى في رجل ضرب رجلاً أصابعه بالسيف حتى سقطت ، ثم ذهب ، وأتى رجل آخر فأطار كفّه ، فأتي به إليك وأنت قاض، كيف أنت صانع ؟ قال : أقول لهذا القاطع أعطه دية كفّه ، وأقول لهذا المقطوع : صالحه على ما شئت . وأبعث به إلى ذوي عدل .

قلت : جاء الاختلاف في حكم الله عزّ ذكره ، ونقضت القول الأول . أبى الله عزّ ذكره أن يحدث في خلقه شيئاً من الحدود [و] ليس تفسيره في الأرض؛اقطع قاطع الكف أصلاً ثم أعطه دية الأصابع . هكذا حكم الله ليلة تنزّل فيها أمره . إن جحدتها بعد ما سمعت من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فأدخلك الله النار ، كما أعمى بصرك يوم جحدتها علي بن أبي طالب . قال : فلذلك عمي بصري . قال وما علمك بذلك ؟ فوالله إن عمى بصري إلاّ من صفقة جناح الملك ، قال : فاستضحكت ، ثمّ تركته يومه ذلك لسخافة عقله .

ثم لقيته فقلت : يا بن عباس . . ما تكلمت بصدق مثل أمس . قال لك عليّ بن أبي طالب عليه السلام : إن ليلة القدر في كل سنة وأنّه ينزل في تلك الليلة أمر السنة ، وأنّ لذلك الأمر ولاة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله . فقلتَ من هم ؟ فقال : أنا وأحد عشر من صلبي أئمّة محدّثون . فقلت لا أراها كانت إلاّ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فتبدّى لك الملك الذي يحدّثه فقال : كذبت يا عبد الله ، رأت عيناي الذي حدّثك به عليّ عليه السلام ـ ولم تره عيناه ولكن وعى قلبه ووقر في سمعه ـ ثم صفّقك بجناحه فعميت . قال : فقال ابن عباس : ما اختلفنا في شيء

فحكمه إلى الله . فقلت : فهل حكم الله في حكم من حكمه بأمرين ؟ قال : لا ، فقلت هاهنا هلكت وأهلكت .

ولذلك ورد في حديث الإسراء قال عليه السلام : ثم أوحى الله عز وجل اقرأ يا محمد نسبة ربّك تبارك وتعالى الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، هذا في الركعة الأولى . ثم أوحى الله عزّ وجلّ إليه اقرأ يا محمد الحمد لله فقرأها مثلما قرأ أولاً ، ثم أوحى الله إليه اقرأ إنا أنزلناه فإنها نسبتك ونسبة أهل بيتك . هذا كله في قوله تعالى تنزل .

﴿الملائكة﴾ : واحدها المَلَك ، وأصل الجمع الملائك ، وزيدت التاء للمبالغة أو التأنيث ؛ وهذا التأنيث ليس تأنيثاً حقيقاً لقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾[1] بل تأنيث غير حقيقي باعتبار الجمع للملائكة ـ بحسب البطن في القرآن ـ تأويلاً ليس هنا محلّ ذكره .

وأمّا ﴿الروح﴾ فقد ورد في الرواية كما عن الصادق عليه السلام : أنه خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل لم يكن مع من مضى غير محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو مع الأئمّة يسددهم . الخبر . .

والأخبار في روح القدس كثيرة ويظهر من روايات الكافي وغيره أنهما اثنتان ؛ إحداهما روح من الأرواح الخمسة التي جعلها الله في الأنبياء والأوصياء ، كما قال الباقر عليه السلام في الكافي : « إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح روح القدس وروح الإيمان وروح الحياة وروح القوة

---

(١) سورة الزخرف آية ١٩ .

وروح الشهوة ، فبروح القدس عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى . . . ﴾ . والروايات في ذلك كثيرة .

والأخرى أعظم من الملائكة ، جعلها الله عز وجل مع النبي والأئمة عليهم السلام خاصة ، ثم إنه قد ورد أنهم عليهم السلام روح الله وكلمته ، وأن الإمام روح قدسي .

ففي رواية الثمالي عن الباقر عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل تفرّد في وحدانيته ، ثم تكلّم بكلمة فصارت نوراً ، ثم خلق من ذلك النور محمداً وعلياً وعترته عليهم السلام ، ثم تكلم بكلمة فصارت روحاً ، وأسكنها في ذلك النور ، وأسكنه في أبداننا ، فنحن روح الله وكلمته احتجب بنا على خلقه » .

وعن طارق بن شهاب عن علي عليه السلام أنه قال في حديث له : « ان الإمام بَشَرٌ ملكي وروح قدسي وأمر إلهي » . الخبر . . ولعل الرواية تكون مرتبطة بقوله تعالى : ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً**﴾[1] . وفي بعض الزيارات : وأجرى - أي الله سبحانه - فيكم من روحه ، وفي بعضها « أيدكم بروحه » . ولعل الأول إشارة الى روح القدس والثاني إلى الروح الذي هو خلق أعظم من جبرائيل ، وتنزل في ليلة القدر .

﴿**من كل أمر**﴾ من أجل كل أمر ، ومن أجل كل تقدير من الله سبحانه لكل فرد قد قدّر وعلم ، أو أن الملائكة تنزل لتثبت كل أمر وعمل وعبادة تصدر من كل أحد ، وتصعد بها إلى الله سبحانه .

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥.

﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ : أي هذه الليلة سلامة . وقدّم الخبر ليفيد الحصر أي : ما هي إلا سلامة ، وكل ما ينزل في هذه الليلة إنما هو سلامة ونفع وخير ، والليلة ليست نفس السلامة وإنما هي ظرف لها ، ومع ذلك وصفت بالسلامة للمبالغة في اشتمالها عليها ، أو ما هي إلّا سلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين[1] . وهذا السلام مستمر ، أو هذه السلامة مستمرة إلى أن يطلع الفجر .

أو أن «حتّى» متعلقة بتنزل أي تنزل الملائكة والروح حتى مطلع الفجر .

وفي الحديث : من قرأ سورة القدر أعطي ثواب من صام رمضان وأحيى ليلة القدر .

فائدة إلهامية :

ذكر في كتب اللغة كالمنجد للقدر معان :

١ ـ القدر مبلغ الشيء ، كون الشيء مساوياً لغيره بلا زيادة ولا نقصان ، مثال : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2] .

٢ ـ العظمة : قَدَرَ الله أي عظَّمه مثال : ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[3] .

---

(١) ويؤيد ذلك ما في رواية الكافي عن أبي عبد الله في تفسير هذه السورة ، وفيها : ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ يقول : تسلّم عليك يا محمّد ملائكتي وروحي بسلامي من أول ما يهبطون إلى مطلع الفجر . الحديث . .

(٢) سورة القمر آية ٤٩ . (٣) سورة الحج آية ٧٤.

٣ ـ القيمة والثمن : مثال : « قدر الرجل على قدر همته » .

٤ ـ ما يقدره الله من القضاء ويحكم به ، مثال: ﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾[1] .

٥ ـ الراحة وعدم المشقة ، مثال : قول العربي : « بيننا ليلة قادرة ، أي هيّنة السير لا تعب فيها ».

فيمكن أن تكون الآيات الخمس في سورة القدر بالترتيب كل واحدة إشارة الى أحد المعاني الخمسة المذكورة . فتدبّر .

* * *

---

(١) سورة يّس آية ٣٨ .

سُورَةُ البَيِّنَة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ* رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً* فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ* وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ* وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاء ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويؤتوا الزَّكاة وذٰلِكَ دِينُ القيمة* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّة إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ* جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ*﴾ .

صدق الله العليّ العظيم .

هذه السورة مدنية وقيل إنها مكيّة .

وفي الخبر عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من قرأ سورة «لم يكن» كان يوم القيامة مع خير البرية ، مسافراً ومقيماً » . قوله : مسافراً ومقيماً متعلق بقرأ .

وعن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لأبيّ بن كعب : « إنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أقرأ عليك **﴿لم يكن الذين كفروا﴾** . وفي رواية أخرى : « أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال : وسمّاني لك ؟ قال : نعم . قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم » فذرفت عيناه .

وفي رواية أخرى قال جبرائيل للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لّما نزلت هذه السورة : « إنّ الله يأمرك أن تقرأها أبيّاً » فذكر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لأبيّ فبكى فقال : أوذكرت هناك يا رسول الله ؟ قال : «نعم ، فبذلك فلتفرحوا » .

وروي عن سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « لو يعلم الناس ما في **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾** لعطّلوا الأهل والمال وتعلموها . فقال رجل من خزاعة : ما فيها من الأجر يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لا يقرأها منافق أبداً ، ولا عبد في قلبه شكّ في الله . والله إن الملائكة المقرّبين ليقرأونها منذ خلق الله السماوات والأرض لا يفترون عن قراءتها ، وما من عبد يقرأها بليل إلا بعث الله ملائكةً يحفظونه في دينه ودنياه ، ويدعون الله له بالمغفرة والرحمة ، فإن قرأها نهاراً أعطي عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار وأظلم عليه الليل » .

فقال رجل من قيس عيلان : زدنا من هذا الحديث فداك أبي وأمي يا رسول الله ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : تعلّموا **﴿عمّ يتساءلون﴾** ، وتعلّموا **﴿ق والقرآن المجيد﴾** ، وتعلّموا **﴿والسماء ذات**

البـروج﴾ ، وتعلّموا ﴿والسـماء والطارق﴾ فـإنكم لـو تعلمـون مـا فيهن لعطلتم ما أنتم عليـه وتعلمتموهن ، وتقـربتم إلى الله عز وجـل بهن ، فإن الله يغفـر بهن كل ذنب إلا الشـرك بـالله . واعلم أن ﴿تبـارك الـذي بيـده الملك﴾ تجادل عن صاحبها يوم القيامة ، وتستغفر له من الذنوب » .

هذه جملة مما ورد في فضل هذه السورة المباركة . وأما تفسيرها :

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ :

أهل الكتاب : اليهود والنصارى . والمشـركون : كفّـار العرب وهم عبدة الأوثان و« من » هنا للتبيين وقيل للتبعيض . كذا قال الميبدي ، وقال المفسر الكبـير الـطبـاطبـائي إنها للتبعيض وللتبيين ، ولم يبـين وجهــه ، وكذلك صاحب روح البيان : إنها للتبيين لا للتبعيض ، وذكر الوجه فيه ، وهو حتى لا يلزم أن يكون بعض المشركين كافرين .

وعندي أنها للتبعيض لا للتبيين . ويظهر وجهه بعد الانتباه إلى نكتةٍ في الآية الشريفة ، وهي أنّه ربّمـا يقال مـا الوجـه في العدول عن قول« :لم يكن الكافرون من أهل الكتاب والمشركين» . إلى قوله : «لم يكن الذين كفـروا من أهل الكتاب والمشركين» ، مع أنَ الأول أخصر فهو أوفق للفصاحـة ؟ فيمكن أن يقـال في وجه العـدول عن الاسم إلى الفعل : إن أهـل الكتاب لم يكـونوا كلهم كفاراً ، بل منهم من آمن بالنبي ومنهم من كفر ، وهكذا المشركون . فلو قيـل لم يكن الكفار من أهـل الكتاب والمشـركين لم يفهم هـذا المعنى ، وتشمل الآية جميعهم . إلا أن تكون قرينة على كون « من » للتبعيض وهي مفقودة ، فإذاً لما توجهنا إلى أن الفعل أتي بـه في الآية الشـريفة ليـدل على الـزمان فيفهم منـه أن الحكم شامـل للذين كفـروا من أهـل الكتـاب ، لا

الذين لم يكفروا بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم .

وبعبارة أخرى يعطي هذا التعبير مفهوماً وصفياً ، فيكون هذا قرينة على أن « من » للتبعيض لا للتبيين .

وبالجملة : الذين كفروا والمشركون لا ينتهون ولا ينفكون عن كفرهم حتى تأتيهم البيّنة ؛ لفظه مستقبل ومعناه الماضي . أي حتى أتتهم البيّنة ثم فسّر **البيّنة** فقال : **﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة﴾** :

الصحف : جمع صحيفة ؛ وهي ما يكتب فيها وقد تكرر في القرآن إطلاق الصحف على الكتب السماوية كقوله تعالى : **﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾**[1] وقوله **﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأولىٰ﴾**[2] وكقوله تعالى **﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ* فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ* فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ* مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَة . .﴾**[3] الآيات . . ومطهرة أي مقدسة من قذارة الباطل ومن التناقض والجحذ والمعاني السخيفة والدعاوى من غير دليل ؛ كل ذلك رجس ورجز ومن عمل الشيطان ، فلا تمسه الشياطين ، ولا يقدر الباطل على النفوذ فيه ، وحرم القرآن آمن من جميع ذلك ؛ فلذلك القرآن مطهر . وهذه الصحف المطهرة احتوت أحكاماً قيّمة بها قيام الفرد والمجتمع ، وهي حاكمة عليهم وقيّمة لهم ، ولا بدّ للناس أن يكونوا تحت قيمومية الحكم الإلهي . فهذه الصحف وهذه الآيات والسور قيّمة للناس . وقد أبلغ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قَيِّمُ الناس إليهم ، والمبلّغ أيضاً مطهّر واللسان الذي يبلغ مطهر : **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[4] .

---

(١) سورة الأعلى آية ١٨ ـ ١٩ . (٢) سورة طه آية ١٣٣ .
(٣) سورة عبس آية ١١ ـ ١٤ . (٤) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

وهذه الكتب القيّمة ليست مطهرة من ناحية المبلّغ ولسانه فحسب ، بل هي من عالم الغيب إلى أن تصل الى سمع رسول الله مطهرة ومكرمة . كما قال في سورة عبس ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَة مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَة﴾ . هذه الآيات مرفوعة بحيث لا تنالها أيدي الأفكار لتفهم معانيها ، ولا تنالها من حيث الإتيان بمثلها ، وهذا الكتاب مرفوع عن تناول الأيدي إياه ، فلا يمكن أن يؤتىٰ بسورة منه ، ولا يتيسّر لأحد أن يحرفه ، ومع ذلك كله ومع هذا العلو والارتفاع هو طاهر مطّهر من كل دنس ، وحاملو هذا الوحي أيضاً أمناء ومطهرون من الخيانة ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ* كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[1] فأمناء الوحي المطهرون يتلون الكتاب المطهر على النبي المطهر .

فلا بدّ لتالي القرآن من التطهير ، والخطوة الأولى للتطهير هي انكسار غرور النفس وعجبها لتكون مستعدة للتطهير ، فإن الأراضي المستعلية ليس لها نصيب من الماء ولا تستسقي منه ، وإنما يصيب الماء ظاهرها . وأما إذا كانت الأرض منخفضة فيستفيد باطنها من الماء فيطهر باطنها أيضاً من الماء النازل من السماء . ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾[2] . فالماء النازل من سماء الرحمة الرحمانية والرحيمية يطهر أراضي النفوس المتدنسة بدنس الحياة الدنيوية ؛ إذا لم تكن مستعلية بل تكون منخفضة ، وهكذا عند عدم وجدان الماء فلا بدّ من التيمّم بالتراب ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾[3] . فالتيمّم بالصعيد الطيب ومسح الوجه بالتراب يعطي ذلة للنفس تكون هذه الذلة ممهدة لتطهيرها ، كما قال تعالى ﴿فَتَيَمَّمُوا . . . مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[4] . هذه هي الخطوة الأولى في التطهير .

---

(١) سورة عبس آية ١٥ ـ ١٦ . (٢) سورة الأنفال آية ـ ١١ .
(٣) سورة المائدة آية ٦ . (٤) سورة المائدة آية ٦ .

والخطوة الثانية تطهير مجاري القرآن من الفم والعين والأذن : فبالنسبة إلى تلاوة القرآن أيضاً لا يتلوه حقّ تلاوته إلا من كان مطهراً لمجاري القرآن . ولذا ورد في الرواية : « طهّروا أفواهكم فإنها طرق القرآن» . فالإنسان الذي يتكلم في النهار بكل ما يجري على لسانه ليس له أن يوفق في الليل بتلاوة القرآن حقّ تلاوته كما قال أمير المؤمنين في حقّ المتقين : « أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلا . . . » .

التلاوة هذه لا تجري إلا من مجرى طاهر ، لأنّ القرآن طاهر مطهر ، فلا بدّ أن يكون مجراه طاهراً ، ويجري على فم لا يخرج منه الكلام السيّئ ولا يتفوه بكلمة سيئة ، من فم لا يدخل فيه نجس ولا طعام حرام ، وإلا فالماء الصافي إذا جرى في مجرى ملوث وملطخ فيتلوث لا محالة ويفقد صفاءه ؛ فالقرآن إذا جرى في فم غير مطهر فيكون مصداقاً لقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّينَ﴾[1] وقوله عليه السلام : « ربّ تال للقرآن والقرآن يلعنه » .

وليس الفم مجرى القرآن فحسب ، بل العين والأذن واليد أيضاً كذلك ؛ فقد روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال : أعطوا العين حقّها . فقيل : يا رسول الله ما حقّ العين ؟ قال : النظر إلى المصحف » . فالنظر إلى المصحف عبادة ، وتلاوة القرآن على المصحف عبادة لا بدّ من طهارتها .

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين﴾ : والخلوص هو الطهارة عن كل قذر وشرك ؛ فإذا كانت العين غير طاهرة : وتكون خائنة والمتصرف

(١) سورة الماعون آية ٤ .

فيها يكون هو الشيطان ، وتكون نظرتها نظرة شيطانية كما في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام : « النظرة سهم من سهام إبليس مسموم » فهذه العين لا تستطيع النظر في القرآن والاستفادة من النظر فيه .

في الوسائل عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ﴾[1] قال : قال لها شعيب : يا بنية هذا قوي يرفع الصخرة ، الأمين من أين عرفت ؟ قالت : يا أبتِ إني مشيت قدّامه فقال : امشي من خلفي فإن ضللت فأرشديني إلى الطريق ، فإنّا قوم لا ننظر إلى أدبار النساء » .

فالعين التي تربت بهذه التربية تكون لائقةً بالنظر إلى وجه الله الكريم كما في دعاء السمات : « وبنور وجهك الذي تجليت به للجبل فجعلته دكّاً وخرّ موسى صعقاً » .

فكما أن العين لا بدّ أن تكون طاهرة، اليد أيضاً كذلك ، فاليد القذرة بالقذارة الظاهرية لا يجوز لها أن تمس القرآن ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾[2] .

وهكذا الأذن لا بدّ أن تكون طاهرة مطهرة لتكون واعية للقرآن ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[3] . وأما الأذن غير الطاهرة فلا تستطيع أن تسمع القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[4] . والأذن الواعية هي التي لا يحجبها حجاب المعصية وقذارتها ، وإذا كان فيها حجاب لا تدخل فيها الآيات ولا تكون واعية : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾[5] .

---

(١) سورة القصص آية ٢٦ . (٢) سورة الواقعة آية ٧٩ . (٣) سورة الحاقّة آية ١٢ .
(٤) سورة الإسراء آية ٤٦ . (٥) سورة الإسراء آية ٤٥ .

والمستور ليس بمعنى الساتر كما توهمه البعض ، بل هو على معناه الحقيقي ، ونفس هذا الحجاب مستور عن الرؤيا ،وليس كالجدار ـ مثلاً الحاجب لما وراءه ـ مرئياً للناظرين ، بل هذا الحجاب حجاب غير مشاهد وغير مرئي . وورد في الحديث أن الرجل يسأل الإمام عن عدم استطاعته قيام الليل فقال عليه السلام : « أنت رجل قيدتك ذنوب يومك » . فذنوب النهار تكون حجاباً بين صاحبها وبين الله تعالى فلا يستطيع أن يدخل مجلس القرب ومحفل الأنس .

وبالجملة :

ولا بدّ لنا من السعي في تطهير مجاري القرآن لنستفيد من نوره ، فإن القرآن طاهر مطهر، رسول مطهر من الله ، يتلو صحفاً مطهرة ، ولا يمس المطهر إلا المطهر ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[1] .

*** ﴿فيها كتب قيّمة﴾ :**

أي كتب في تلك الصحف الأحكام والقضايا المتعلقة بالاعتقاد ، والأعمال التي هي قيام الفرد والمجتمع ومقوم لهما ، والمراد من الكتاب هو الجعل والتشريع كما في غير مورد من القرآن ؛ كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[2] و ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾[3] .

*** ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البيّنة﴾ :**

---

(١) سورة الواقعة آية ٧٧ ـ ٧٩ . (٢) سورة البقرة آية ١٨٣ . (٣) سورة البقرة آية ٢١٦ .

قال الطباطبائي قدّس سرّه : إن الآية الأولى تشير إلى كفرهم بالنبي وكتابه المتضمن للدعوة الحقة ، وهذه الآية تشير إلى اختلافهم السابق على الدعوة الإسلامية . وقد أشير إلى ذلك في مواضع من القرآن الكريم ، كما قال تعالى : **﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾**[1] والبيّنة : هي البيان النبوي الذي تبيّن لهم في كتابهم أو أوضحه لهم أنبياؤهم ؛ قال تعالى : **﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ** - أي الإنجيل - **قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ* فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾**[2] .

وهنا سؤال واضح ؛ وهوأنانرى أن سياق الآية الشريفة قد تغير ولم تتعرض لتفرق المشركين ، بخلاف الآية السابقة حيث تعرضت لأهل الكتاب والمشركين ، فما الوجه في تغيير السياق ؟

أحسن ما رأيت من الجواب في التفاسير الموجودة عندي - وإن كانت قليلة - ما أجاب به الطباطبائي قدّس سرّه وخلاصته : إن التغيير ظاهري وصوري ، والتدبر يقضي أن الآيتين تؤتيان مدلولاً واحداً ؛ وهو أن معنى أهل الكتاب - في اصطلاح القرآن والشرع - اليهود والنصارى ، أوهم الصابئون المجوس ، فلا يشمل المشركين ؛ وهذا بخلاف الذين أُوتوا الكتاب ، فإن هذا العنوان شامل لعامة البشر ، فكلهم قد أُوتوا الكتاب . غاية الأمر أن بعضهم عمل بما أُوتي وحفظه ، وبعضهم نسي ما أُوتي ، وبعضهم أخذ به محرفاً ؛ كما قال تعالى : **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ**

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ . (٢) سورة الزخرف آية ٦٣ - ٦٥ .

اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[1] وفي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى أن قال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ وَلٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾[2] .

فبهذا البيان يرتفع الإشكال ، ويكون التغيير ظاهرياً وصورياً ، وتؤدي الآيتان مدلولاً واحداً . ولكن ربما يتوجه سؤال آخر وهو أنه على هذا فما وجه التكرار ؟ فإنه إذا كان التكرار صورياً فيلزم التكرار لا محالة ، فما وجهه ؟ ويمكن الجواب عن ذلك بما ذكرنا أن الآية الأولى تشير إلى مخالفتهم النبي ، والآية الثانية تشير إلى مخالفتهم الشرائع السابقة أيضاً . ويمكن أن توجه الآية بتوجيه ألطف مما ذكر وتكون الآيات مرتبطة بعضها ببعض على خلاف ما في التفاسير ، حيث إن الآيات ليس بينها ربط تام . ويجاب عن إشكال التكرار الذي ذكرناه وهو أن يقال إن في الآية الشريفة تأسياً لرسول الله في ما فعل أهل الكتاب به صلّى الله عليه وآله ، أو لتعريفهم على الناس وبيان طبيعتهم وماهيتهم ؛ وبالخصوص اليهود ، وأن أهل الكتاب لم يقبلوا دين الإسلام متفقين وبأجمعهم ، بل صاروا متفرقين في قبول الدعوة الإسلامية ، وذهب كل إلى مذهب واتهمك بعضٌ بالكذب وبعضٌ بالسحر وبعض بأنك شاعر ومجنون ؛ فليست هذه التفرقة من جهة أنهم لم يعرفوا أنك رسول الله ، ولم يستوثقوا برهانك ، بل إنهم تفرقوا وهم على بيّنة من الله فيك ، وقيام البرهان والدليل عليهم ، ويزداد لطف التعبير عن

(١) سورة البقرة آية ٢١٣ . (٢) سورة البقرة آية ٢٥٣ .

ذلك بقوله تعالى : ﴿أُوتُوا الكتاب﴾ مكان أن يقول تعالى وما تفرق اليهود والنصارى حيث وصفهم بأنهم قد أُوتوا الكتاب السماوي فيستحقون الذم واللوم أكثر ، لأن أوصاف رسول الله قد جاءت في الكتب السماوية بحيث كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وكانوا يعرفون زمان بعثة النبي وخصوصيات أعماله وأفعاله ويخبرون عنها ، وكانوا يهدّدون أعداءهم المشركين بقرب ظهور نبيّ الإسلام ونزول كتاب مصدق لما في التوراة والإنجيل ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بظهور الإسلام وبعثة النبي ، ولكن على خلاف المتوقع والمنتظر ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[1] فما كان عندهم أي شكّ وريب في حقيقة الإسلام وصحة رسالة النبي ، ولكن في نفس الوقت ـ حباً للجاه وطلباً للدنيا ومطامعها ـ لم يقبلوا دعوة الرسول : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[2] .

نعم إن أهل الكتاب كانوا عالمين بأحكام الله المنزلة من عند الله بأن دين الله واحد ، ولم تكن دعوة نبيّ من الأنبياء إلى الكفر والشرك والزندقة ، بل جميع الأنبياء الإلهيين دعوا الناس لعبادة الله تعالى وحده، والإخلاص في عبادته على مراتبه الكثيرة ، وإيجاد الربط بينهم وبين الله تعالى المعبر عنه بالصلاة ، وهكذا بينهم وبين الناس ، ورعاية حقوقهم المعبر عنها بالزكاة ، كما قال عيسى بن مريم : ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾[3] وقال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ۞ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾[4] وقال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

(١) سورة البقرة آية ٨٩. (٢) سورة النمل آية ١٤ .
(٣) سورة مريم آية ٣١. (٤) سورة مريم آية ٥٤ ـ ٥٥.

مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[1] .

فأتباع الأديان السماوية والذين أُوتوا الكتاب السماوي الإلٓهي كانوا يعرفون أن ما أمروا به إنما هو عبادة الله والإخلاص فيها ، والصلاة والزكاة ؛ ولم يكونوا كالأعراب الذين كانوا يعيشون في البادية ولم يعرفوا من هذه التعاليم الإلٓهية شيئاً ، كما قال تعالى : **﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾**[2] . فلم يأت الإسلام بشيء منكر لأهل الكتاب ، بل كان دين القيّمة ، فما أمروا «إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة» .

فبهذا البيان اتضح بحمد الله ربط الآيات بعضها ببعض وأنه ليس فيها تكرار .

*** ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ :**

قال الطباطبائي وغيره : إن الضمير في « وما أمروا » للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ؛ أي لم تتضمن رسالة الرسل والكتب القيمة التي كانت قبله إلا أمرهم بعبادة الله ، وبقيد الإخلاص بالدين ، فلا يشركوا به شيئاً .

حنفاء : حال من ضمير الجمع . والحنفاء جمع حنيف ، وهو من يميل من الباطل إلى الحق ، كما أن الجنيف بالجيم من يميل من الحق والعدل إلى الباطل . وقال المفسرون : إن الحنفاء في هذه الآية هم الذين يميلون

---

(١) سورة مريم آية ٥٨ ـ ٥٩ . (٢) سورة التوبة آية ٩٧ .

إلى الإسلام من أي دين . وقال الطباطبائي : الحنف هو الميل من جانبي الإفراط والتفريط إلى حال وسط الاعتدال . وقد سمّى الله تعالى الإسلام ديناً حنيفاً لأنه يأمر في جميع الأمور بلزوم الاعتدال ، والتحرز عن الإفراط والتفريط .

أقول :

لم نجد في القرآن مورداً يكون صريحاً في تسمية الله سبحانه دين الإسلام ديناً حنيفاً كما ادعاه المفسر الطباطبائي (قدّس سرّه). نعم يحتمل ذلك في بعض الآيات فليراجع .

﴿ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾ : قال الطباطبائي قدّس سرّه هذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، أو الجزء بعد الكل اهتماماً بأمره ؛ فالصلاة والزكاة من أركان الإسلام ، وهما التوجه العبودي الخاص إلى الله وإنفاق المال في الله .

﴿وذلك دين القيمة﴾ :

للمفسّرين في هذه الجملة أقوال : بعضها يتضمن التقدير والحذف كما ذكر الطباطبائي ، أي دين الكتب القيمة ، وقال الآخرون إن المقدر هو الأمة أو الملة ، ونذكر هنا قولين لا يحتاجان إلى التقدير والحذف .

الأول : أن يكون الدين والقيمة صفة وموصوفاً والتاء في القيمة ليست علامة التأنيث بل تدل على المبالغة كتاء العلّامة والنصّابة وراوية ، وإضافة الموصوف إلى الصفة كثيرة في لسان العرب كمسجد الحرام وجنة الفردوس وفي القرآن كقوله : والدار الآخرة .

الثاني : ما نقل عن خليل بن أحمد أن القيمة جمع القائم . وذكر الميبدي أيضاً أنه جمع القيم ، والقيم والقائم واحد ، ثم فسره بدين القائمين لله بالتوحيد ، وذلك كقولنا : المعتزلة والمجبرة والمشبهة أي التابعين لمذهب الاعتزال أو القائلين بالجبر أو التشبيه . ثم ذكر تعالى ما للفريقين .

﴿إنَّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنّم خالدين فيها أُولئك هم شرّ البريّة﴾ :

أي شرّ الخليقة ، من البرء بمعنى الخلق ، قال تعالى : **﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾**[1] أو من البري بمعنى التراب أي هم شرّ من خلق من التراب . كقوله تعالى : **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾**[2] .

﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خير البرية﴾ : أي خيارهم .

﴿جزاؤهم عند ربّهم جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ : لا يموتون ولا يخرجون .

﴿رضي الله عنهم﴾ : بإيمانهم وأعمالهم .

﴿ورضوا عنه﴾ : بثوابه إذ نالوا منه تعالى ما أرادوا .

﴿ذلك لمن خشي ربّه﴾ : وإذا ضمت إلى هذه الآية الآية الشريفة **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾**[3] فتنتج الآيتان أن هذه الجنات

---

(١) سورة الحديد آية ٢٢ . (٢) سورة الأنفال آية ٢٢ . (٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

للعلماء ، وأن العلماء هم خيار الأمة وخير البرية .

تتميم : ورد في الروايات أن خير البرية هم عليّ وشيعته .

أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : كنّا عند النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : فأقبل علي فقال النبيّ : والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ، ونزلت ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ إلى ﴿**خير البرية**﴾ . . فكان أصحاب النبي إذا أقبل علي قالوا جاء خير البرية وبهذا المعنى اخبار كثيرة .

* * *

سُورَة الزَّلْزَلَة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا* وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ*﴾ صدق الله العليّ العظيم .

الإتيان بالمصدر بعد الفعل يفيد التأكيد أو بيان العدد أو كيفية الفعل ويقال لهذا المفعول : المطلق ، وهو على ثلاثة أقسام : تأكيدي وعددي ونوعي . ففي المقام للتأكيد **﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾** مضافاً إلى أن إضافته إلى الضمير تعطي معنى النهاية في التأكيد ـ مثلاً ـ إذا قلنا إن الخطيب الفلاني ألقى كلمة أظهر فيها بلاغة ؛ يُفهم من هذا الكلام أنه ألقى كلمة بليغة . وأما إذا قلنا بأنه أظهر فيها بلاغته ؛ معناه أنه ما كان في وسعه من إظهار البلاغة فقد أتى به . أو إذا قلنا إن البطل الفلاني جهد جهده في كفاحه مع غريمه ، فهذا بمعنى أنه استعمل كلّ ما كان عنده من قوة وشجاعة . ولم يترك منهما شيئاً لم يأت به ، فالتأكيد في مثل هذه الجملة

أكثر مما كان بدون إضافة الى الضمير . ففي الآية الشريفة يستفاد من إضافة الزلزال إلى الضمير أنه تقع في الأرض زلزلة لا يمكن أن يتصور زلزلة فوقها . ومن المعلوم أن هذه الزلزلة لا تكون إلا في القيامة . فإن « زلزلة الساعة شيء عظيم ».

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ :

خروج الأموات من الأرض عند حدوث الزلزال هو المعنى الظاهر من الآية . وقال المفسرون إضافة الى ذلك إنها الكنوز والدفائن الموجودة في الأرض، فتخرج الأرض ما في جوفها من دفائنها وكنوزها . لتكون حسرة على الفجار الذين ارتكبوا الجرائم من أجلها ، وفرحاً وسروراً للأبرار حيث لم يعتنوا بها ورفضوها .

وفي الخبر عن طريق العامّة أن رسول الله قال : تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ؟ ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ؟ ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ؟ ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً . والقيء عبارة عن الإخراج . وأفلاذ كبدها أي تخرج الكنوز المدفونة فيها .

﴿وقال الإنسان ما لها﴾ :

إما بيان حال أو لسان قال ، وعلى أي حال تبين غاية التشويش والاضطراب والعجب للإنسان في ذلك اليوم . وذكر جمع من المفسرين كالطبرسي والميبدي والفخر أن المراد من الإنسان في الآية الكافر ، لأنّه كان لا يؤمن بهذا اليوم ، فلما رآه تعجب منه وقال ما لها ؟ وقال القمّي بأن المراد من الإنسان أمير المؤمنين ، وهو الذي يسأل عنها وتجيبه ، وروى

الفيض في تفسيره روايات بطرق مختلفة لهذا التفسير ، منها ما في الخرائج عن الباقر عليه السلام أنه قرئت هذه السورة عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال : أنا الإنسان وإياي تحدث أخبارها . وفي العلل عن تميم بن حاتم قال : كنّا مع عليّ عليه السلام حيث توجهنا إلى البصرة قال : فبينما نزول إذ اضطربت الأرض فضربها علي بيده الشريفة وقال لها : ما لك . ثم أقبل بوجهه الكريم ثم قال لنا : أما إنها لو كانت الزلزلة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز لأجابتني ، ولكنها ليست بتلك . وفي الكافي ما في معناه ، وفي العلل عن فاطمة عليها السلام غيرها .

﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ :

هذا الحديث بلسان الحال أو بلسان القال ، فإن كان التحدث بلسان الحال فلا يحتاج إلى التوجيه ؛ فإن كيفية الزلزلة وشدتها وأن الأرض تكون في أثرها قاعاً صفصفاً **﴿لا تَرى فيها عِوَجاً وَلا أمْتاً﴾** ، وإخراجها أثقالها ينبىء عن وقوع الواقعة التي أخبر بها الأنبياء . ومن أخبار القيامة والحشر والنشر .

وهذا الإسناد ، أي إسناد التحدث والنطق إلى غير الإنسان من الجمادات والنباتات ، كثير في لسان العرب والعجم ، وهو من لطائف البيان ، ولا يحتاج إلى تجشم التأويل والتوجيه البارد بأن الأرض تبدل إلى حيوان يتكلم أو غير ذلك من التوجيهات ؛ فإن الحوادث والوقائع والكيفيات لسان حال يتكلم مع الإنسان بأفصح بيان . وفي كلمات الفصحاء وأشعار البلغاء من هذا التكلم والبيان ما لا يحصى ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح : « يا من دلع لسان الصباح

بنطق تبلّجه » فإن التبلّج لسان الصبح ، وينطق صريحاً بطلوع الصبح ودلوعه .

وهكذا في أكثر الأمور في حياتنا ؛ فإن الجمادات والنباتات وغيرها، كلها تتكلم مع الإنسان بهذا اللسان . فهذه الإشارات في الشوارع تتكلم مع العابرين فيخبر الضوء الأخضر عن عدم المانع للعبور ، والأحمر عن المنع ، والإشارات الموجودة في السيارات والطائرات كلها تتكلم مع صاحبها وتنبئه عن سرعة السير أو حدوث خلل فيه ، أو أن وقودها على وشك الانتهاء ، وغيرها من الإشارات في الآلات الصناعية الجديدة المستحدثة . وقال الشاعر :

السيف أصدق إنباء من الكتب   في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

فبناء على هذا؛ فنفس حشر الأقوام والملل على اختلاف عقائدهم وأعمالهم من الخير والشر ، من بدء خلقهم إلى يوم القيامة ، وظهورهم إذا أخرجت الأرض أثقالهم وأجسامهم إنباء وإخباراً عما وقع فيها ، ولا يلزم أن تتكلم الأرض بشيء ، وليس في الآية أيضاً ما يدل على تكلمها ، إلا أن تكون هنا رواية تقول بأنها تتكلم وتنطق مثلاً ، فحينئذ نقبله تعبداً ، ويمكن أن يكون هذا التحدث بإيجاد حالة في الأرض تكون مبينة لما لها ؛ كما تشهد حالة العين مثلاً بالسهر ؛ فهي تحدث عن سهر صاحبها . هذا إذا قلنا إن التحدث للأرض بلسان الحال .

وأما إذا قلنا بأنه بلسان القال ، فهو أيضاً لا مانع منه على ما حقق في محله ، من أن كل موجود يتمتع بالوجود يتمتع من الحياة بقدر وجوده ، لأن الوجود هو الحياة .

وبهذا بيّنا معنى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] إلا أن الأنسب في هذا أن يكون الإخبار هو ما حدث على ظهرها من الخير والشر ، كما ذكره المفسرون ، ورووا في ذلك رواية عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أن رسول الله قال : إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها . وقرأ رسول الله ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ حتى بلغ ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ قال : أتدرون ما أخبارها ؟ جاءني جبرائيل قال: خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل عُمل على ظهرها .

﴿بأن ربّك أوحى لها﴾ :

الباء للسببية ، أي تحدث الأرض أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها ، أو يكون بأن ربك بدلاً من إخبارها كما تقول حدثته كذا وحدثته بكذا ، فعلى هذا يكون المعنى أن الأرض تحدث بأن ربك أوحى لها . ونقل عن الطبرسي عن الفراء أنه قال : تحدث الأرض أخبارها بإذن الرب تبارك وتعالى ، فجعل الفراء الوحي بمعنى الإذن وهكذا الميبدي جعل الإذن أحد معاني الوحي .

﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً﴾ :

أي في اليوم الكذائي الذي وصفناه يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب ، متفرقين ومتبددين ، لا يجتمع أحد مع الآخر للهول الواقع ، ليروا أعمالهم . قال بعض منهم الميبدي : ليروا صحائف أعمالهم . وقال آخر : ليروا جزاء أعمالهم . وقال بعض : إن الرؤية

---

(١) سورة الاسراء آية ٤٤ .

بالقلب ليعلموا علماً يقيناً بجزاء أعمالهم . وربما تكون الآية من الآيات التي تدل على تجسم الأعمال في الآخرة كما حقق في محله ، واستدل عليه بالبراهين ، وأيّده مكاشفات أرباب الكشف وأصحاب القلوب .

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾ :

قيل إن الذرة : النملة الصغيرة ، أو ما يرى في شعاع الشمس إذا ما دخل في كوة . ونقل عن ابن عباس أنه قال : إذا وضعت راحتك أي يدك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزق بها من التراب ذرة . وقيل فيها معان أخر . ومن المعلوم أن المعنى المبالغة في الصغر . والمراد أن لا يستصغر الخير ولا الشر . كما قيل إن الآية نزلت في رجلين،وذلك أنه لما نزل « ويطعمون الطعام على حبه » كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمر والكسر والجوز ونحوها ، يقول : ما هذا بشيء ، إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، يقول تعالى : **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾**[1] وما أحب أنا هذا فيرده صفراً . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير: الكذبة والغيبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول : ليس عليّ من هذا شيء ، إنما وعد الله النار على الكبائر، وليس في هذا إثم . فأنزل الله تعالى هذه الآية يراقبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكبر ، ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر .

ونقل عن بعض الأعاظم أنه قال : من رافقه التوفيق وساعدته السعادة تكفيه من جميع القرآن هذه الآية للوعظ : **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ..﴾** وفي المجمع عن عليّ عليه السلام : قيل هي أحكم آية في القرآن . وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يسميها الجامعة .

---

(١) سورة الدهر آية ٨.

وروي عن زيد بن أسلم أن رجلاً جاء إلى النبيّ فقال : علمني ما علمك الله . فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن فعلمه ﴿**إذا زلزلت الأرض** . . حتى بلغ ـ **فمن يعمل مثقال ذرّة** إلى آخر الآيات ، قال الرجل : حسبي، فأخبر بذلك النبي فقال : دعه ، فقد فقه الرجل . أقول : هكذا كانت الأصول التربوبية للإسلام . والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمّة عليهم السلام والعلماء الراسخون في العلم كانوا يربون الناس هذه التربية ، وأن كل عمل من خير أو شرّ وإن كان قليلاً يحاسب ويجازى به .

وفي الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أيضاً ما يؤكّد على هذا ففي الوسائل عن محمد بن عليّ عليه السلام أنه قال لمحمد بن مسلم في حديث : «لا تستصغرن حسنة أن تعملها فإنك تراها حيث يسرك ، ولا تستصغرن سيئة تعملها فإنك تراها حيث تسوءك» . وعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالباً يقول أحدكم أذنب واستغفر . إن الله عز وجلّ يقول ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[1] وقال عزّ وجلّ : ﴿**إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[2] وعن محمد بن علي الكراجكي في كتاب كنز الفوائد قال : روي عن أحد الأئمة عليهم السلام أنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إن الله كتم ثلاثة في ثلاثة ؛ كتم رضاه في طاعته ، وكتم سخطه في معصيته ، وكتم وليه في خلقه . فلا يستخفن أحدكم شيئاً من الطاعات فإنه لا يدري في أيها رضى الله ، ولا يستقلن أحدكم شيئاً من المعاصي فإنه لا يدري في أيها سخط

---

(١) سورة يس آية ١٢ .　　(٢) سورة لقمان آية ١٦ .

الله ، ولا يزرينّ أحدكم بأحد من خلق الله فإنه لا يدري أيهم ولي الله .

والروايات بهذا المعنى كثيرة ، فينبغي للعاقل أن يتفكر في أمره ويدقق في عمله ، ويعلم أن له كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا يغتر بما يقوله الجاهلون ، ويعده الشيطان وتضله النفس الأمّارة بالسوء ، كي يتمادى في الغفلة ويرتكب الذنوب ويتوانى في الأعمال الحسنة ، فإنه سيرى ما عمله من خير أو شرّ ولو كان مثقال ذرّة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولجميع المؤمنين .

* * *

سُورَةُ العَادِيَات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً* فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً* فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً* إنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وإنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ* وَإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ* أَفَلاَ يَعْلَمُ إذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ* إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ*﴾ صدق الله العلي العظيم .

في المجمع عن الصادق عليه السلام : من قرأ سورة العاديات وأدمن قراءتها بعثه الله عزّ وجلّ مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم القيامة خاصة ، وكان في حجره ورفقائه . وسيظهر وجه المناسبة عند التفسير إن شاء الله .

نرى في القرآن أقساماً وأحلافاً ربما تكون موجبة للعجب لمن لا يكون مستأنساً بهذا الكتاب الإلهي ، لأنها إذا قيست بالأقسام المستعملة في المجتمع أو بالقسم الشرعي يشاهد فيها اختلافٌ كثير ، لأن القسم بغير الله تعالى وبغير اسمه سبحانه غير معتبر ؛ وفي العرف أيضاً يحلف بأشياء تكون محترمة ومعظمة عنده ، وفي جميع الأقسام من القسم الشرعي والعرفي ربما يخاف من المؤاخذة والحادث السوء إذا كان الحالف كاذباً في حلفه . مثلاً

إذا حلف أحد بالله أو بالرسول أو بالأئمّة أو بالقرآن وغيره من المقدسات كذباً ، يخاف في نفسه أن الله سبحانه أو الرسول أو الإمام أو حقيقة القرآن يصيبونه بسوء ؛ وإذا حلف بنفسه أو نفس صديقه أو ولده كذباً يخاف من السوء في نفسه أو صديقه أو ولده . ولقد أشير إلى بعض آثار اليمين الكاذبة في الروايات أيضاً ، وأن اليمين الكاذبة تذر البلاد بلاقع من أهلها ، وتورث الفقر في العقب ، مضافاً إلى أن الهدف الأصلي من اليمين بين الناس هو إثبات المطلب . فإذا احتمل المتكلم أن السامع أو المخاطب لا يقبل قوله فيحلف ليفرض على المخاطب قبول قوله ، ويزيل عنه الشك والتردد . والمنكر في المحاكم أيضاً يحلف بهذا المنظور ، وليس شيء من هذه الأمور متصوراً ومعقولاً في قسم القرآن . لأن الله سبحانه لا يخاف من أحد ولا من أي شيء ، ولا يتصور له وحشة من فقدان موجود . ومن ناحية أخرى كلامه تعالى لا يحتاج إلى القسم . أما إذا كان المخاطب مؤمناً بالله فمعلوم أنه لا يحتاج إلى قسم ، وإن كان المخاطب كافراً به فالقسم لا ينفعه . ثم إن الأشخاص والأشياء مهما كانت عظيمة فهي صغيرة في جنب عظمة الله وليس لها قدر حتى يحلف بها ، ولو فرض أن القسم لمحبوبية المُقسم به وعزته عند الحالف ؛ فنرى أن ما وقع مقسماً به في القرآن الكريم ليس أحبّ الأشياء وأعزها . فعلى ذلك . فما فائدة القسم في القرآن الكريم ؟ والبحث التفصيلي في هذا المجال يستدعي مجالاً واسعاً ؛ ولكن نشير في المقام إشارة إجمالية إلى بعض فوائد القسم في القرآن والمقاصد منه فنقول .

الأول : من فوائد القسم : إظهار أهمية المقسم به في نظر الحالف ، حتى يتوجه المخاطب إلى أهميته ويتفكر فيه . ولا يمرّ عليه وهو غافل ،

ولعل هذا المقصد يكون موجوداً في بعض الموارد من قسم الآدميين أيضاً .

الثاني : بيان أن المقسم بـه له واقعية ووجود إذا كـان مشكـوكـاً أو موهوماً عند الناس ، كالملائكة ويوم القيامة والنفس والضمير .

قال تعالى : ﴿**لا أُقْسِمُ بِيومِ القيامَةِ* وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[1] .

الثالث : توجيه البشر إلى منافع المُقسم بـه وفوائده ؛ كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار ، وحتى التين والزيتون .

الرابع : ردّ الأفكار الخرافية والاعتقادات الجاهلية التي كان البشر في الجاهلية مبتلين بها . وحتى اليوم في حضارتنا المتقدمة أيضاً موجودة ، كالاعتقاد بربوبية النجوم وغيرها ، ومثل ما يعتقده العرب في الجاهلية أن المساء وبعد الظهر وقت مشؤوم ولا يصلح للكسب ، وعلى أثر هذه العقيدة كانت تتحمل الخسائر الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية . والجيل المعاصر أيضاً ربما يشتكون من العصر والزمان ، ويرون أن الأعمال الخيرية غير ميسرة فيه ، فالله سبحانه بيّن بالقسم بالعصر فساد هذه العقيدة . فإن في القسم بالعصر يمكن أن يتصور جميع الفوائد المذكورة للقسم .

الخامس : تعظيم مورد القسم ، ليرغب الناس أيضاً في تعظيمه بالعبادة والجهاد وغيرها من أعمال الخير ، كالقسم بالفجر وليال عشر والشفع والوتر على ما يأتي تفسيره إن شاء الله . والقسم بخيل الغزاة والمجاهدين كما في هذه السورة .

---

(١) سورة القيامة آية ١ ـ ٢ .

وبعد هذه المقدمة نقول : قد اختلف في شأن نزول هذه السورة المباركة ،فذكر جمع من المفسرين أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعث إلى أناس من بني كنانة سرية واستعمل عليها المنذر بن عمر الأنصاري (رض) ، وكان أحد النقباء ، فأبطأ عليه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- خبرها شهراً ، فقال المنافقون : إنهم قتلوا . فنزلت السورة إخباراً للنبي بسلامتها ، وإشارة له بإغارتها على القوم ، ونعياً على المرجفين في حقهم ما هم فيه من الكنود .

وقال بعض آخر من المفسرين : إن السورة ترتبط بغزوة ذات السلاسل . وقد نزلت في أهل وادي اليابس ، اجتمعوا اثني عشر ألف فارس ، وتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا أن لا يتخلف رجل عن رجل ، ولا يخذل أحد أحداً ، ولا يفر رجل عن صاحبه حتى يموتوا كلهم على حلف واحد ، ويقتلوا محمداً وعلي بن أبي طالب . فنزل جبرائيل فأخبره بقصتهم وما تعاقدوا عليه وتواثقوا ، فبعث رسول الله الصاحبيّين المعروفين فلم يعملا شيئاً . والرواية طويلة جداً . إلى أن بعث رسول الله علياً ، فسار عليّ عليه السلام بالسير المتعب ، حتى إذا كان قريباً منهم أمر أصحابه أن ينزلوا ، وتحدث مع الكفار بحديث طويل . فلما انشق عمود الصبح صلّى بالناس فجلس ، ثم غار عليهم بأصحابه فلم يعلموا حتى وطأتهم الخيل ، وأقبل بالأسارى والأموال ، وخرج رسول الله يستقبله في جميع أهل المدينة من المسلمين . فأنزل الله تعالى في ذلك اليوم هذه السورة **﴿والعاديات ضبحاً﴾** يعني بالعاديات الخيل تعدو بالرجال . ذكرنا الرواية بالاختصار . وهنا أقوال أخر نشير إلى بعضها في تفسير الآيات .

﴿والعاديات ضبحا﴾ :

العاديات : جمع عادي : مشتق من العدو بمعنى الركض ، قلبت الواو ياء لأن ما قبلها كان مكسوراً فقلبت الواو بالياء ، كعالي وسامي وساهي وخالي، من العلو والسمو والسهو والخلو، وعشرات من الألفاظ من هذا القبيل المقلوبة واوها ياء .

ضبحاً : ذكرت كتب اللغة والتفسير للضبح معنيين ، **الأول** : الصوت الذي يخرج من أفواه الخيل في عدوها .ضبحت الخيل في عدوها أي أسمعت من أفواهها صوتاً ليس بالصهيل ولا بالهمهمة كما في المنجد . **والثاني** : أنه نوع من العدو ، كما نقله الميبدي عن الخليل ، ونقل أنه بمعنى الضبع وهو أن يمد البعير أو الخيل ضبعيه عند العدو وسرعة السير . قال ابن عباس : المراد بها خيول الغزاة أقسم الله بها شرفاً للغزاة . وقال عليّ عليه السلام : إنها إبل الحاج أقسم بها الله تشريفاً للحاج . روى الطبرسي عن ابن عباس قال، : كنت جالساً في الحجر فجاءني رجل فسألني عن العاديات ضبحاً ففسرتها بالخيل ، فذهب إلى عليّ عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله ، فذكر له ما قلت ، فقال : ادعه لي . فلما وقفت على رأسه قال : تفتي الناس بما لا علم لك به . والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر ، فما كان معنا إلا فَرَسان ؛ فرس للزبير وفرس للمقداد وعلى أي حال ضبحاً مصدر وقع موقع الحال ، أي يضبحن ضبحاً ، أو أنه مصدر بمعنى الفاعل أي بالعاديات الضابحة .

﴿فالموريات قدحاً﴾ :

الإيراء إخراج النار . والقدح الضرب ، أي ضرب شيء على شيء بحيث تخرج منه النار . والقدح بمعنى التوبيخ والتعييب والتنْقيص ، متخذ

من هذا المعنى قدح في عرضه طعن فيه وعابه ونقصه ، كما أن الطعن بمعنى الضرب بالرمح أيضاً يستعمل في طعن الرجل أي في تنقيصه بهذه العناية ، وكذلك الهمز واللمز بمعنى الضرب والعض بالعيب والتنقيص ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[1] .

فالقدح بمعنى إخراج النار . لأن الخيل إذا ضربن بحوافرهن وسنابكهن الحجارة تخرج النار منها . والمعنى توري النار من حوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحجارة ، أو أن خيول المجاهدين بعدوها وصهيلها تشجع المجاهدين وتوقد نار الحرب . روى الميبدي في تفسيره عن مجاهد أنه قال : فالموريات قدحاً هي أفكار العلماء تستنبط المعاني . وقال عكرمة : هي الألسنة تظهر الحق بالنطق . ولا بأس بهما تأويلاً .وهناك معان أخر ذكرها المفسرون .

﴿فالمغيرات صبحاً﴾ :

أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل ، أي تسير ليلاً وتغير على الأعداء صبحاً . قال الميبدي : والغارة وقت الصباح من عادة العرب ، ونهي عن الغارة بالليل ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يغير مصبحاً .

﴿فأثرن به نقعاً﴾ :

أي هيّجن به ، أي بذلك المكان الذي انتهين إليه ولم يذكر ، لأن المعنى مفهوم بالقرينة . وقيل أثرن بالعدو نقعاً أي صوتاً ، وقيل الضمير يرجع إلى الصبح . . والمعنى أثرن في وقت الصبح نقعاً أي غباراً .

---

(١) سورة الهمزة آية ١ .

وأثرن أصلها أثورن من الثور وهو الهيجان ، فنقلت حركة الـواو إلى الثاء قبلهـا وقلبت الـواو ألفـاً فصـارت أثـارن ، فحـذفت الألف لالتقـاء الساكنين وبقيت أثرن على وزن أفلن . والنقـع بمعنى الصوت أيضـاً ، قال في المنجد : نقع نقعاً رفع صوته ، قال الميبدي : فأثرن به أي بالعـدو نقعاً أي صوتاً ، وهذا المعنى أيضاً لا بأس به غير أن مرجع الضمير غير مذكـور إلا أن يُدعى معلوميته بالقرينة .

﴿فوسطن به جمعاً﴾ :

وسط بمعنى تـوسّط . أي الخيـل دخلت في وسط العـدو جمعـاً . فيستفـاد من هـذه الآيـات أن كـل هـذه الأمـور حتى الغبـار الـذي أثـاره المجاهدون أمور شريفة عند الله .

﴿إنّ الإنسان لربّه لكنود﴾ :

هذه الآية جواب للقسم . فإن الله سبحانه بعد القسم بالخيـول التي تعدو في سبيل الجهـاد أو إبل الحـاج في طريق الحـج قال بـالتأكيـد : **﴿إن الإنسان لربّه لكنود﴾** . الكنود للمذكّر والمؤنّث . الكافر النعمة ، البخيل ، العاصي ، اللوام لربه ، أو الذي يعد المصائب وينسى المـواهب . هذه مـا ذكرها المنجد .

والمراد بالإنسان بعض أفراده ، وقوله : « لربه » متعلق بكنود أي أن الإنسان لكنود لربه . قدم عليه لإفـادة التخصيص والحصر . كما قـالوا إن تقـديم مـا حقـه التـأخـير يفيـد الحصر ، كقـولنـا : **﴿إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِينُ﴾**[1] وهـذا التخصيص والحصر بمعنى الكفـران للنعمـة لـلإنسـان

(١) سورة الفاتحة الآية ٥ .

مخصوص لربه وليس لغيره . وهو كذلك ، فإن شكر المنعم على ما يقوله الحكماء من الأمور الفطرية التي فطر الناس عليها ، يشترك فيها العالم والجاهل والفقير والغني والمدني والبدوي . وإن من يرى لنفسه نعمة من غيره فيشكره لا محالة . نفرض أن طبيباً أجرى عملية في عين أحد فأنجاه من العمى ، فلا يتصور أن يكون هذا الإنسان غير شاكر له هذه العملية ، إلا إذا حصل التغيير في فطرته وخرج عن الفطرة الآدمية . وبالانتباه إلى هذا المعنى نصدق ما قالته الآية الشريفة ﴿**إن الإنسان لربه لكنود**﴾ فإنه حينما نرى أنفسنا أننا نشكر كل إنسان عمل لنا عملاً واحداً وأعطانا نعمة واحدة ، نعلم بأننا بالنسبة إلى ربّنا كفار وشديدو الكفران . لأن الله تعالى هو الذي أعطانا من النعم العظيمة الجليلة من أصل الوجود وتوابعه وكمالاته ما لا تحصى كلياتها . فكيف بجزئياتها ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾[١] . مع ذلك نحن لا نشكره بمقدار ما نشكر طبيباً عالج مرضاً من أمراضنا ، مع أن وجود الطبيب وعمله وقدرته وعلاجه أيضاً كلها من الله سبحانه ، وليس له من نفسه شيء ، ولكن بمقدار أن الطبيب صار واسطة للفيض . والله سبحانه أجرى هذا الخير بيده . فشكره ، ولكننا لا نشكر الله سبحانه على ما أنعم علينا من نعمه الكثيرة المتواترة التي لا تحصى ، بل نكفر بها ونستعملها في غير ما أعطاها الله لنا لأجله ، وإن هذا معنى الكفر لنعمة الله ، فإن كل نعمة إذا لم تصرف فيها لأجله أعطى الله هذه النعمة فهو كفر بها .

فلنتأمّل في نعم الله التي أعطاها الله لنا لنعلم صدق هذه الآية ﴿**إنّ الإنسان لربّه لكنود**﴾ . قال الحسن : لكنود أي لوّام لربه ، يذكر

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٤ .

المصيبات وينسى النعم . وقال أبو عبيدة : قليل الخير ، الكنود من الأرض التي لا تنبت شيئاً ، وكأنه مقلوب النكد ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾(1) . وفي المجمع عن النبيّ قال : أتدرون من الكنود ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : الكنود الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده . ولعل هذه الرواية مبينة لموارد الكفران ومصاديقه . وقال القاشاني : لكفور بربه باحتجابه بنعمه عنه ، ووقوفه معها ، وعدم استعماله لها في ما ينبغي ليتوصل بها إليه . وهذا معنى عرفاني جميل . فإن الوقوف على النعمة والغفلة عن المنعم من دناءة النفس .وفي التأويلات النجمية : لكنود بنعمة الوجود والصفات والأسماء لادعائها لنفسه للاستغلال والاستبداد . وهذا المعنى أرقى وأجمل من الأول .

﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ :

ثم إن الله سبحانه بيّن بالتأكيد الشديد أن الإنسان على كنوده وكفرانه لشهيد . نقل عن بعض المفسرين أنه قال : إن هذه الآية ناظرة إلى يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(2) وهذا بعيد ، لأن الآيات التي قبلها وكذلك الآيات التي بعدها ناظرة إلى الأمور الدنيوية ، ومقتضى وحدة السياق أن تكون هذه الآية أيضاً ناظرة إلى الدنيا . فالمعنى أن الإنسان في هذه الدنيا يشهد على أنه كنود كفور . هذه الشهادة من الإنسان على نفسه تتصور على وجهين :

الأول : شهادة الأعمال والسيرة عليه ، وأنها أصدق شاهد على الإنسان . حيث إنه يصرف النعم الإلهية في غير مصرفها مما يرضي الله

---

(1) سورة الأعراف آية ٥٨ . (2) سورة النور آية ٢٤ .

تعالى . بل يصرفه في ما يسخطه ، وهذه الشهادة العملية بأن الإنسان كفور .

الثاني : إن الإنسان إذا ارتكب سوءاً فإنه بحكم الوجدان والضمير وبإلهام فطري يعلم أنه عمل سوءاً ، وإن كان لا يقرّ به لساناً ، وهذا الإلهام من الحجج الإلٓهيّة للإنسان . كما في الرواية أن الله تعالى حجّتين : حجّة ظاهرة وحجّة باطنة ، فالخالق الباري ألهمه بالفطرة الخير والشر **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**[1] والإنسان المسيء مهما أتى بالمعاذير لتبرير عمله ولتبرئة نفسه عند الناس ، فهو في ضميره ووجدانه معترف بإساءته . فإن الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره .

وهذه الحكمة الإلهية قائمة دائماً ، وليس لها تعطيل ، ولا تختص بالقضاء على الإنسان والحكم عليه يوم القيامة ، بل الإنسان محكوم عليه قبل يوم القيامة في محكمة قضاء الوجدان . فكما أنه يؤخذ ويعاقب يوم القيامة بأعماله ، كذلك هو يؤخذ ويعاقب عند نفسه . وهذا العذاب والعقاب ، أي عذاب الضمير والفطرة شديد جداً ، وربما يصل إلى حدّ لا يحتمله صاحبه . وقد شوهد كثير من الجناة أنهم أقرّوا واعترفوا بجناياتهم في المحاكم القضائية ليتخلّصوا من عذاب وجدانهم وفطرتهم ، بعدما لم يعترفوا عليها بالتعذيبات الشديدة . وربما يقدمون على العمل الانتحاري للتخلص من هذا العذاب . ولعله بهذه المناسبة قرن الله سبحانه في القرآن الكريم بين هاتين المحكمتين وقال تعالى : **﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾**[2] فإنه يجمعها محاكمة المجرم ومعاقبته ؛ إحداهما في محكمة النفس اللوامة ، والأخرى في يوم القيامة . فعلى ذلك كل إنسان

---

(١) سورة الشمس آية ٨. (٢) سورة القيامة آية ١ ـ ٢ .

يشهد بفطرته ووجدانه على كفرانه وإن أنكره بلسانه .

﴿وإنّه لحبّ الخير لشديد﴾ :

أي إن الإنسان لحبّه المال والثروة لبخيل . أطلق الخير في هـذه الآية عـلى المال كـما أنه أطلق عليـه في آية الـوصية ﴿إنْ تَـرَكَ خَيْراً . . .﴾[1] . وهكذا في بعض الآيات الأخر ، وهكذا في قوله تعالى نقلاً عن سليمان بن داوود : إني أحببت حبّ الخير ، فأطلق على الخيل ﴿إذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ*فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي»[2]﴾وهذه الإطـلاقـات تشعـر بـأن المـال إذا كـان في خــدمـة الإســلام والمسلمـين والمستضعفين فهو خير كما في الرواية : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

فـالأولى لأرباب المـال والثروة أن يصـرفـوا أمـوالهم في سبيـل الله ، ويستغلوا هذه النعمة الإلهيـة ولا يكفروا بهـا ، ولكنهم لحبهم المال يبخلون ولا ينفقـونه في سبيـل رضى الله ، وذلك لغفلتهم عـما يـراد بهم من المـوت والانتقال من هذا العالم ، وترك كل ما في أيـديهم في هذه الـدنيا والخـروج منها صفر اليـدين . وليس للإنسـان من الأموال في ذلـك الوقت شيء حتى كفنه ، فإنه أيضاً مصاحب لجسمه أيـاماً قليلة ثم يبـلى ويفنى . فما ورد في بعض الروايات من أن المال يخاطب صـاحبه عنـد الموت فيقـول له : ليس لك منّي إلا بمقدار كفن ، أيضاً مبني على المسامحة والمجـاز ؛ وإلا فالحقيقـة أنه يخرج من الدنيا وليس له من المال شيء مـطلقاً . وآنـذاك يندم ولكن لا ينفعه الندم . قـال الله تعالى ﴿يَـا أَيُّها الَّـذِين آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْـوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِمَّـا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ . . .﴾[3] إلى آخر الآيات ، فهذا

(١) سورة البقرة آية ١٨٠ . (٢) سورة ص آية ٣١ ـ ٣٢ . (٣) سورة المنافقون آية ٩ ـ ١١

الإنسان البخيل الشديد أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ؟

﴿أفلا يعلم إذا بعثِرَ ما في القبور﴾ :

عبّر بـ « ما » بدل « من » لكونهم إذ ذاك بمعزل عن مرتبة العقلاء .

﴿وحصل ما في الصدور﴾ :

أي ميّز وأبرز ما فيها من خير أو شرّ ، ومن الأسرار التي يعلمها الله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1] فكيف بالأعمال الظاهرة الجليّة؟ ففي هذا الوقت :

﴿إن ربّهم بهم يومئذٍ لخبير﴾ :

وإن الله يجازيهم على جميع أعمالهم من الخير والشرّ . فالإنسان مع علمه بهذا لماذا يتهاون في الأعمال الخيرية ويبخل في المال ولا يستغله في سبيل الطاعة ورضى الله سبحانه ؟

أقول :

ما ذكرنا في معنى الآية الأخيرة قد ذكره أكثر المفسرين . قال الفيض : إن ربهم بهم يومئذٍ لخبير عليم بما أعلنوا وما أسروا فيجازيهم ، وقال الميبدي : أي عالم ، فيجازيهم على جميع أعمالهم من الخير والشر . وقال الطباطبائي : لخبير : فيجازيهم بما فيها أي في سرائر النفوس .

وخطر ببالي أنه من المحتمل أن الآية الشريفة تريد أن توقظ فطرة أخرى للإنسان من الامور الفطرية ، بعدما مرت الإشارة اليه من شكر المنعم وقضاء الضمير والوجدان الفطريين المشار إليهما في السورة المباركة ،

---

(١) سورة غافر آية ١٩.

وهي أن من الفطريات في البشر التي فطر بها جميع أفراده أيضاً : الحياء من الحضور والمحضر ؛ فالإنسان مهما بلغ من التهتر والتهتك يفرق في ارتكاب القبيح بين الحضور والغياب ، وبين علم صاحب الحضرة وجهله كما هو واضح ، فإذا علم إنسان بأن أحداً يعلم ما يفعله وخبير بما يأتي به من القبيح فإنه يخجل لا محالة . وكلما كان العمل أقبح والعالم والخبير به أعظم وأولى بالنعم تزداد الخجلة . فكأن الآية تشير إلى أن الكنود الذي يصدر من الإنسان بالنسبة إلى ربّه مضافاً إلى أنه مخالف لفطرة شكر المنعم ومحكوم عليه في محكمة الضمير والوجدان ، قبيح أيضاً من جهة أن الله تبارك وتعالى خبير بالأعمال وبما تخفيه الصدور . فكيف لا يحذر هذا الإنسان من عذاب الخجلة التي يتعرض لها يوم القيامة ، وهو في محضر من الله تعالى . ويرى أن الربّ العظيم خبير بجميع أعماله ؟ كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1] أعاذنا الله من أنواع العذاب في الدنيا والآخرة .

* * *

---

(١) سورة السجدة آية ١٢ .

سُورَةُ القَارِعَة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿القَارِعَةُ* مَا القَارِعَةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ* يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَرَاشِ المَبْثُوثِ* وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ* فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ صدق الله العليّ العظيم .

القرع بمعنى الدقّ . ومنه قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : من طلب شيئاً وجدّ وجد ومن قرع باباً ولجّ ولج .ويعلم بقرينة موارد الاستعمال أنه ليس مطلق الدق بل الدق الشديد ، كما توهم ذلك الرواية المذكورة أيضاً . فإن اللجاج في الدق يلازم الشدة غالباً . ومنه القارعة مؤنث القارع : الداهية ، النكبة المهلكة ، يقال قرعتهم قوارع الدهر أي أصابتهم نوازله الشديدة . وقال الله تعالى : **﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾**[1] . وقد تفطّن بعض المفسّرين المعاصرين لنكتة في الآية لا بأس بها،وهي أن الآية ربما تشير إشارة صريحة إلى أنواع القواذف التي اخترعوها لتدمير البلاد وقتل العباد ،ولا سيّما أن التعبير بما

(١) سورة الرعد آية ٣١.

صنعوه قابل الانطباق لما ذكر وعلى أي حال .

القارعة في هذه السورة عبارة عن الداهية العظمى التي لا يمكن إدراكها لأحد ما دام هو في حجاب عالم الطبيعة . كما يدل على ذلك نفس التعبير : ﴿**ما القارعة وما أدراك ما القارعة**﴾ ولا يمكن البيان عنها أيضاً ، كما أنه يستعمل هذا التعبير في مقام لا يتأتّى من الألفاظ بيان المعنى بل لا بدّ من المشاهدة ، كما هو الاستعمال الشائع في عرفنا ، وقد روي حديث عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ،ما مضمونه أن الأمور الدنيوية سماعها أعظم من مشاهدتها ، وهذا بخلاف الأمور الأخروية ؛ فإن مشاهدتها أعظم من سماعها . وهذا في طرفي العذاب والنعيم وحيث أنه لا يمكن بيان تلك الداهية بالألفاظ فقد عرفت بآثارها ولوازمها . وقال تعالى :

﴿**يوم يكون الناس كالفراش المبثوث**﴾ :

الفراش جمع فراشة . والفراشة طائر صغير يتهافت على السراج فيحترق ، كما في المنجد . وهو في أدب الفرس رمز للعشق ومظهر تام للحب والإيثار ، وأجمل موضوع للعشق في كلام الشعراء . فإن الفئات منه تجيء وتتهافت على السراج أو الشمعة فتحترق ، أو تقع على الأرض ولا تقدر على الطيران . ثم تجيء بعدها فئة أخرى إلى مسلخها ، فتطوف حول النار أوّ النور حيارى ، حتى تقع في النار وتفنى في سبيل العشق . ولشعراء الفرس في هذا المجال أشعار لطيفة وجذابة كلطف النسيم في الأسحار وجذبة الكهرباء . وبالعكس من ذلك في كلام العرب فإنهم يرون هذا الحيوان مثالاً للحماقة وعدم التعقل ، وعدم كونه ذا هدف في الحياة .

والمبثوث بمعنى المنتشر والمتفرق . لأن الخلق يومئذ يموج بعضهم في

بعض ؛ فكل فريق منهم ـ لما يراه من أهوال القيامة ـ آخذ في وجه غير وجه صاحبه ، ووجه الشبه كما قيل هو الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة والاضطراب ، وقد أشكل على هذا بعض بأن الفراش لا يعرف بالكثرة ، بحيث يصلح أن يكون مشبهاً به لأهل المحشر . إلا أن يفسر بصغار الجراد ، كما نُقل عن أبي الفتوح والميبدي وغيره وعن بعض القراء ، ونقله المفسر الكبير الطباطبائي عن الفراء . ولعل في أحدهما تصحيف كقوله تعالى : ﴿**يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾[1] وفيه أن الفراش لم يفسّر في اللغات بصغار الجراد وقوله تعالى : ﴿**يخرجون من الأجداث**﴾ الآية، ليس دليلاً على أن الفراش بمعنى الجراد ، وهنا تشبيهان : فوجه التشبيه بالجراد يمكن أن يكون هو الكثرة والاضطراب ، وبالفراش المبثوث اختلاف جهات حركاتهم ؛ فإنهم إذا بعثوا فزعوا فيذهب كل واحد منهم إلى جهة غير جهة الآخر كالفراش ، فإنها إذا طارت لا تتجه إلى جهة واحدة بل تختلف جهاتها . وقيل : الناس خاص بالكفار ، وهم يتهافتون في النار يوم القيامة كتهافت الفراش . ولكن الظاهر أن السورة المباركة مبيّنة لأهوال يوم القيامة من البعث والنشور ، لا الدخول في النار كما لا يخفى .

﴿**وتكون الجبال كالعهن المنفوش**﴾ :

العهن الصوف المصبوغ ذو ألوان مختلفة ، والمنفوش المندوف ، والتشبيه من جهتين : **الأولى**، أن الجبال ذات ألوان مختلفة كما في قوله تعالى : ﴿**وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ**﴾[2] ، **والثانية** أن الجبال كما أنها مثل للصلابة والاستحكام ،

---

(١) سورة القمر آية ٧ . (٢) سورة فاطر آية ٢٧ .

فالصوف المندوف مثل للخفة . فالجبال بصلابتها وألوانها المختلفة تصير كالصوف المصبوغ المندوف المنتشر في الهواء ، فتتبدل الأرض غير الأرض وتصير قاعاً صفصفاً ، فإذا كانت الجبال في تلك الداهية بهذه الحال ، فما حال الإنسان الضعيف ؟

﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ :

موازين : إما جمع ميزان أو جمع موزون ، فإن كانت جمع ميزان فقد قيل كما عن ابن عباس : إنه ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه إلا الأعمال . وابن عباس لم يبين أن الكفتين لماذا ؟ هل يوضع في إحداهما الحسنات وفي ثانيتهما السيئات فتوزن ليعلم أيها أثقل ، أو أن الأعمال حسناتها وسيئاتها توضع في كفة وفي الكفة الأخرى يوضع حجر الوزن مثلاً ؟ وما هو حجر الوزن ؟ ثم إنه على ذلك لا بدّ أن تكون « من » الموصولة للجمع ، وإلا فالظاهر أن لكل إنسان موازين بعدد أعماله أو بعدد أنواع أعماله : من الصلاة والصوم وغيرها .

وهكذا في السيئات من الكذب والسرقة والزنى وغيرها : ثم إذا كان « من » للجمع أيضاً فلا يندفع الإشكال ، لأنّه لا بدّ لكل إنسان من ميزان واحد فتكون الموازين بعدد أفراد الناس في المحشر . ومن هذه الجهة اضطروا إلى رفع إشكال الوزن بتجسم الأعمال ، زعماً منهم أن العمل غير المجسم لا يمكن وزنه . أو بأن الموزون هو صحائف الأعمال . وهذا أيضاً زعم منهم بأن الصحائف شيء كصحيفة الكتاب من القرطاس وغيره تكتب فيه الأعمال ، ولا بدّ لها من وزن فتوضع في كفة الميزان وتوزن .

كل ذلك غفلة عن حقيقة الحال . وأن الميزان ليس معناه ما كان له

لسان وكفتان على ما هو المتعارف في زمان نزول القرآن، بل هـو معنى عام يصدق على كل ما يوزن به الشيء ؛ فيعين به كميته وكيفيته وجهته ووضعه وبقية الأعراض التي لا تلازم الوزن . فنرى اليوم من المـوازين ما ليس لـه لسان ولا كفّتان مما يوزن به كمية الأشياء وكيفيتها ؛ كـدرجة الحـرارة ، أو سرعة السيارة ، أو ضغط الهواء ، وغيرها من الأشياء والآلات الكثيرة غـير قابل للإحصاء جداً . فكل شيء يعـين كيفية أو كميـة أو جهة من جهـات شيء آخر فهو ميزان بالنسبة إليه .

ولذلك ورد في زيارة أمير المؤمنين عليه السـلام : السلام عـلى ميزان الأعمال . لأن عمله عليه السلام يُعين وزن أعمال سائـر الناس إذا قيست به من جهة الخلوص وغيره ، هذا مضافاً إلى أن كيفية عالم الآخرة محجوبـة عنّا ولسنا قـادرين لإدراك أوضاع الآخـرة ما دمنـا في هذا العـالم محجوبـين بحجب الطبيعة ، فنحن بالنسبة إلى عالم الآخرة كـأعمى بالنسبـة إلى ما لا يـدرك إلا بحاسـة البصر كالألـوان مثلاً ؛ فـإن الأعمى لا يمكن أن يـدرك كيفية وجود اللون ، وأنه وجود عرضي قائم بـالغير ، اللهم إلاّ أن يـراه في النوم مثلاً .

وبـالجملة : مـا لم تخـرق حجب الـطبيعـة لا يمكن إدراك أحـوال الآخرة . والخرق هـذا إما يحصـل في هذا العـالم للأوليـاء والأنبياء لصفـاء نفـوسهم وارتقائهم عن هـذا الحضيض ، أو يحصل بـالموت والانتقال التام من هـذه النشأة إلى النشـأة الآخرة . وعـلى أي حال فمن ثقلت مـوازينه ، أي كان لأعماله عند الله وزن وقدر ومنزلة ؛

﴿فهو في عيشة راضية﴾ :

هذا من قبيل الإسناد إلى السبب ، فإن العيش سبب لرضى صاحبه أو المعنى : في عيشة ذات رضى ، كلابن وتامر ، وقيل راض صاحبها كيوم صائم وليل قائم .

﴿وأما من خفّت موازينه فأمّه هاوية﴾ :

بأن لم تكن لها حسنة أو كانت ، ولكن سيئاته أكثر فرجحت سيئاته على حسناته ، فأمه هاوية ، أي مسكنه ومأواه النار: سميت بالأم لأنّه يأوي إليها كما يأوي الولد إلى أمه . وفيه تهكم به ؛ أو لأن الأم هي الأصل للولد ، والكافر أصله وطينته من النار ، وكل شيء يرجع إلى أصله . قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ﴾[1] وعن قتادة : فأمّ رأسه هاوية في جهنم لأنّه يطرح فيها منكوساً . قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ. . .﴾[2] نُقل عن بعض علماء النجف أنه رأى في مكاشفة له موت أحد أنه يرفع إلى السماء منكوساً .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ :

تعظيم وتوبيخ . والهاء في ماهية للوقف والاستراحة والأصل ما هي

﴿نار حامية﴾ :

متناهية في الحرّ ، لأن النار في حدّ نفسها حارة ، فالصفة تدل على بلوغها النهاية في الحرّ أعاذنا الله منها ـ .

وعن أنس بن مالك قال : إن ملكاً من ملائكة الله عزّ وجلّ يوكل

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ . (٢) سورة السجدة آية ١٢ .

يوم القيامة بميزان ابن آدم ، فيُجاء به حتى يوقف بين كفتي الميزان فيوزن عمله ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع جميع الخلق باسم الرجل : ألا سعُد فلان سعادة لا شقاوة بعدها . وإن خفّ ميزانه نادى الملك : ألا شقي فلان شقاوة لا سعادة بعدها .

وفي الخبر الصحيح كما في الإرشاد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : إن الخلائق إذا عاينوا القيامة ودقة الحساب وأليم العذاب فإن الأب يومئذ يتعلق بولده فيقول : إي بني . . أيّ أب كنت لك في دار الدنيا ؟ ألم أر بك وأغذّك وأطعمك من كدّي ، وأكسك وأعلّمك الحكم والآداب وأدرّسك آيات الكتاب ، وأزوجك كريمة من قومي ، وأنفقت عليك وعلى زوجتك في حياتي ، وآثرتك على نفسي بما لي بعد وفاتي ؟ فيقول : صدقت في ما قلت يا أبي ، فما حاجتك ؟ فيقول : يا بني إن ميزاني قد خفّ ورجحت سيئاتي على حسناتي ، وقالت الملائكة : تحتاج كفة حسناتك إلى حسنة واحدة حتى ترجح بها ، وإني أريد أن تهب لي حسنة واحدة أثقل بها ميزاني في هذا اليوم العظيم خطره ؟! . فيقول الولد : لا والله ، لا يا أبي ، إني أخاف مما خفته ، ولا أطيق أن أعطيك من حسناتي شيئاً . قال : فيذهب عنه الأب باكياً دماً على ما كان أسدى إليه في دار الدنيا .

وكذلك قيل : الأم تلقى ولدها في ذلك اليوم فتقول : يا بني ألم يكن بطني لك وعاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : ألم يكن ثديي لك سقاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول له : إن ذنوبي أثقلتني فأريد أن تحمل عنّي ذنباً واحداً ؟ فيقول : إليك عني يا أمّاه فإني مشغول بنفسي . فترجع عنه باكية . وذلك تأويل قوله تعالى : ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا

يَتَسَاءَلُونَ﴾[1] .

قال : ويتعلق الزوج بزوجته فيقول : يا فلانة : أي زوج كنت لك في الدنيا ؟ فتثني عليه خيراً فتقول : نِعمَ الزوج كنت لي ، فيقول لها : أطلب منك حسنة واحدة لعلّي أنجو بها مما تريني من دقة الحساب وخفّة الميزان والجواز على الصراط ، فتقول له : لا والله إني لا أطيق ذلك ، وإني لأخاف مثلما تخاف أنت . فيذهب عنها بقلب حزين حيران . وذلك تأويل قوله تعالى **﴿وَإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حَمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾**[2] . يعني أن النفس المثقلة في الذنوب تسأل أهلها وقرابتها أن يحملوا عنها شيئاً من أحمالها وذنوبها فإنهم لا يحملونه ، بل يكون حالهم يوم القيامة نفسي نفسي . كما قال تعالى : **﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾**[3] .

تنبيه :

يستفاد من بعض الأخبار أن الميزان لا ينصب للأنبياء والأولياء ولا للكفار ، وإنما ينصب للذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام في موعظته لشيعته وأصحابه : « اعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ، ولا تنشر لهم الدواوين ، وإنما يحشرون إلى جهنّم زمراً ، وإنما تنصب الموازين وتنشر الدواوين لأهل الإسلام . فاتّقوا الله عباد الله . . . . إلى آخر ما قال عليه السلام .

* * *

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٠١ . (٢) سورة فاطر آية ١٨ .
(٣) سورة عبس آية ٣٤ ـ ٣٧ .

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ* كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ* ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمْ﴾ صدق الله العليّ العظيم .

ذكر المفسّرون في شأن نزول هذه السورة وجوهاً ثلاثة :

الأول : أنها نزلت في شأن قوم من اليهود الذين كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان .

الثاني : أنها نزلت في شأن قبيلة من الأنصار ، الذين كانوا يتفاخرون .

والثالث : وعليه أكثر المفسّرين ، أنّها نزلت في قبيلتين من قريش هما : بنو عبد مناف بن قصي وبنو سهم بن عمر ، فإنهما تفاخرتا، وكان العرب في الجاهلية يرون السيادة والشرف لمن يكون أكثر عدداً بالنسب ، فكانوا يقولون : فلان أكثر عدداً وأعظم نفراً من فلان ، فتفاخرت هاتان القبيلتان بالكثرة فتعادّتا أيّهما أكثر ، فكثّرهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم

إنما أهلكنا البغي في الجاهلية ، فعُدّوا موتانا وموتاكم ، فذهبوا إلى المقابر وعدّوا الموتى فكثّرهم بنو سهم بثلاثة قبور فتطاول بنو سهم وتفاخروا على بني عبد مناف فنزلت السورة المباركة .

مسكين ابن آدم كيف يشغل قلبه بهذه الأمور الواهية والوهمية ، ويشتغل عن الواقعيات والحقيقيات ، وهو كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام لرجل يشكو إليه حاله : « مسكين ابن آدم ، له في كل يوم ثلاث مصائب لا يعتبر بواحدة منهن ، ولو اعتبر لهانت عليه المصائب وأمر الدنيا ، فأما المصيبة الأولى فاليوم الذي ينفق من عمره ، قال : وإن ناله نقصان في ماله اغتم به ؛ والدرهم يخلف عنه، والعمر لا يرده شيء . والثانية أنه يستوفي رزقه ، فإن كان حلالاً حوسب عليه ، وإن كان حراماً عوقب . قال : والثالثة أعظم من ذلك ، قيل وما هي ؟ قال : ما من يوم يُمسي إلا وقد دنا من الآخرة مرحلة لا يدري على الجنة أم على النار .

التفسير :

لها يلهو لهواً الرجل : لعب . لهابه : أُولِعَ به . أنست به وأعجبها . ألهاه اللعب عن كذا: شغله. اللهو : ما لهوت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما . والتكاثر من الكثرة . تكاثر القوم : تغالبوا في الكثرة . ومعناه أن يقول هؤلاء نحن أكثر ، وهؤلاء نحن أكثر . والمعنى شغلكم التغالب في الكثرة والتفاخر بها . وحذف الملهى عنه ، أي الذي أُلهي عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين ، ويمكن أن يكون الحذف للتعظيم ، كما أنه يمكن أن يكون للمبالغة . أما التعظيم : فلأن الحذف كالتنكير قد يُجعل ذريعة إلى التعظيم لاشتراكهما في الإبهام ، وأما المبالغة فلإمكان أن تذهب النفس كل مذهب فيدخل فيها جميع ما يحتمله المقام ، مثل : ألهاكم التكاثر عن ذكر

الله وعن الواجبات وعن المندوبات ، وعما يتعلق بالقلب كالعلم والتفكر والاعتبار ، أو بالجوارح كأنواع الطاعات وعما يتعلق بمستقبله من الموت وما بعده .

كما في دعاء الصحيفة للإمام زين العابدين عليه السلام : « ارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري ، وامحى من المخلوقين ذكري ، وكنت في المنسيين كمن قد نُسي ، وارحمني عند تغير صورتي وحالي ، إذا بلي جسمي ، وتفرقت أعضائي ، وتقطعت أوصالي ، يا غفلتي عما يراد بي » .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « إن امرؤ ضَيَّعَ من عمره ساعة في غير ما خلق له لجدير أن يطول عليها حسرته يوم القيامة » .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اعملوا في الصحة قبل السقم ، وفي الشباب قبل الهرم ، وفي الفراغ قبل الشغل ، وفي الحياة قبل الموت . وقد نزل جبرائيل عليه السلام إليّ وقال لي : يا محمد ، ربّك يقرئك السلام ويقول لك : كل ساعة تذكرني فيها فهي لك عندي مدّخرة ، وكل ساعة لا تذكرني فيها فهي منك ضائعة» .

وقال مولانا ومولى المتقين أمير المؤمنين عليه السلام : في كتابه لعثمان ابن حنيف : «فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات ، كالبهيمة المربوطة همها علفها ، والمرسلة شغلها تقممها[1] ، تكترش من أعلافها ، وتلهو عما يراد بها» .

والألف واللام في التكاثر للعهد وبقرينة المقام ، والآيات التي بعدها وهي آيات تحديد وبقرينة شأن نزول السورة المباركة الذي ذكرناه ، وبقرينة

---

(١) تقمم ما على المائدة : أكله ولم يترك منه شيئاً .

لفظة ألهاكم التي هي في مقام التوبيخ . يتبين أن العهد هو العهد المذموم ، وهو التكاثر في الأمور الدنيوية الدنية الفانية ، ومورد النزول وإن كان في خصوص التكاثر في النسب ولكن نستطيع أن نفهم من عموم الآية أن التكاثر في جميع الأمور الدنيوية ، من المال والجاه ، وكل شيء من الدنيا مذموم ، فعلى هذا يكون للتكاثر معنيان :

الأول : التكاثر في النسب : ويدل على ذلك قول عليّ عليه السلام عند قراءته ألهاكم التكاثر : « يا له مراماً ما أبعده ، وزوراً ما أغفله ، وخطراً ما أفظعه ، إلى أن قال : أفبمصارع آبائهم يفتخرون أم بعديد الهلكى يتكاثرون ، يرتجعون منهم أجساداً خوت ، وحركات سكنت ولئن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ، ولئن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزّة » ! .

والثاني : وهو المعنى العام ، أي التكاثر في جميع الأمور المذمومة من الدنيا ، ويدل على ذلك ما عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كما في الصافي عن روضة الواعظين عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنه قال : إنه قرأ ألهاكم التكاثر فقال : تكاثر الأموال جمعها من غير حقها ، ومنعها من حقها شدها في الأوعية .

﴿حتى زرتم المقابر﴾ :

حتى دخلتم قبوركم . وفي المجمع عنه عليه السلام أنه تلا هذه السورة فقال : يقول ابن آدم مالي مالي، ومالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأمضيت .

وفي هذه الآية المباركة احتمالات :

الاحتمال الأول : أن يكون المراد من الزيارة معناها الظاهر ، وهو زيارة القبور من أجل التفاخر والتكاثر بالأموات ، كما ذكرناه في شأن نزول السورة .

الاحتمال الثاني : ما احتمله بعض المفسرين بأن تكون الزيارة كناية عن التذكر وذكر أسمائهم في مقام التفاخر ، فيكون لسان الآية حينئذ لسان الاستهزاء والسخرية لهم ، بأن التفاخر بكثرة القبيلة بلغ إلى حدّ ذكرتم الموتى أيضاً في عداد قبيلتكم ، واستوعبتم عددهم ، وصرتم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات ، فعبّر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة القبور ، أي جعلت كناية تهكماً واستهزاء ، وإنما كان تهكّماً لأن زيارة القبور شرعت لتذكر الموتى ورفض حبّ الدنيا وترك المباهاة والتفاخر ، وهؤلاء عكسوا حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد القسوة والاستغراق في حبّ الدنيا والتفاخر في الكثرة ، فعلى هذا الوجه تدخل الغاية تحت المُغيّا ، .

وهذا كما نرى اليوم أيضاً شيئاً منه في مجتمعنا ، فإن التفاخر في ما يتعلق بالميت وشؤون تجهيزه ومجالس ترحيمه وغيرها شائع فينا ، وقلما تخلو مجالس الفاتحة والترحيم أو تشييع جنازة الميت أو محل دفنه من التفاخر . والموت الذي ينبغي أن يكون سبباً للتنبه عن الغفلة والتجافي عن دار الغرور صار سبباً للانهماك في الدنيا والغفلة عن الموت . وهكذا في الخطابات والكلمات التي تلقى في مجالس ذكره ؛ فعوضاً من أن يذكر موته وتركه للدنيا وفقره الذي هو فيه اليوم ، يذكر مناصبه ومشاغله ، وذلك لا ليتّعظ به الحاضرون والسامعون ، وأنه كيف صار مع هذه المناصب والأموال مثلاً رهين تراب لا يملك شيئاً من ذلك ؛ بل يكون ذكر المناصب للميت ليفتخر به الباقون من أولاده وورّاثه . وهو كما قال أمير المؤمنين عليه

السلام «ولئن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ، ولئن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزّة » . صدق وليّ الله .

الاحتمال الثالث : في معنى الآية أن يكون المراد من زيارة القبور الموت والحمل إلى المقابر ، أو الدخول في القبور . فيكون المعنى ألهاكم التكاثر الى أن متّم وقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا ، معرضين عما يهمكم من السعي لأخراكم ، كما يستفاد ذلك من الرواية التي ذكرناها عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنه قرأ ألهاكم التكاثر فقال : «تكاثر الأموال جمعها من غير حقها ، ومنعها من حقها شدها في الأوعية» . حتى زرتم المقابر: حتى دخلتم قبوركم . فعلى هذا الاحتمال يحتمل التكاثر معنى التكاثر بالقبيلة طبقاً لشأن النزول ، ويحتمل التفاخر بكثرة الجاه والمال والمقام وغير ذلك ، وبمعنى السعي في تكثير المال والجاه والمقام . كما أن إطلاق الآية يشمل جميع ذلك . فإن هذا من أسلوب القرآن الكريم . وإن الآية وإن كانت في مورد خاص غالباً ، ولكن لفظها عام ومطلق ، لتكون قابلة الانطباق على الموارد المتشابهة أيضاً ، ولعل هذه من إحدى الجهات الموجبة لكون القرآن حيّاً لكل عصر وزمان .

وقد خطر ببالي معنى رابع للآية ، ما رأيته في تفسير ، وهو أن يكون المراد من زيارة القبور معناه الظاهر كما ذكرنا ؛ ولكن لا لأجل المفاخرة والمكاثرة ، بل لأجل التنبه والاعتبار . وأن الاعتبارات الدنيوية كلها في سبيل الفناء والزوال ولا ينبغي أن يتعلق الإنسان بها ، كما ورد في الوظائف الدينية ذلك ، وذُكر في الروايات ثوابٌ جزيلٌ لزيارة القبور ، وذكر العلماء أنه ينبغي أن يزور الإنسان المقابر عند الفرح الشديد للدنيا ، وهكذا عند الحزن الشديد ، فإنها تخفف الفرح الشديد الذي هو مذموم كما قال الله

تعالى : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾[1] لأنّه يرى أن الفرحين مرهونون بأعمالهم وهم تحت التراب قد بليت أجسادهم ، واستبدلوا بالقصور المشيدة الصخور والاحجار ، وهكذا تخفف الحزن الشديد لأنه يرى أن كل ما في الدنيا يزول لا محالة . ولا يبقى ، والحزن الذي يزول يسهل تحمُّله ، ولذا ورد في الرواية أنه : أكثروا من ذكر هادم اللذات فإنكم إن كنتم في ضيق وسّعه عليكم ، فرضيتم به فأُثبتم ، وإن كنتم في غنى بغّضه إليكم فجدتم فأُجرتم .

والحاصل أن الآية الشريفة ترشد الإنسان إلى التخلص من قيد التكاثر بواسطة زيارة المقابر ، وتعلّم طريق العلاج لهذا الداء .

وفي الوسائل عن المجالس بإسناده عن أبي بصير قال : قال لي الصادق عليه السلام : « أما تحزن ؟ أما تهتمّ؟ أما تألم؟ قلت بلى والله . قال : فإذا كان ذلك منك فاذكر الموت ووحدتك في قبرك ، وسيلان عينيك على خدّيك ، وتقطع أوصالك ، وأكل الدود من لحمك ، وبلاك وانقطاعك عن الدنيا ، فإن ذلك يحثّك على العمل ، ويردعك عن كثير من الحرص على الدنيا» . وكان الأئمة عليهم السلام ديدنهم ذلك ، فيعالجون الناس بذلك وهم أطباء النفوس ، فكانوا عليهم السلام يذكّرون الناس بالموت وأهواله وآثاره عندما يرون من الناس الغفلة والانهماك في الدنيا .

كما روي عن أبي الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام : أنّه سعي به إلى المتوكل وقيل له : إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، فوجّه إليه ليلاً من الأتراك وغيرهم من دخل عليه منزله على

---

(١) سورة القصص الآية ٧٦.

غفلة ممن في داره ، فوجد في بيت وحده مغلق عليه ، وعليه مدرعة من شعر ، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وعلى رأسه ملحفة من الصوف ، متوجهاً الى ربّه يترنّم بآيات من القرآن بالوعد والوعيد ، فأخذ على ما وجد عليه ، وحمل إلى المتوكل في جوف الليل ، فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفي يده كأس ، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه ، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه ، ولا حيلةً يحتال عليه بها ، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده فقال : يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط ، فأعفني منه . فأعفاه . وقال أنشدني شعراً أستحسنه . فقال : إني لقليل الرواية في الشعر فقال : لا بدّ أن تنشدني فأنشده :

باتوا على قللِ الأجبالِ تحرسُهم	غُلْبُ الرجالِ فلم تنفعْهُمُ القللُ
واستُنْزِلوا بعد عزٍّ عن معاقِلِهم	إلى مقابرهم يا بئس ما نزلوا
ناداهمُ صارِخٌ من بعدِ ما قُبِرُوا	أين الأَسرَّةُ والتيجانُ والحلل
أين الوجوه التي كانت منعَّمة	من دونها تُضرَب الأستارُ والكلل
فأفصحَ القبرُ عنهم حين سَاءَلَهم	تلكَ الوجوهُ عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادّخروا	فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة	وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

قال : فأشفق من حضر على عليّ ، وظنّوا أن بادرة تبدر منه إليه . قال : والله لقد بكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بلّت دموعه لحيته ، وبكى من حضره ، ثم أمر برفع الشراب ، ثم قال له : يا أبا الحسن أعليك دين ؟ قال : نعم ، أربعة آلاف دينار . فأمر بدفعها ورده إلى منزله من

ساعته مكرماً .

فصدق الله العلي العظيم حيث قال : ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ .

﴿كلّا سوف تعلمون﴾ :

كلّا : كلمة للردع والزجر غالباً ، ولها معنى التنبيه والتحقيق أيضاً ، فيمكن أن يكون المراد في المقام كل واحد من المعاني ، فإن كانت بمعنى الردع والزجر فالمعنى أنه ليس الأمر كما تتوهمون من أن الفضل والسعادة بكثرة الأفراد والأهل والعشيرة ، أو أن الإنسان ينبغي له أن يتكاثر بالمال والجاه وسائر الشؤون الدنيوية ، على كلا معنيي التكاثر اللذين ذكرناهما .

وإذا كانت بمعنى التنبيه أو التحقيق فيستقيم المعنى أيضاً في المقام ، هذا بخلاف بعض المقامات في القرآن الذي يطلع عليه المتتبع ، بأن جميع المعاني لـ « كلا » لا يستقيم فيه ، وإن تكلف المفسرون جعلها بمعنى الردع مثلاً ، ولكن الذوق السليم يدفعه . فمثلاً في سورة المدثر قال الله سبحانه ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً إلى قوله تعالى وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرْ* كَلَّا وَالْقَمَرِ* وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾[1] فكلمة «كلّا» في هذه الآية بمعنى الردع والزجر لا تستقيم ، حتى أن المفسر الكبير الطباطبائي رحمه الله نقل معنى الردع والإنكار عن الكشاف وقال : إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى ، لأنهم لا يتذكرون ، أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيراً . مع أن « إحدى الكبر» بعد كلمة « كلا » ، ولذلك قال الطباطبائي : فعلى الأول إنكار لما تقدم ، وعلى

---

(١) سورة المدثر الآيات ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ .

الثاني ردع لما سيأتي . ثم قال : وهناك وجه آخر سيوافيك ، وهو أنه قال : ولا يبعد أن تكون « كـلّا » ردعاً لقوله في القرآن : ﴿**إنْ هُوَ إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إنْ هَذَا إلاَّ قَوْلُ البَشَرِ**﴾[1] . ثم وقع قدّس سرّه في مشكلة ضمير « إنها » ؛ لأنه إذا كانت « كـلا » ردعاً لقول الوليد في القرآن ، فلا بدّ أن يقول : إنه لإحدى الكبر ، فقال قدّس سرّه : إن تأنيث الضمير بما أن القرآن آيات ، أو من باب مطابقة اسم إن لخبرها . وكل ذلك كما ترى تكلف في المعنى ولا موجب لذلك إذا كان لها معنى آخر مناسب للمقام وهو التنبيه كما في المنجد ، أو التحقيق كما في القاموس ، وعلى أي حال يستقيم معنى « كـلّا » في المقام بجميع المعاني . وقد جعلها أكثر المفسرين بمعنى الردع فالمعنى : الردع عن التكاثر بالأنساب أو المال أو غيرهما كما ذكرنا ، وفي هذه الآية أيضاً لم يذكر متعلق العلم لتعظيم المطلب ، وليذهب ذهن المخاطب كل مذهب ، وأنكم سوف تعلمون كيف غفلتم ، أو تعلمون أنكم أفنيتم رأس المال وهو العمر والحياة في الأمور الدنيّة التي لا تساوي شيئاً ، أو أنكم سوف تعلمون أن ثمرة هذه الغفلة ونتيجتها ماذا ؛ وغير ذلك من الاحتمالات في متعلق العلم . كما أنه تعالى لم يبين وقت العلم وأنه هل هو في الساعة الأخيرة من عمره أو في حال الاحتضار الذي تظهر فيه علائم السعادة والشقاوة ، أو أنه اليوم الذي يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى ، أو أنه يوم الحسرة : ﴿**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ**﴾[2] ، ﴿**يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ**﴾[3] .

قال حسن البصري : « لا يغرنك كثرة من ترى حولك ؛ فإنك تموت

---

(١) سورة المدّثر الآيتان ٢٤ ـ ٢٥ . (٢) سورة مريم الآية ٣٩ .

(٣) سورة الجاثية الآية ٢٧ .

وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك » .

﴿ثم كلّا سوف تعلمون﴾ :

تكرار الآية لأجل التأكيد في التحذير والإنذار ، والعطف « بثم » للدلالة على أن هذا التخويف أشدّ درجة من الأول ، فحيث أن « ثم » للتراخي والبعد الزماني ، فكأن في الآية تنزيلاً لبُعد المرتبة من الأولى منزلة بُعد الزمان وقد جُرد « ثم » من المعنى الزماني واستعمل في مجرد التدرج في درج الارتقاء ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ، ثم أقول لك لا تفعل كذا . ويمكن أن يقال إن الآيتين مشتملتان بتحديدين متغايرين ، فالأولى عند الموت وفي وقت ما يبشر به المحتضر بالجنة أو النار ، أو في القبر عند مساءلة منكر ونكير ، وعندما يرى القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار . والآية الثانية للتحديد عند البعث والنشر ، والأحوال الموجودة فيه ، وعند تطاير الكتب إذا قيل له : ﴿إقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[1] فعلى هذا ليس في الآية تكرار للتغاير بينهما بتغاير زماني العلمين ، وربما يستفاد من « ثم » التباعد بين الموت والبعث ، أو بين القبور والنشور كما هو كذلك .

﴿كلّا لو تعلمون علم اليقين﴾ :

كلّا : تكرار للتنبيه كما ذكرنا في معناه .

﴿لو تعلمون علم اليقين﴾ : ذكر أكثر المفسرين أن جواب لو محذوف للتهويل ، فإنه إذا حذف الجواب يذهب ذهن السامع كل مذهب ، كما أنه لم يذكر متعلق العلم أيضاً وأن المعلوم ما هو ، والمعنى :

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٤.

إنكم لـو تعلمون مـاذا تفعلون وما جـزاء أعمالكم ونتيجـة أفعـالكم ، لـو تعلمـون هذا علماً يقينيـاً وقطعيـاً لما ألهـاكم التكاثـر ، ولما أغفلتكم الأمـور الـدنيويـة عـما يـراد بكم ، ويشغلكم مـا تعلمـون عن التبـاهي والتفـاخـر بـالكثرة . وهـذا النوع من الحـذف موجـود ومتداول عـلى جميع الألسنـة ؛ وذلك لبيان أهمية المعنى المقصود . فمثلاً : إذا رأى أحد قتلاً فجيعاً أو ظلماً فاحشاً وأراد أن ينقل ما شاهده من الفجـائع والجنـايات لغيـره يقول : لـو شاهدت مـا شاهـدته ورأيت بعينـك ما رأينـاه ، فيترك الجـزاء والجواب ، وهذا البيان أوقع في النفس بكثير مما لو قـال لو رأيت قتـل فلان أو ضـرب فلان لاغتممت وبكيت مثلاً ، فهكذا الآية الشريفة .

﴿لترون الجحيم﴾ :

ذكـر المفسّـرون أن الـلام في لتـرون للقسم ، والمعنى أقسم لتـرون الجحيم . وقالوا إنـه لا يجوز أن يكـون قولـه لترون الجحيم جـواب « لو » الامتناعية ، لأن الرؤية محققة الوقـوع وجوابهـا لا يكون كـذلك ، لأنـه لو كانت رؤية الجحيم جواباً لـ « لو » لكان المعنى : إنكم حيث كنتم جاهلين فلا ترون الجحيم . وهذا غير صحيح ؛ لأنّ رؤيتها قطعية لكل أحد . فلا بدّ أن يكون الجواب محذوفاً كما ذكـرنا . ولكن هـذا التفسير مبنيّ عـلى أن يكون المراد من الرؤية رؤية الجحيم يوم القيامة ، كما قال تعـالى ﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾[1] كما قاله المفسر الكبير الطباطبائي (قدّس سرّه) قـال : وهـو غير مُسَلّم ، بـل الظاهـر أن المـراد رؤيتهـا قبـل يـوم القيـامـة رؤيـة البصيرة ، وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه قـوله تعالى : ﴿وَكَذٰلِكَ نُرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰـوَاتِ والأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

---

(١) سورة النازعات الآية ٣٦.

المُوقِنِينَ﴾[1] وهـذه الـرؤيـة القلبيـة قبـل يـوم القيـامـة غـير محققـة لهؤلاء المتلهين ، بل ممتنعة في حقهم لامتناع اليقين عليهم . انتهى .

أقول : ما ذكره قدّس سرّه هو الـظاهر من الآيـة من دون تكلف ، ويؤيده ما ورد في موارد عديدة من أن اليقين من آثاره هو هذا المعنى . منها حـديث زيد حيث قـال للنبيّ صلّى الله عليـه وآلـه وسلّم« : أصبحت عـلى يقـين . فقال صـلّى الله عليه وآلـه وسلّم : وما عـلامـة يقينك؟» قـال مـا مضمـونـه : أرى أهـل النـار في جهنم معـذّبـين وأهـل الجنـة في الجنـان منعمين . . الحديث ـ وقد نقلته بالمعنى لعدم حضور لفـظه ـ وكما قـال عليّ عليـه السلام : في أوصـاف المتقين: فهم والجنـة كمن قد رآهـا وهم فيهـا منعمـون ، وهم والنار كمن قـد رآها وهم فيهـا معـذبـون . وأشـار عليـه السلام إلى ذلك في خطبة أخـرى : عباد الله ، إن من أحب عبـاد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه ، إلى أن قـال : فهو من اليقـين على مثـل ضوء الشمس . إلى آخر الخطبة .

فمن كان من اليقين عـلى مثل ضـوء الشمس لا يخفى عليه شيء من متعلقات يقينه . ومما ذكرنا ظهر أن استشهـاد المفسر الكبير لـلآية الشـريفة **﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾**[2] للقـول بأن جـواب لو محـذوف أيضاً يمكن النظر فيه ، فإن التوجيه الذي ذكره في هذه الآية أي آية **﴿لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم﴾** يأتي في تلك الآية أيضاً . فيمكن أن يقال فيهـا إن من كانت له الرؤية الحقيقية فالجحيم له بارزة ، فيكون معناهـا نفس معنى

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٥. (٢) سورة النازعات الاية ٣٦ .

هذه الآية الشريفة . إلا أن يدعى أن الآية في سياق آيات القيامة وهي ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾[1] ولكن السياق أيضاً غير صريح كما يظهر بالتأمل ، وذلك أولاً لعدم صراحة الطامة الكبرى في القيامة ، فإن التذكر بما سعى يكون قبل القيامة قطعاً كحين الموت ، وثانياً يمكن أن تكون الواو للاستئناف لا للعطف ، بل وحتى إذا كانت الواو للعطف أيضاً فإن الإنسان في ساعة الموت- هي ساعة تذكره لما سعى لشدةيقينه- تبرز له الجحيم ، فتكون الآية على هذا شاهدة لما ذكرنا لا لما ذكروه .

﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ :

إن للعلم طرقاً من الاستدلال والسماع والتواتر والمشاهدة والمعاينة ، ولا ريب أنّ الشهود أفضل طرق العلم ، وهو الذي يطمئن القلب به ؛ فالعلم الحاصل من الشهود أفضل أنواع العلم ، ومرجع بقية العلوم إلى هذا العلم . فالرؤية والشهود نفس اليقين . والله سبحانه عند ما بين أن نتيجة علم اليقين رؤية جهنّم قبل يوم القيامة كما ذكرنا ؛ بيّن أن ذلك يتعقّبه رؤية هي محض اليقين وهذه بمشاهدتها يوم القيامة . ومن الدليل عليه قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ .

فالمراد من علم اليقين المعرفة التامة ، ومن عين اليقين المشاهدة . ثم إن قلنا بأن المراد من الرؤيتين الرؤية يوم القيامة فتكون الأولى الرؤية من مكان بعيد ببعض خواصها وأحوالها كما قال تعالى : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾[2] وتكون الرؤية الثانية الرؤية حين

(١) نفس المصدر السابق الآيتان ٣٤ - ٣٦ .
(٢) سورة الفرقان الآية ١٢ .

دخولها ، وحينئذ إذا كان المخاطبون هم الكفار فالمعنى واضح ، وإن كان الخطاب للعموم فالمعنى أيضاً صحيح لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾(١)

﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ :

ذكر المفسّرون موارد من النعيم كأكل خبز البر وشرب الماء البارد والاستظلال تحت ظل .

ورووا في ذلك روايات . وقال بعض إن النعيم المسؤول عنه ما أنعم الله به على الناس بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كما عن محمد بن كعب ، وقال أبو العالية : عن الإسلام والسنة وكل ذلك ذكراً لموارد النعيم ، ففسره كلٌ على حسب ذوقه ، وفي رواياتنا أيضاً ما يفسّره بما أنعم الله علينا برسوله ثم بأهل بيته ، وفي بعضها إنما يسألكم عما أنتم عليه من الحق ، وفي بعضها كما في الكافي عن أبي عبد الله أن الله عزّ وجلّ أكرم وأجلّ أن يطعم طعاماً فيسوغكموه ثم يسألكم عنه ، إنما يسألكم عما أنعم عليكم بمحمد وآل محمد . وفي بعضها ما ينافي ما ذكروه من الماء البارد والأكل الطيب ؛ فقد روى العياشي عن الصادق عليه السلام أنه سأله أبو حنيفة عن هذه الآية فقال له : ما النعيم عندك يا نعمان ؟ قال: القوت من الطعام والماء البارد . فقال عليه السلام : لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه . فقال : فما النعيم جعلت فداك ؟ قال : نحن أهل البيت ، النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد ، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين ، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء ، وبنا هداهم الله

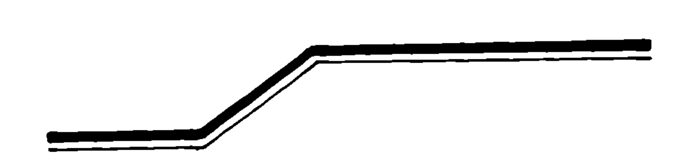
---

(١) سورة مريم الآية ٧١.

للإسلام ، وهو النعمة التي لا تنقطع . والله سائلهم عن حقّ النعيم الـذي أنعم به عليهم وهو النبي وعترته . وفي رواية أنه قال له : بلغني أنك تفسر النعيم في هذه الآية بالطعام الطيب والماء البارد في اليوم الصائف ، قـال : نعم . قال : لو دعاك رجل وأطعمك طعاماً طيباً وسقاك ماء بارداً ثم امتنّ عليـك بـه ، إلى م كنت تنسبـه ؟ قـال : إلى البخـل . قـال أفتُبخـل الله تعالى ؟ قال : فما هو ؟ قال : « حبّنا أهل البيت ! . . . » .

وفي العيـون عن الرضـا عليـه السـلام قـال : ليس في الـدنيـا نعيم حقيقي . فقـال له بعض الفقهـاء ممن حضـره : فيقـول الله تعـالى : ﴿**ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النعيم**﴾ فغضب وقال : إن الله عز وجل لا يسـأل عباده عما تفضل عليهم به ولا يمنّ بذلك عليهم ، والامتنان بالإنعام مستقبح من المخلوقـين فكيف يضاف إلى الخـالق عزّ وجـلّ مـا لا يـرضى المخلوقـون ؟ ولكن النعيم حبّنـا أهل البيت ومـوالاتنـا ، يسـأل الله عنـه بعـد التـوحيـد والنبـوة . لأن العبد إذا وفى بـذلك أداه إلى نعيم الجنـة الـذي لا يـزول . وللعلامة الطباطبـائي في هذه الآيـة كلام في مقـام الجمع بـين الأخبار فمن أراد فليراجع تفسير الميزان .

* * *



سُورَةُ العَصْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ* إنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ* وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بالصَّبْرِ* ﴾

صدق الله العليّ العظيم .

قال المفسّر الكبير الطباطبائي رحمه الله : تلخص السورة جميع المعارف القرآنية ، وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان . وقوله هذا يشبه ما ذكره الشافعي ؛ أنها سورة لو لم ينزل إلى الناس إلاّ هي لكفتهم .

ثم إن المفسرين ذكروا للعصر معاني كثيرة منها « صلاة العصر » « ووقت صلاة العصر » « والليل والنهار » « ومطلق العصر والزمان » « وعصر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم » « وعصر ظهور الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه » .

أما صلاة العصر فلأنها هي الصلاة الوسطى التي هي أفضل الفرائض اليومية ، كما يستفاد ذلك من قوله تعالى **﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوات**

﴿وَالصَّلاةِ الوُسْطَىٰ﴾[1] فإنه من باب ذكر الخاص بعد العام ، وهو يدل على التأكيد والأهمية ، وربما يؤيد ذلك بما قيل كما في بعض التفاسير : من أن التكليف في أداء صلاة العصر أشق منه في غيرها ، لتهافت الناس في تجارتهم ومكاسبهم وانشغالهم بمعايشهم آخر النهار لبرد الهواء حنيئذ، لا سيما في أرض الحجاز؟ ، فالكسب الحاصل في ذلك الوقت مع السهو عن الصلاة في حكم الخسران وسبب الخذلان . ولكن تفسيراً كهذا ينشأ من قصر النظر إلى شعاع محدود للآيات والأحكام ، والغفلة عن أن القرآن لم ينزل لعصر واحد ولا قطر واحد ، وإنما هو للعالمين في جميع الأعصار والقرون ، ولجميع الأمصار والمدن . ففي مثل هذا الزمان الذي يكون العصر وقت فراغ الناس عن مكاسبهم وتجارتهم ، وربما يعطلون التجارات في كثير من البلدان ، فهذا التفسير ساقط ، فالأولى أن ننظر في الآيات بنظرة عامة شاملة وسيعة كما يريده القرآن ، قال تعالى : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلعالَمِينَ﴾**[2] **﴿وَمَا هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ﴾**[3] .

وأمّا وقت صلاة العصر ، فوقوعه مَقسماً لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبي بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس ، كما قال الطباطبائي قدّس سرّه . وأما الليل والنهار فلما فيهما من آيات الله ، ومنها اختلافهما كما قال تعالى : **﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾**[4] . وأما صحة إطلاق العصر على الليل والنهار فلا بأس فيه ، فإنه يطلق العصران عليهما ، وأما مطلق العصر والزمان بمعنى الدهر فلما فيه من العجائب والحوادث التي تدل على

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٨ . (٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .
(٣) سورة القلم الآية ٥٢ . (٤) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

قدرة بارئها ومنشئها ، وأما عصر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري ، وظهور الحق على الباطل ، وقد رجح هذا الاحتمال المفسر الكبير الطباطبائي قدّس سرّه ورآه أنسب ، لما تتضمنه الآيتان التاليتان ، وأما عصر ظهور الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه فلما فيه من ظهور الحق على الباطل ظهوراً تاماً ، وقد ورد ذلك في بعض الروايات أيضاً .

﴿إنّ الإنسان لفي خسر﴾ :

الخَسر والخسران كالكفر والكفران . عبارة عن نقصان أصل رأس المال لا النقصان في الربح ، ولذلك نقل عن بعض أهل المعرفة أنه قال : تعلّمت معنى هذه الآية : **﴿إنّ الإنسان لفي خسر﴾** من رجل كان يبيع الثلج وينادي « ارحموا من رأس ماله يفنى فتفطنت حينذاك معنى الآية ، فإن رأس مال الإنسان هو عمره ، وهو ما زال في الفناء والزوال فهو كالثلج في الصيف ينقص آناً فآناً .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : ما أسرع الساعات في الأيام ، والأيام في الأسابيع ، والأسابيع في الشهور ، والشهور في السنين ، والسنين في العمر » .

فحكم الخسران شامل لجميع أفراد البشر ؛ مع ما في الآية من التأكيد بلفظ « إنّ » وبحرف « اللام » والجملة الاسمية التي تدل كلها على التأكيد ، مضافاً إلى الإتيان بحرف « في » فإنه يستفاد منه الكون في الخسر والاستغراق فيه ، وهذا الحكم شامل لعموم الإنسان المكلف ، والدليل على هذا العموم صحة الاستثناء ، فمن صحة الاستثناء يستفاد أن « الألف واللام » في الإنسان للجنس يعني الاستغراق . ومن ذلك يعلم فساد ما

روى بعض المفسرين أن علي بن عبد الله بن عباس قال على المنبر : « أقسم ربكم بآخر النهار أن أبا جهل لفي خسر ، إلا الذين آمنوا ، أي أبا بكر ، وعملوا الصالحات أي عمر ، وتواصوا بالحق أي عثمان ، وتواصوا بالصبر أي علياً». ثم اعلم أن الله سبحانه ذمّ الإنسان على النحو المطلق في كثير من الموارد في القرآن ، كقوله تعالى : **﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار﴾**[١] **﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾**[٢] **﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَكفُورٌ﴾**[٣] **﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾**[٤] **﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾**[٥] **﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾**[٦] **﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾**[٧] **﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾**[٨] . وغيرها من الآيات ، وكلها ناظرة إلى إنسان لم يقع تحت التربية الإلهية ، ولم يظهر فيه النور الفطري الإلهي ، فإن إنساناً كهذا أضلّ من الأنعام وأخسّ من كل حيوان ، والآية الشريفة أيضاً ناظرة إلى ذلك الإنسان ، وهذه حقيقة لا تنكر ، فإنه بعدما علم وثبت أن للإنسان حياة غير هذه الحياة الدنيا ، وهي الحياة الحقيقية ، لما فيها من الخلود في السعادات والنعم واللذات ، وهذه الحياة الدنيوية مقدمة لتلك الحياة ، فمقدميتها إنما هي لما في الإنسان من الاعتقاد والأمل ، فإذا حصّل الاعتقاد الحق والعمل الصالح فينال تلك السعادات ، وإن حصّل الاعتقاد بالباطل والكفر وأتى بالأعمال السيئة فيشقى ، وتفوته جميع تلك السعادات الدائمة الأبدية ، كما قال تعالى : **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾**[٩] وقال : **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ**

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٤ . (٢) سورة الإسراء الآية ١١ .
(٣) سورة الحج الآية ٦٦ . (٤) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .
(٥) سورة المعارج الآية ١٩ . (٦) سورة القيامة الآية ٥ .
(٧) سورة عبس الآية ١٧ . (٨) سورة العاديات الآية ٦ .
(٩) سورة النجم الآيتان ٣٩ ـ ٤١ .

وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْها﴾[1] فإن اتبع الحق عقيدة وعملاً فقد ربحت تجارته ، قال تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[2] وإن اتبع الباطل اعتقاداً وفعلاً فقد خسر وخاب ، كما قال تعالى : ﴿إن الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .

التواصي بالحق عبارة عن أن يوصي كل مؤمن المؤمن الآخر بالحق ، كما هو مقتضى هيئة التفاؤل التي هي بين الطرفين ، فالوصية بالحق حقّ لكل مؤمن على كل مؤمن ، وليست مختصة لأحد دون الآخر ، وإلا فاللازم أن يقال : وأوصوا بالحق وأوصوا بالصبر .

ثم إن المفسرين ذكروا ـ ومنهم العلامة الطباطبائي ـ أن الجملتين للتأكيد ، فإن التواصي بالحق من العمل الصالح ، فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، وهذا يدل على الاهتمام بأمره ، كما أن التواصي بالصبر أيضاً ـ مضافاً الى أنه من العمل الصالح من التواصي بالحق أيضاً ، فذكره يدل على أن الاهتمام به أكثر . خصوصاً بملاحظة تكرار الفعل ، لأنه بالإمكان أن يقال : وتواصوا بالحق والصبر ، والتأكيد في الكلام من محسناته ، بل ربما يكون من ضرورياته ، فإن المعنى إذا كان مهماً لا بدّ وأن تذكر أهميته ، والتكرار من إحدى الطرق ، لذلك فلا بأس بالالتزام بكونهما تكراراً للمعنى لإفادة الاهتمام بأمره هذا .

وقد خطر ببالي أنه يمكن أن لا يكون في الكلام تكرار بتوجيه أن المستثنى من الخسران هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ الإيمان من جهة

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٦ .

(٢) سورة الصف الآيتان ١٠ ـ ١١ .

تصحيح الاعتقاد ، والعمل الصالح من جهة تصحيح العمل ، ثم إنه ربما يستفاد من ذلك أن كون الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح في إطار الفرد يكفيان في رفع الخسران عن الإنسان ، فنبّه سبحانه بأن التلبس بهما بالنسبة إلى شخص الإنسان المؤمن والعامل عملاً صالحاً لا يكفي في نجاته من الخسران ، بل لا بدّ من إسراعهما من الفرد إلى المجتمع ، فبالنسبة إلى الإيمان في المجتمع فيؤمن بالتواصي بالحق وهو الاعتقاد الصحيح الثابت ، وبالنسبة إلى العمل الصالح في المجتمع فيقوم التواصي بالصبر بهذا الدور ، لأن الصبر ـ كما في الروايات ـ ليس هو الصبر على المصائب والنائبات فقط ، بل له معنى أشمل من ذلك .

قال الراغب في مفرداته : الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه . فالصبر لفظ عام ، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير ، ويضادّه الجزع ، وإن كان في محاربةٍ سُمِّي شجاعة ، ويضاده الجبن ، وإن كان في نائبة مضجراً سمي رحابة صدر . ويضاده الضجر ، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ، ويضاده المذل[1] . وقد سمى الله سبحانه كل ذلك صبراً ونبّه عليه بقوله : ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾[2] ﴿**وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ**﴾[3] . انتهى .

وفي الكافي عن الأصبغ قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عند ما

---

(١) مَذَلَ بسرّه : أفشاه . (٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ . (٣) سورة الحج الآية ٣٥ .

حرّم الله عليك ، والذكر ذكران : ذكر الله عزّ وجلّ عند المصيبة ، وأفضل من ذلك ذكر الله عندما حرّم عليك فيكون حاجزاً » .

* * *

سُورَةُ الهُمَزَة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ* كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ* نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَفْئِدَةِ* إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ* فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ*﴾

صدق الله العليّ العظيم .

ذكر جمع من المفسرين كأبي الفتوح والمجمع والميبدي وغيرهم أن السورة نزلت في شأن أفراد خاصة ، كأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وغيرهما ، واختلفوا في أشخاص هؤلاء الذين كانوا يعيبون الناس حتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . ومع ذلك اتفقوا على أن المراد ليس الأفراد المذكورين بل الآيات عامة لكل من فيه هذه الصفة ، والأمر كذلك خصوصاً مع الإتيان بلفظ « كل » حيث لم يقل : للهمزة واللمزة .

والويل كلمة تقال في مقام التوبيخ والدعاء على أحد وإظهار الغضب ، كما أن « ويح » تقال في مقام الترحم ، وقال في المجمع : الهمزة : الكثير الطعن على غيره بغير حق ، العائب له لما ليس بعيب ،

وأصل الهمز الكسر ، قال : واللمز : العيب أيضاً ، والهمزة واللمزة بمعنى واحد . وقد نقل عن ابن عباس أيضاً أنه قال : الهمزة واللمزة معناهما واحد . وهذا القول من المجمع وهكذا من ابن عباس بعيد .

فإن القرآن ليس كتاب شعر حتى يأتي بألفاظ مترادفة متحدة المعنى ، مضافاً إلى ما في اللغة من الفرق بينهما ، ففي القاموس على ما نقل : الهامز والهمزة : « الغمّاز » واللمزة : العيّاب للناس ، أو الذي يعيبك في وجهك . والهمزة من يعيبك في الغيب ، وقيل في الفرق بينهما وجوه كثيرة ، وبناء فعله يدل على الاعتياد ، فلا يقال : ضحك ولعن إلا للمكثر المتعود . وفي أدب الكاتب لابن قتيبة : فُعْلَ بسكون العين : من صفات المفعول ، وفُعَلَ بفتح العين : من صفات الفاعل . يقال رجل هزْأة للذي يهزأ به ، وهُزَأَة لمن يهزأ بالناس ، وعلى هذا القياس لُعْنَ ولُعَنَ ولُمْزَة ولُمَزَة وغيرها . وقال العلامة الطباطبائي في معناهما : ويل لكل عيّاب مغتاب .

وما يستفاد مما ذكر من المعاني أن التعييب بالمعنى الواسع مأخوذ فيهما ، سواء أكان في الحضور أو الغياب كما ذكرنا ، أو كان الأول باللفظ والثاني بغيره ، ككسر عينه ، والإشارة برأسه ، والإيماء بعينه . أو بالعكس ، كما قيل : الهمزة العيّاب بإشارة اليد ، واللمزة العيّاب باللسان ، أو أن الهمزة أن يعيب الناس جهراً وعلانية ، واللمزة أن يعيبهم في الخفاء وبإشارة العين والحاجب ، وكثير من المعاني الأخر . وعلى أي حال فهما من الصفات المذمومة .

فعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ألا أخبركم بخياركم ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل ، ثم قال : ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا بلى يا

رسول الله ، قال : المشّاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون بالبراء العيب ، وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : إني لأعرف قوماً يضربون صدورهم ضرباً يسمع أهل النار ، قيل من هم يا رسول الله قال : هم الهمّازون اللمّازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ، ويهتكون ستورهم ، ويشيعون عليهم من الفواحش ما ليس فيهم . وفي النبوي في خبر المناهي : فمن مشى في عيب أخيه وكشف عورته ، كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنّم ، وكشف الله عورته على رؤوس الخلائق . وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : من أذاع فاحشة كان كمبتديها ، ومن عَيَّرَ مؤمناً بشيء لا يموت حتى يركبه .

وعن سفيان بن عيينة قال في قوله تعالى : ﴿إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1] ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم إقدام الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب ، ومنهم من ينبح نباح الكلب ، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس ، ومنهم من يشبه الخنزير ، فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه وإذا قام الرجل من رجيعه ولغ فيه ، وكذلك نجد من الآدميّين من لو سمع سبعين حكمة لم يحفظ واحدة منها ، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها ، ولم يجلس مجلساً إلا رواها عنك . ثم قال : فاعلم يا أخي أنك إنما تعاشر البهائم والسباع فبالغ في الاحتراز .

قال المحدّث القمّي بعد نقل هذا أقول : وأحسن من هذا ما قال أمير المؤمنين عليه السلام : الأشرار يتتبعون مساوئ الناس ويتركون محاسنهم ، كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح . فويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالاً وَعَدَّدَهُ يحسب أن ماله أخلده . وقرأ

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨.

بعضٌ :الهُمزة واللُمْزة بسكون الميم كقدوة .

وقال أبو السعود وبعض آخر . إنها على هذا يكون بمعنى الذي يضحك الناس بأفعاله وحركاته ويُهزأ به ، ولا شكّ أن هذا العمل مذموم في الشرع وغير محمود أخلاقاً ، والمؤمن مشغول بنفسه عن هذا .

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله لعمرو بن العاص : عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة[1] ، وأني امرؤ تلعابة[2] ، أعافس وأمارس[3]، لقد قال باطلاً ونطق آثماً ـ إلى أن قال ـ أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة .

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان في المدينة رجل بطّال يضحك أهل المدينة من كلامه ، فقال يوماً لهم : قد أعياني هذا الرجل ، يعني علي بن الحسين عليه السلام ، فما يُضحكه مني شيء ، ولا بدّ من أن أحتال في أن أضحكه ، قال : فمر عليّ بن الحسين ذات يوم ومعه موليان له ، فجاء ذلك البطال حتى انتزع رداءه من ظهره . واتّبعه الموليان فاسترجعا الرداء منه وألقياه عليه عليه السلام ، وهو مخبت لا يرفع طرفه من الأرض ، ثم قال لموليه : ما هذا ؟ فقالا له : رجل بطّال يضحك أهل المدينة ويستطعم منهم بذلك ، قال عليه السلام : فقولا له : يا ويحك إن لله يوماً يخسر فيه البطّالون » .

هذا ولكن من المعلوم أن أحداً إذا أتى في ضمن كلامه بلطيفه ، لم يكن فيها إيذاء للغير ولا غيبة وتهمة لا بأس بذلك ، بل ربما يكون ممدوحا أيضاً .

---

(١) الدعابة = بالضم : المزاح واللعب. (٢) تِلعابة : كثير اللعب

(٣) أعافس وأمارس= أعالج الناس وأضار بهم مزاحاً.

﴿الذي جمع مالاً وعدّده﴾ :

وقرأ جَمَّعَ بالتشديد أيضاً فيدل على الكثرة والمبالغة في الجمع . وعدّده يمكن أن يكون من العد بمعنى أنه من كثرة الحب بالمال ، يجمعه ويفرح بعدّه ، ويسر بأن يكون الموجود في حسابه في البنك مثلاً أكثر فأكثر ، ويمكن أن يكون من العُدَّة ، أي يدخره ويعده ليوم فاقته وفقره .

﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ :

ولا أظنّ أن يكون أحد يحسب واقعاً أن المال سبب لخلوده في الدنيا ، فالمقصود من هذا التعبير بيان شدة الحرص ، وأن بعضاً ـ في حرصه في جمع المال ـ بحيث أن عمله يشبه من يزعم أن المال سبب لخلوده ، ويمنعه من الموت والفناء ، ويمكن أن يستفاد من الآية نكتة لطيفة : وهي أن الله سبحانه يذكر أبناءَ الدنيا الذين يرغبون الخلود في الدنيا ببقاء اسمهم ، وفي الآخرة بالتنعم بالنعم الدائمة ، أن سبب هذا الخلود ليس جمع المال ، وإنما الخالدون في الدنيا والآخرة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فسبب الخلود هو العلم والإيمان والعمل الصالح ، لا جمع المال وعدّه ، وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين في خطابه إلى كميل بن زياد : «هلك خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة» .

وهنا لطيفة أخرى : وهي أن الآيات الثلاث ، كل واحدة منها كأنّها علة لسابقتها ؛ فالإنسان لحبه البقاء وهو من الفطريات التي فطر بها جميع البشر ، يغلب الحرص على المال ، ويكون سبباً لجمع المال وعدّه ، وإذا جمع المال وصار متموّلاً يجد في نفسه التفاخر بالمال والثروة ، فيتكبر على

الناس ويعيبهم ويلمزهم . فالهمز واللمز معلولان بجمع المال، وجمع المال معلول لإرادة الخلود والبقاء .

﴿كلّا لينبذنّ في الحطمة﴾ :

كلّا ، أي ليس الأمر على ما يحسب ، وقيل هو متصل بما بعده ومعناه حقاً لينبذن في الحطمة ، أي ليُطرحنّ ، وفي هذا التعبير نوع من التحقير والإهانة ، فكأن المطروح شيء قذر وخبيث وملوث .

في الحطمة : أي في جهنّم ، وهي من أسماء جهنّم ، فإن لها أسماء عديدة ، وقيل إن لها سبع دَرَكات ، ولكل دَرَك اسم ، .

فاسم **الدركة الأولى** « جهنّم » لأنها تتجهم في وجوه الخلق ، وهي موضع العصاة من أهل التوحيد ، وقال بعض إنه لا نار فيها ولكنه يصل حرّ النار إليهم ، فإذا خرج أهل التوحيد منها جُعلت طبقاً على سائر الدرجات ، وهذا خلاف ظاهر أكثر الآيات والروايات التي ورد فيها هذا اللفظ ، وعلى كل حال أعاذنا الله منها .

والدركة الثانية « لظى » وهي التي تتلظى أي تلتهب ؛ قال تعالى : ﴿كَلَّا إنَّها لَظَىٰ* نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ﴾[1] أي تقلع جلدة الرأس .

والثالثة : «سقر» وهي التي تسقر أي تذيب ما ألقي فيها ، من قول العرب : سقرته الشمس أي أذابته . قال تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ* لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ* لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾[2] الآيات . .

الرابعة : « الحطمة » وهي التي تحطم ما فيها ، أي تكسر ، قال

---

(١) سورة المعارج الآيتان ١٥ ـ ١٦ . (٢) سورة المدثر الآيات ٢٦ ـ ٢٩ .

أمير المؤمنين عليه السلام : اعلمتم أن مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضُها بعضاً لغضبه ، وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته ؟

الخامسة : « الجحيم » وهي النار العظيمة ، تقول أجحمت النار فجحمت ، قال تعالى في حقّ النار التي ألقي فيها إبراهيم : **﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجَحِيمِ﴾**[1] وقال تعالى : **﴿وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾**[2] وقال : **﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ* وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَىٰ﴾**[3] .

السادسة : « السعير » : وهي المسعورة أي الموقدة غاية الإيقاد ، قال تعالى : **﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾**[4] وقال تعالى : **﴿وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾**[5] نعوذ بالله .

والسابعة : « الهاوية » : وهي التي تهوي بأهلها أي تهلكهم **﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ﴾**[6] .

﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ :

هذه الكلمة وما أدراك وما يدريك للتعظيم ، وبيان أن الأمر فوق ما يتصور ، وهنا نكتة : وهي أن الله سبحانه اختار هذا الاسم من أسماء جهنّم لعله للتناسب بين الذنب والجزاء ، لأن هذا جزاء للهمزة اللمزة ، والهمزة كما ذكرنا عبارة عن العيّاب المغتاب ، والهمز بمعنى الكسر ، فلذا يذكر المجمع أنه قيل لأعرابي : أتهمز الفارة ؟ قال السنور يهمزه ، فكان

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٧.
(٢) سورة التكوير الآية ١٢ .
(٣) سورة النازعات الآيات ٣٧ ـ ٣٩ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٩٧.
(٥) سورة التكوير الآية ١٢ .
(٦) سورة القارعة الآيات ٨ ـ ١١ .

مراد السائل أنّك تقرأ الفأرة بالهمزة ؟ أي فأرة كبصرة ، فأجابه الأعرابي بمعناه اللغوي وهو الكسر . وقال : السنور يهمزه أي يكسره فحيث إن العياب بتعييبه يكسر حيثية الأفراد وشخصياتهم ويحطم حرماتهم ، فكان جزاء هذا الكافر الحاطم لحيثية الأفراد النار الحطمة .

﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾ :

أي تحرق الجلود والأجسام حتى تصل إلى القلوب ، ولكن هذا المعنى على خلاف كلمة « تطّلع » فيمكن أن يقال إن معنى **تطّلع** على الأفئدة أن نار الآخرة على خلاف نيران الدنيا ، فإنها تسري من الظاهر إلى الباطن ، وتحرق الجلد قبل اللحم ، واللحم قبل العظم ، وأما نار الآخرة فإنها تحرق الباطن قبل الظاهر ، فتحرق القلب أولاً ، وتسري من القلب إلى الظاهر ، وبنفس الأسلوب الذي ذكرناه في الحطمة يمكن أن يقال : إن مناسبة الفعل والجزاء أيضاً أوجبت هذا العذاب ، فإن الهمزة واللمزة بتعييبه وغيبته يحرق قلب من عابه واغتابه ، فيكون جزاؤه في الآخرة التي تبلى فيها السرائر أن يحترق قلبه قبل أعضائه .

وربّما يؤيّد بهذه الآيات ما ذكره العرفاء الشامخون من أن العذاب في الآخرة ليس إلا تجسّم الأعمال السيئة في الدنيا ، كما أن النعيم فيها إنما هو تجسم الأعمال الحسنة ، ولهذا الكلام ذيل طويل ، وللمولى والمثنوي العارف المعروف في هذا المقام أشعار لطيفة . ويستفاد ذلك من عدة من الآيات كقوله تعالى : **﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾**[1] أو **﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾**[2] ، وإلى غير ذلك من الآيات والروايات الكثيرة جدّاً ليس هنا

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٥ .   (٢) سورة الحج الآية ١٠ .

مقام ذكرها .

﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ :

تهمز وتقرأ بلا همزة أيضاً . فبالهمزة من آصدت الباب ، وبغير الهمزة من أوصدت الباب[1] ، والمعنى أن النار أو الحطمة مطبقة ومغلقة على أهلها ، لا يدخل عليهم روح ولا فرج .

﴿في عمد ممددة﴾ :

وقرئت بضمتين ، وكلاهما جمع عمود كقوله تعالى : ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[2] والتمديد مبالغة في المدّ فيفترق معنى ممدّدة مع ممدودة من جهة المبالغة في الأولى .

قال الطباطبائي : قيل هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار ، وقيل عمد ممددة يوثقون فيها مثل المقاطر ، وهي خشب أو جذوع كبار فيها خروق ، توضع فيها أرجل المحبوسين ، وقيل غير ذلك . نسأل الله سبحانه أن يعفو عنّا برحمته وفضله ويعوذنا من نار غضبه إنه غفور رحيم . والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

(١) المنجد : أصَّدَ وآصَدَ الباب : أغلقه وهكذا : أَوْصَدَ الباب أغلقه .

(٢) سورة الرعد الآية ٢ .

سُورَةُ الفِيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَـرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *﴾ صدق الله العليّ العظيم .

إن هذه السورة مرتبطة بسورة قريش ، ومطالبهما مرتبطة إحداهما بالأخرى ،ولمضمون سورة قريش نوع تعلق بسورة الفيل ، كما يدل عليه حرف « ل » في لإيلاف قريش كما سنذكره ، ولهذا ذهب جمع كثير من علماء السنّة ونسب إلى المشهور من علماء الشيعة بأنهما سورة واحدة ، واستدلت السنّة لذلك بأمرين :

الأول : ما روي عن أن أبيّ بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة .

الثاني : ما روي عن عمر بن ميمون الأسدي قال : صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرأ في الركعة الأولى « التين » وفي الثانية « ألم تر ولإيلاف قريش » من غير أن يفصل بالبسملة .

وشيء من هذين لا يصلح دليلاً على كونهما سورة واحدة . أما الأول فمعارض لما روي أن البسملة ثابتة في غير مصحف أُبيّ ، وأمّا الثاني فإن الرواية على فرض صحتها من المحتمل أن يكون الراوي لم يسمع قراءة البسملة أو أن عمر قرأها سرّاً كما هي عادتهم الآن ، ولذلك جُعل الجهر في بسم الله الرحمن الرحيم في رواياتنا من علامات المؤمن ، مضافاً إلى أنها معارضة بما روي عن النبيّ أن الله فضل قريشاً بسبع خصال وفيها : « ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم ،لإيلاف قريش » فسمّاها رسول الله سورة من القرآن . وقد نسب كونهما سورة واحدة إلى المشهور بين الشيعة ، ومستندها روايات لا تدل على أزيد من أنه لا يجوز الاكتفاء بقراءة إحداهما في ركعة واحدة ، وأنه يجب القِران بينهما في الفريضة مع أن القِران ممنوع في غيرهما .

وعلى أيّ حال قد أجمع المفسرون على أن السورة نزلت في شأن قوم من الحبش تسلّطوا على اليمن ، فأرادوا هدم الكعبة ، فأنزل الله عليهم عذاباً أبادهم عن آخرهم ، وأهلكهم بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل ، فأصل وقوع القضية من مسلّمات التاريخ ،كيف وقد صارت مبدأ للتاريخ وذكرها الجاهليون في أشعارهم ، بل لا ريب في وقوع القضية وفقاً لما ينقله القرآن كما سنذكره . ولا يُصغى إلى ما قال في ذلك الغربيون وتبعهم في ذلك ـ على ما ببالي ـ السيد قطب وبعض آخر كعبده وغيره (على ما نقل) بأن الله سبحانه ابتلاهم بالجدري فأهلكهم بذلك المرض ، فإن هذا الكلام من السخافة بمكان ، وقد ردّ علماؤنا بأجوبة كافية لا نتعرض لها ، ومن أوضح ما نجيب به القوم أن السورة مكيّة إجماعاً . وقد ولد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بإجماع من المؤرخين في عام الفيل ،

وفي زمان نزول السورة كان أفراد كثيرون من قريش أحياء ، وقد أدركوا الواقعة ، وقد تلاها رسول الله على أهل مكة فلم ينكروها ، بل أقروا بها مع شدة حرصهم على تكذيبه ، فلو لم تكن القضية أمراً واضحاً لاعترضوا على رسول الله ، مع أنهم لم ينقلوا عن أحد ذلك ، وسلّم بها أهل مكة بأجمعهم . فهي من آيات الله الجلية التي لا سترة عليها ، حتى أن المولى عبد الرزاق القاساني مع أنه ألّف تفسيره على التأويل حتى أنه لم يذكر من الآيات إلا ما هي قابلة للتأويل ، وقال : « إنّ كل ما لا يقبل التأويل عندي ،أو لا يحتاج إليه فما أوردته أصلاً » . ومع ذلك ذكر في هذه السورة أنّ قصّة أصحاب الفيل مشهورة ، وواقعتهم كانت قريبة من عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه ، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان ، لكون نفوسهم ساذجة وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ليس بمستنكر ، ومن اطّلع على عالم القدرة وكشف له حجاب الحكمة عرف لميّة أمثال هذه ، وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد وإفساد زروعهم ، ورجوعها في البريّة إلى شطّ جيحون ، وأخذ كلّ واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شطّ نهرها ، وركوبها عليها ، وعبورها بها من النهر ، وهي لا تقبل التأويل كأحوال القيامة وأمثالها . انتهى .

﴿ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل﴾ :

لا حاجة لنا في تصحيح معنى الرؤية إلى تجشّم الاستدلال بأن ولادة رسول الله التي كانت في عام الفيل هل هي في يوم الفيل كما رواه ابن عباس ، أو أنها كانت بعد شهرين أو خمسة وخمسين أو سبعة وخمسين

يوماً ، فإنه لو قلنا إنها كانت في يوم الفيل أيضاً أو بعده بأيام فلا بدّ لنا من توجيه فيه أيضاً ، فإن مجرد وجود رسول الله في يوم الفيل أو بعده بأيام لا يصحح إطلاق الرؤية بالمعنى المتعارف عليه ، فإنه لا يقال لطفل عمره يوم أو شهران مثلاً بعد كبره : « ألم ترَ » بالمعنى المتعارف ، فلا بدّ من حملها على الرؤية العلمية الظاهرة ظهور الحس ، وقد أطلق هذا التعبير في موارد من القرآن مع القرون البعيدة كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[1] و ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[2] . وموارد أخر، فالمعنى ما ذكرنا من العلم وكونه من الوضوح بحيث يُلحق الرؤية بالحاسة ويمكن أن يكون لهذه الآيات توجيه عرفاني ليس هنا موضع ذكره .

وهنا نكتة لطيفة : وهي أن في إتيان لفظ الرب هنا بدلاً عن الله أو بقية الأسماء مع إضافته إلى ضمير الخطاب ، لعلّه إشارة إلى أن الذي أهلك جند أبرهة وَخَذَلهم هو الذي تصدى تربيتك الروحية والجسمية ، فعلى هذا وخصوصاً مع الإتيان بلفظ « كيف » الذي يدل على الكيفية والحال ، يمكن أن تكون قضية أبرهة مرتبطة ارتباطاً لطيفاً بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وبيان آخر قبل ظهور كل نبي أو مقارناً لظهوره تقع في العالم حوادث عجيبة وغير عادية تسمى إرهاصات[3] فمن المحتمل قوياً أن تكون هذه القضية من إرهاصات النبي ، وإلا فتخريب الكعبة وهدمها اتفق

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٣ .　　(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٣) إرهاصات : أرهص الشيء أي أسسه وأثبته .

مـرّات عـديـدة قبـل الإسـلام وبعـده أيضـا في زمن عبـد الله بن الـزبـير والقرامطة ، حتى أنهم أخـذوا الحجر وذهبـوا به في قصـة طويلة ذكـرت في التاريخ ، ولم يحدث شيء مما حدث في قضية أبرهة، فمن الممكن أن يكون هذا الفعل من الله سبحـانه مـرتبطاً بـالنبي وكرامـة له ، كـما يمكن استفادة هذه اللطيفة من « كيف فعل ربك » كما ذكرنا .

﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾ :

أتعب بعض المفسرين نفسه في توجيه الكيد وفسّره بالمكر والخـدعة ، ولذلك وقع في عناء بأن عمل أبـرهة لم يكن كيـداً ومكراً بـل هو أعلن من أول الأمر أنّه يريد هدم الكعبة ، فكيف أطلق الله سبحانه لفظ الكيـد على عمله ؟ ولكنه نرى موجباً لذلك . فإن من معاني الكيد إرادة السوء . كاده كيداً: مكر به وخدعه ، حاربه ، أراده بسوء . فالمعنى على هـذا واضح ، وهو سوء قصـدهم عليه ، وإرادتهم تخـريب البيت الحرام ، والتضليـل أي جعـل سعيهم ضالاً لا يهتـدي إلى الغـايـة المقصـودة منـه ، فـإنهم سـاروا لتخريب الكعبة وانتهى بهم إلى هلاك أنفسهم .

﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ :

في المنجد : الأبابيل الفِرق ، وأبابيل جمع لا واحد لـه ، طير أبـابيل متتابعة ومتجمعة .

﴿ترميهم بحجارة من سجّيل﴾ :

سجّيل: قالوا أنه معرب سنگ‌كل أي الطين المتحجّر.

﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ :

العصف ورق الزرع ، والعصف المأكول ورق الزرع الذي أكل حبّه ، أو قشر الحب الذي أكل لبّه ، والمراد أنه عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجساداً بلا أرواح . وقال المفسر الكبير الطباطبائي وفسرت ببعض وجوه أخر لا تناسب الأدب القرآني ، وهو كما قاله قدّس سرّه ، والقصّة معروفة لا نتعرّض لها .



سُورَة قُرَيْش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لإِيلافِ قُرَيشٍ * إِيْلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ * وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ *﴾

صدق الله العليّ العظيم .

قبل أن نشرع في التفسير نقدم مقدمة ، وهي أنه كان لقريش رحلتان ، يرحلون في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فيتّجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته العزيز ، فلا يُتعرض لهم ، والناس بين مختطف ومنهوب . وذلك أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة ، خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا .

وكانوا على ذلك إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف، وكان سيد قومه ، فقام خطيباً في قريش فقال : إنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم حرم الله وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع . قالوا نحن تبع لك فليس عليك منّا خلاف ، فجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن

وفي الصيف إلى الشام ، لأن بلاد اليمن حامية حارة ، وبلاد الشام مرتفعة باردة ، ليتجروا فيما بدا لهم من التجارات ، فما ربح الغني قسّم بينه وبين فقرائهم ، حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش ، وبعد هذه المقدمة نقول :

اختلف المفسرون في متعلق « لإيلاف » قال الزجاج : إنه متعلق بقوله « فليعبدوا » بحيث إن في الكلام معنى الشرط ، جيء بالفاء فكأنّه تعالى قال : إن نعم الله كثيرة غير محصورة ، فإن لم يعبدوه لِسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ، وهي الإطعام من جوع والأمن من الخوف . وهذا التفسير وإن ارتضاه المفسر الكبير الطباطبائي أيضاً ، وقال ومحصل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش ربّ هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحلة الشتاء والصيف ، وهم عائشون بذلك في أمن، وقد جعل ـ قدّس سرّه ـ فاعل لإيلاف هو الله سبحانه ، وقال : وقريش مفعوله الأول ، ومفعوله الثاني محذوف يدل عليه ما بعده ، وقوله إيلافهم رحلة الشتاء والصيف بدل من إيلاف قريش ، وفاعل إيلاف هو الله ، ومفعوله الأول ضمير الجمع ومفعوله الثاني رحلة ، إلى آخرها . . والتقدير : لإيلاف الله قريشاً رحلة الشتاء والصيف .

ولكن هذا التفسير بنظري القاصر من البعد بمكان لاشتماله على الحذف في الفاعل وهو الله ، وهذا خلاف الظاهر ، لا من جهة أنه إذا كان في الكلام محذوف فلا بدّ من عائد إليه ودال يدل عليه ، فإن أهل الأدب ذكروا أن المحذوف إذا كان الله فلا يلزم وجود عائد إليه ودال عليه ، ونحن أيضاً نسلم بذلك ، ولكن نقول : ما الموجب للحذف ؟

فليس معنى عدم لزوم العائد أن يحذف الله ، وإلا فيجب أن يحذف في غيره من الموارد في القرآن . كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ بنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[1] و ﴿إِذ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوفِّيكَ﴾[2] و ﴿قَالَ اللهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾[3] و ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾[4] وغيرها من الموارد ، فلماذا لم يحذف في هذه الموارد مع أنه لم يلزم وجود عائد في الكلام ، وذلك لأن الحذف على خلاف القاعدة ولا بدّ لها من موجب ، وأما لزوم العائد وعدم لزومه فبحث آخر ، هذا مضافاً إلى أن تعليل العبادة بالإطعام والإيمان من الخوف بعيد ، فقد ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[5] كما في الكافي عن أبي حمزة قال : كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة ، ودعا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة وطيباً ، وأتينا بتمر ننظر فيه بأوجهنا من صفائه وحسنه ، فقال رجل : لتسألن عن هذا النعيم الذي تنعمتم به عند ابن رسول الله ، فقال أبو عبد الله : إن الله عزّ وجلّ أكرم وأجلّ أن يطعم طعاماً فيسوّغكموه ثم يسألكم عنه ، إنما يسألكم عما أنعم عليكم بمحمد وآل محمد . وقال المفسر الكبير الطباطبائي بعد ذكر هذه الرواية : أقول : وهذا المعنى مرويّ عن أئمة أهل البيت بطرق أخرى وعبارات مختلفة، وفي بعضها أن النعيم ولايتنا أهل البيت . . .

ومضافاً إلى أنه لا يعرف وجه لتقديم المتعلق على الفعل وأقول : في المنجد ألف المكان وآلفه إيلافاً . تعوده واستأنس به ، وعلى هذا يكون معنى لإيلاف قريش لاستيناسهم رحلة الشتاء والصيف ولتعودهم على

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٦ . (٢) سورة آل عمران الآية ٥٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ١١٩ . (٤) سورة المائدة الآية ١١٥ .

(٥) سورة التكاثر الآية ٨ .

ذلك ، وهذا معنى مستقيم ليس فيه غرابة ولا تقدير .

ويبقى الكلام في متعلق اللام . قال بعض المفسرين إن لإيلاف متعلق بالفعل في السورة السابعة « فجعلهم » ويؤيد ذلك كون السورتين سورة واحدة على قول ، أو عدم الاجتزاء بإحداهما في الفريضة كما اخترناه ، ثم قال المفسر المذكور : من المعلوم أن السبب لهلاك جند أبرهة هو كفرهم وطغيانهم ، ولكن حيث إن نتيجة هلاكهم كانت لقريش . وقريش استفادت من هلاكهم . فكأنّ هلاكهم كان لأجلهم ، وهذا التعبير شائع في العرب ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً**﴾[1] . فمن المعلوم أن فرعون أخذ موسى ليكون له ولداً ، ولكن حيث إنه صار لهم عدواً وحزناً جُعل في سرد الكلام علّة للالتقاط ، وفي هذه الآية أيضاً حيث إن نتيجة هلاك جيش أبرهة كانت استيناس قريش ، جيء بلام التعليل . أقول : لم أرَ في ما عندي من التفاسير ـ وإن كان قليلاً ـ أن يقول بأن التعليل حقيقي مع أنه لا مانع من القول بذلك ، فيكون المعنى أن هلاك جيش أبرهة من جهة أن قريشاً كان لهم إيلافاً ، والله سبحانه أهلكهم وجعلهم كعصف مأكول لأن قريشاً كانوا يستأنسون بعضهم مع بعض في الرحلتين ، فيقسّم الغنيّ ماله ويعطيه للفقراء ، فمن أحل هذا الإيثار والتعاون أهلك الله عدوهم ويؤيد هذا المعنى ما ورد في كثير من الروايات من أن الصدقة تدفع البلاء ، وأن صلة الرحم تنفي ميتة السوء والفقر وغير ذلك من الشرور ، وهذه الروايات كثيرة في الأبواب المختلفة نذكر هنا واحدة منها تبركاً ، ولما فيها من التذكر والتنبيه .

روى الشيخ الطوسي قدّس الله سرّه في أماليه عن محمد بن إبراهيم

---

(١) سورة القصص الآية ٨.

قـال : بعث أبـو جعفـر المنصـور إلى الصـادق عليـه السـلام وأمـر بفـرش وطُرحت له إلى جانبه فأجلسه عليها ، ثم قال عليٌ بمحمد ، عليٌ بالمهدي ، يقول ذلك مراراً فقيل له : الساعة الساعة يأتي يا أمير المؤمنـين ، ما يحبسـه إلا أن يتبخّر ، فما لبث أن وافى وقـد سبقته رائحتـه ، فأقبـل المنصور عـلى جعفر وقال : يا أبا عبد الله ، حديث حدثته في صلة الـرحم اذكره يسمعـه المهدي ، قال :

نعم ، حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إن الرجل ليصل رحمه وقـد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيّرها الله عز وجل ثلاثين سنة ، ويقطعه وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين ، ثم قال : ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ**﴾[1] قـال : هذا حسن يـا أبا عبـد الله وليس إياه أردت .

فقـال أبو عبـد الله : حـدّثني أبي عن أبيـه عن جـدّه عن عـليّ عليـه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :«صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الأعمار ، وإن كان أهلهـا غير أخيار». قال : هـذا حسن يا أبـا عبد الله وليس إياه أردت .

فقـال أبو عبـد الله : حدّثني أبي عن أبيـه عن جدّه عن عـليّ عليـه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم «صلة الرحم تحول الحساب وتقي ميتة السوء ». قال المنصور نعم هذا أردت .

وغـير ذلـك من الـروايـات الكثيـرة في صلة الـرحم وغيـرهـا من

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٩.

المعروف ، فإن لهذه الأعمال آثاراً في هذه الدنيا بحيث إن إيلاف قريش كان لأجل صلة الأرحام بعضهم لبعض ، وإعانة الفقراء ، فصار سبباً لإهلاك أبرهة وحفظ عزّتهم وكيانهم ، ولا مانع لهذا التفسير في نظري .

﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت﴾ :

كل إنعام وإحسان يكونان من منعم ومحسن ،لا يكونان خارجين إلا من نوعين : إما جلب خير ونفع ، وإمّا دفع شرّ وضرر ، والله سبحانه أنعم على قريش بكلا الإنعامين ، فعبادته سبحانه ليست وظيفة شرعية لهم فحسب ؛ بل هي وظيفة إنسانية ، فإن شكر المنعم من الأمور الفطرية التي فُطر عليها البشر ، فعبادة غير الله مع ما له سبحانه من الإنعام والإحسان على خلاف الفطرة وكفران لنعمه تعالى .

ثمّ إضافة الرب « لهذا البيت » ـ ولم يقل فليعبدوا ربّ العالمين أو ربّكم أو ربّ الناس وأمثالها ـ لعله لتوجيه ساكني مكّة ومجاوري بيت الله إلى أنّ جميع ما لكم من العزّة والكرامة ، والمال والثروة ، والسيادة على سائر البلاد وأهلها ، مع أنها كانت في واد غير ذي زرع ، ولكن كل ذلك نتيجة بركات هذا البيت . حيث دعا إبراهيم عليه السلام : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1] فبهذه المناسبة أضيف الرب إلى البيت ، وقال تعالى : ﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت﴾ ويمكن أن يكون فيه إشارة لطيفة وخفية إلى ما قاله عبد المطلب حينما واجه أبرهة ، على ما هو معروف في التاريخ ، من أنه دخل على أبرهة ، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجلّه وأعظمه

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له كنت قد أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلّمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا ربّ الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه . ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم بالخبر ، وأمرهم بالخروج من مكّة والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَهُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدواً محالك

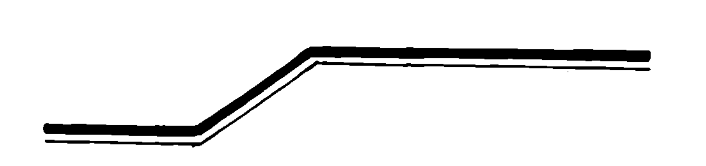
إن كنت تاركهم وقبلتنا مر ما بدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها ، فإذا هو بطير فقال : والله إنها لغريبة ، لا نجديّة ولا تهاميّة ولا حجازيّة ، وإنّ لها لشأناً . . . إلى آخر القصّة .

فمن المحتمل قويّاً أن هذه القضية كانت دارجة في ألسنة العرب ، وأن رب البيت قد حمى بيته ومنع أبرهة أن يمسّه بسوء . فكلمة «رب البيتِ» كانت تدعو جميع هذه الخواطر وتحييها في أذهان العرب ، وتذكرهم نعمة

الله سبحانه ومنّه عليهم ، وتنبئهم أن ربا كهذا يستحق أن يعبد ، والصفتان المذكورتان للرب بعد هذا تبينان هذا المعنى ﴿**الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾ وقال بعض: الذي أطعمهم من جوع الجهل وآمنهم من خوف الضلالة .

* * *



سُورَةُ الماعُون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ* وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ* فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُم عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ* وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ*﴾ صدق الله العليّ العظيم .

اختلف المفسرون في اسم هذه السورة ؛ هل هو الماعون أم التكذيب بالدين ، وفي آياتها ؛ هل هي سبع أو ثمان ، وفي محل نزولها ؛ هل هي مكيّة أو أن نصفها مكيّ ونصفها مدني ، وفي شأن نزولها ، هل نزلت في شأن العاص بن وائل السهمي أو الوليد بن المغيرة أو عبد الله بن أبي أو أبي جهل ، ومهما كانت فلا تؤثر هذه الأمور في المعاني السامية التي تشملها ، فلذلك لا نتعرض لتلك الأمور ونشرع في تفسير الآيات فنقول :

الألف : في « أرأيت » ألف الاستفهام ، ولها أربعة معان في الكلام : التقرير والتثبيت والإنكار والوعيد .

فالتقرير كقولك : « أما فعلت أما قلت » قال الله تعالى : ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ

الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1] . و ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾[2] .

والتثبيت كقـولـك : « ألست عـالمـاً » قـال الله تعـالى : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[3] .

والإنكار كقولـك : « أضربت زيـداً » قال الله تعـالى : ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾[4] .

والوعيد كقـولك : « أتضـربني وتطمـع بالسلامة » قال الله تعـالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[5] .

وهذا الموضع تقريـر للتعجب من حال الكـافر ، كـما نقول :«أرأيت زيداً وفعله». ومثله قوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَوَاهُ﴾[6] .

الدين : إما بمعنى الجزاء كما في قوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوم ِ الدِّينِ﴾[7] ﴿الَّـذِينَ يُكَـذِّبُـونَ بِيَـوْمِ الـدِّينِ﴾[8] وكـما تـدين تـدان . أو بمعنى الملة والإسلام ، كقولـه تعالى : ﴿شَـرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَـا وَصَّىٰ بِهِ نُـوحَاً﴾[9] و ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾[10]. وعلى كل حال قد عُرِّف المكذب بالدين ـ سواء أكان المراد من الدين الجـزاء أو الملة أو الإسلام والقـوانين الإسـلامية ـ بأمور. ثم مـا معنى الرؤيـة ، هل هي بمعنى الـرؤيـة بـالبصر ، أو بمعنى الرؤية بالبصيرة ؟ فإن كان المراد من«الذي»هو الجنس أي جنس من يكذّب بـالدين فـالأقرب أن يكـون المـراد من الـرؤيـة العلم فـالمعنى : « أعـرفت

---

(١) سورة البقرة الآية ٧٧ . (٢) سورة التوبة الآية ٧٨.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٢ . (٤) سورة النجم الآية ٥٩ .
(٥) سورة البقرة الآية ٤٤ . (٦) سورة الفرقان الآية ٤٣ .
(٧) سورة الفاتحة الآية ٤ . (٨) سورة المطففين الآية ١١ .
(٩) سورة الشورى الآية ١٣ . (١٠) سورة ال عمران الآية ١٩ .

المكذب بالدين بصفاته اللازمة لتكذيبه ؟ فإن لم تعرفه فنحن نعرفه لك» .
﴿**فذلك الذي يدعّ اليتيم**﴾ إلى آخر الآية ، وأما إن كان المراد من «الذي»العهد ، فحينئذ يكون المراد من الرؤية الرؤية بالبصر ، وإن كان يتحمل معنى العلم أيضاً ، وربما يؤكدكون «الذي»للعهد ما روي أن أبا جهل كان وصياً على يتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه دفعاً شنيعاً فيئس الصبيّ ، فقال له: أكابر قريش : قل لمحمد يشفع لك ، وكان غرضهم الاستهزاء . وهو صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن يردّ محتاجاً ، فذهب معه إلى أبي جهل ، فقام أبو جهل فبذل المال لليتيم . فعيّرته قريش وقالوا : أصبوت ؟ فقال لا والله ما صبوت ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيّ . وقال ابن جريح : كان أبو سفيان ابن حرب ينحر في كل أسبوع جزورين ، فأتاه يتيم يسأله شيئاً فقرعه بعصاه فأنزل الله فيه:

﴿**فذلك الذي يدعّ اليتيم**﴾: دعّه دعّاً أي دفعه دفعاً عنيفاً . يستفاد من الآية الشريفة أمور :

الأول : أشارت الى المكذب بلفظ الإشارة ، وجعله كالحاضر والمحسوس وقابلاً للإشارة فكأنّه جعله مطرحاً للأنظار حتى يعرفه عموم الناس ويرون معايبه .

وثانياً : أشار إليه بأداة الإشارة إلى البعيد ، ليعلم أن المشار إليه بعيد عن مقام المتكلم وعن قربه وهو الله سبحانه .

وثالثاً : كلمة يدع تدل على أن اليتيم جاءه لطلب شيء من ماله أو من مال غيره ، وهو زجره ودفعه ، فيعلم من ذلك أن اليتيم كان محتاجاً

وفقيراً . وبالتوجه إلى هذه النكات تعلم خباثة نفس المكذّب وأخلاقه المرذولة .

وأما دلالة هذا العمل على تكذيب الدين :

فإن جعلنا الدين بمعنى الملّة والأحكام الإسلامية فدلالته واضحة ، لأن من أهم أحكام الدين وحتى الأحكام الاجتماعية رعاية حال اليتيم والاهتمام بشأنه ، وأن الرفق بالأيتام من أخلاق المؤمنين بالله ، وما ذكر من صنع رسول الله بالأيتام وإشفاق أمير المؤمنين عليه السلام عليهم ، حتى قيل له أبو الأرامل والأيتام، وما ورد في الروايات من الحثّ عليهم والاشفاق لهم ، كقوله عليه السلام : «من مسح يده على رأس يتيم رفقاً به ، جعل الله له في الجنة بكل شعرة مرّت تحت يده قصراً أوسع من الدنيا بما فيها ، وما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون». والروايات الكثيرة في أن من مسح يده على رأس يتيم ترحّماً له أعطاه الله تعالى بكل شعرة نوراً يوم القيامة ، وكتب الله له بكل شعرة مرّت يده عليها حسنة ،ومن أجلس اليتيم إلى خوانه ويمسح على رأسه يلين قلبه ، وأن اليتيم إذا بكى اهتزّ له العرش ، وغير ذلك من الأخبار ، فعلى هذا من يصدّق بالدين يكون مراعيا لحال اليتيم ولا يزجره ، فزجره ودعّه علامة لتكذيبه الدين .

وإن قلنا بأن الدين هو بمعنى الجزاء ، فدلالة دعّ اليتيم على تكذيب الدين من جهة أنه قد ثبت عند الحكماء والمحققين أن الأعمال في هذه الدنيا بمنزلة البذور والدنيا مزرعة الآخرة ، فكل عمل بذر لثمرة لا محالة . غاية الأمر أن بذور الأعمال مختلفة ، فكما أن من البذور ما ينمو ويثمر في شهور قليلة ، ومنها ما ينمو ويثمر بعد سنتين أو أزيد ، كذلك من الأعمال ما ينمو ويثمر بعد انقضاء عمر العامل وهو بطيء النمو ، ومنها ما هو

سريع النمو ويثمر في هذا العالم قبل الانتقال إلى عالم الآخرة .

وقد أشير إلى هذا المعنى في كثير من الأخبار بالنسبة إلى جملة من الأعمال ، فقد وردت روايات كثيرة في أن صلة الرحم توجب طول العمر ، كما أن قطع الرحم يوجب قصر العمر ، فهذان العملان من الأعمال التي تثمر في هذه الدنيا ، وهكذا ما ورد من أن الملك يبقى مع الكفر ، ولا يبقى مع الظلم ، وأن صلاة الليل تزيد في الرزق ، وغير ذلك إلى ما لا يسعنا استقصاؤه . فكل عمل ذكر له أثر خير أو شرّ في هذه الدنيا فهو من النوع الذي يثمر سريعاً ، وكل عمل قد وُعد صاحبه بالعذاب والعقاب أو الثواب والجزاء في الآخرة على اختلاف مراتبها ، فإن منه ما كان مؤثراً في القبر والبرزخ من النعيم أو العذاب في البرزخ ، ومنه ما كان له تأثير في الحشر ، ومنه ما كان له تأثير في النار أو الجنة . فكل ذلك من البذور التي تثمر ، ولكن لا في هذا العالم بل تتأخر ثمرة هذه الشجرة .

والرفق باليتيم أو زجره من الأعمال السريعة النمو والثمر ، وقد أشير إلى هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ﴾[1] بل يمكن أن يقال : إن الله تعالى أوعد في مال اليتيم عقوبتين : عقوبة الآخرة النار وعقوبة الدنيا قوله « فليخش الذين الآية » . فعلى هذا، الذي يدعّ اليتيم فهو من الذين يكذّبون بالجزاء . نعم التكذيب في المقام أعم من التكذيب اللساني والتكذيب العملي .

وقد ورد تأويل اليتيم بثلاثة :

---

(١) سورة النساء الآية ٩.

أحـدها : مـا ورد في بعض الموارد أن المـراد من اليتيم رسـول الله ، وقد ورد تأويل اليتيم في رسول الله ، كما في الكافي وغيره . عن الباقر عليه السلام في قولـه تعالى : ﴿يَتِيمـاً ذَا مَقْرَبـةٍ﴾[1] . قال : يعني رسـول الله ، والمقـربة : قـربه ، ويؤيـد هـذا التـأويـل قـولـه تعـالى : ﴿أَلَمْ يَجِـدْكَ يَتِيمـاً فَـآوَىٰ﴾[2] فعلى هـذا دلالة آيـة دعّ اليتيم في سورة المـاعون عـلى تكـذيب الدين واضحة جداً .

وثانيها : مـا ورد من تأويله وتـأويل اليتـامى بالأئمّـة عليهم السلام وأيتام آل محمد ، من ذلك ما ذكره الصدوق في الخصال عن الصادق عليـه السـلام ، قال : إن الكبـائر سبعـة : فينا نـزلت ومنّـا استحلّت ، فـأوّلهـا الشرك بالله ، ثـم قتـل النفس التي حرّم الله ، وأكـل مال اليتيم ، وعقـوق الوالدين ، وقـذف المحصنة ، والفـرار من الزحف ، وإنكـار حقّنا . فـأما الشـرك بالله فقـد أنزل الله فينـا ما أنـزل ، وقال فينـا رسول الله مـا قال ، فكذبوا الله وكذبوا رسوله فـأشركـوا بالله . وأمـا قتل النفس التي حـرّم الله فقد قتلوا الحسين وأصحابه ، وأما أكل مـال اليتيم فقد ذهبـوا بفيئنا الـذي جعل الله لنا وأعطوه غيرنا . الحديث .

ويؤيد هذا التـأويل مـا ورد في تفسير القمي في قـوله تعـالى : ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ قال : حقـوق آل محمد التي غصبـوها ، ويؤيـد هذا ما ورد في تأويل قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[3] بمـا يخرج إلى الناس من علم الإمام .

وثالثها : مـا ورد من تأويـل اليتيم بمن غاب عنـه إمامـه من ضعفاء

---

(١) سورة البلد الآية، ١٥ . (٢) سورة الضحى الآية ٦ .
(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٥

الشيعة ومن لا يقدرون على الوصول إليه ، وانفراده وانقطاعه عن الإمام . فعن أبي محمد العسكري عن آبائهم عليهم السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : أشدّ من يُتم اليتيم الذي انقطع عن أبيه يتم يتيم انقطع عن إمامه ، ولا يقدر على الوصول إليه ، ولا يدري كيف حكمه في ما يقتدي به من شرائع دينه ، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا ، وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره ، وهو من أيتام آل محمد ، المنفرد عن مواليه ، ألا فمن هداه وأرشده وعلّمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى . وفي زيارة أمير المؤمنين عليه السلام : « كنت للمؤمنين أباً رحيماً » . وفي رواية طارق بن شهاب عن عليّ عليه السلام « الإمام الأب الشفيق » الخبر .

والرواية المعروفة : أنا وعليّ أبوا هذه الأمة . والشواهد لذلك كثيرة .

﴿ولا يحضّ على طعام المسكين﴾ :

أي لا يحثّ أهله وغيرهم من الموسرين على طعام المسكين ، دلالة هذا الأمر على تكذيب الدين تعلم مما ذكرنا في الآية السابقة ، ويستفاد من هذه الآية أمران :

الأمر الأول :

إن وظيفة الأغنياء لا تنحصر بإعطائهم الزكاة والحقوق المالية للفقراء ، بل عليهم ـ مضافاً إلى أداء زكاتهم وحقوقهم ـ حثّ الناس على هذا الأمر . والسرّ في ذلك واضح إيجابياً وسلبياً . أما سره الإيجابي فهو أنه ربما لا يكون إعطاء شخص حقوقه الواجبة للفقراء كافياً في رفع

حوائجهم ، فلا بدّ لهم من تأمين حاجاتهم من غير نفسه ، وذلك يتمّ بحثّ الغير على ذلك ، كما نراه في الخارج ، فإن أكثر الأمور الخيرية والاجتماعية تتحقق بهذا الأمر ، ولا يتيسّر لشخص واحد القيام بتلك الأمور غالباً ، بل لا بُدّ له أن يستعين بغيره على ذلك ، هذا من ناحية الإيجابَ . وأما سرّه السلبي فهو أنه إذا ترك حثّ غيره على المعروف فكيف يعمِل هو نفسه ؟ ويُعلم مِن ترك حثّ الغير استحكام رذيلة البخل في نفسه ، وهذه المرتبة من البخل من أرذل مراتبه فإن البخيل تارة يبخل من مال نفسه وأخرى من مال غيره . والثاني أقبح من الأول كما روي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقسم تمراً للفقراء فأَعطى منه مقداراً لفقير ، فقال أحد : يا أمير المؤمنين هذا المقدار له كثير ، فقال عليه السلام : لا كثّر الله في المسلمين أمثالك ، أنا المعطي وأنت تبخل ؟ - نقلت الرواية بالمعنى - فالذي لا يحضّ على طعام المسكين هو على إعطائه الطعام من ماله الخاص أبخل .

الأمر الثاني :

إنه يستفاد من هذه الآية أن للفقراء سهماً في أموال الأغنياء ، وذلك للعدول عن الإطعام إلى الطعام وإضافته إلى المسكين ، فإن الإضافة إضافة لاميّة ، كغلام زيد : أي غلام لزيد فطعام المسكين بمعنى طعام لمسكين ، واللام للملكية ، وربما يؤيّد ذلك ما رويناه من شأن نزول الآية أن أبا جهل كان وصياً على يتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه دفعاً شنيعاً . . إلى آخر الرواية . . .

ويؤيّد ما ذكرنا من التأويل في الآية السابقة، من تأويل اليتيم بضعفاء الشيعة ، ما ورد في تأويل المسكين ، كما في تفسير الإمام الحسن العسكري

عليه السلام قال : إن محبّي محمد وآله مساكين ، مواساتهم أفضل من إطعام الفقراء ، والذين هم سكنت جوارحهم وضعفت قواهم عن مقابلة أعداء الله الذين يعيرونهم بدينهم ، ويسفهون أحلامهم ، ألا فمن قوّاهم بفقهه وعلّمهم حتى أزال مسكنتهم قضى لله بذلك حقاً على لسان النبي . الخبر . . .

﴿فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ :

قبل تفسير الآية نذكر نكتةً أدبية لها ربط بمعنى الآية أيضاً ، وهي أنه قال بعض مفسّري العامة إن أنس قال : الحمد لله على أن لم يقل«في صلاتهم»، وذلك أنه لو قال«في صلاتهم»لكان المعنى أن السهو يعتريهم وهم فيها ، إما لوسوسة شيطان أو لحديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم والخلوص منه عسير ، ثم روى أنس تأييداً لقوله رواية : وهي أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : هذه خير لكم من أن يعطى كل واحد منكم مثل جميع الدنيا !!. وروى هذا أحمد عن عطاء بن دينار أيضاً ، ولعله أخذها من أنس .

السهو في الشيء والسهو عن الشيء وإن كان بمعنى واحد في اللغة كما في المنجد . « سها . يسهو . سَهْواً . وسُهُواً في الأمر وعن الأمر غفل عنه ونسيه وذهب قلبه إلى غيره » لكنه يمكن أن يقال في تأييد قول أنس إن الظاهر في السهو عن الصلاة هو السهو عن أصلها ، بأن ينساها رأساً بخلاف السهو في الصلاة ، فإنه ظاهر في أن السهو يكون في أجزائها وشرائطها الداخليّة ، ولكن المسلم لا يخلو من كليهما ، فكما أن الإنسان يسهو في الصلاة كذلك ربما ينسى أن يصلي صلاته ، فكلاهما مورد للابتلاء ويبتلى بهما المؤمن ، فلا معنى لحمد أنس !!.

وإنما النكتة التي غفل عنها أنس هي أن السهوبقسميه ضربان : أحدهما أن لا تكون موجباته ومولداته من الإنسان ويكون بغير اختياره ، كمجنون يسبّ إنساناً . والثاني أن تكون موجباته منه ، كمن شرب خمراً وزال عقله ثم صدر منه منكر لا عن قصد إلى فعله ، فالأول معفو عنه ، والثاني مأخوذ به ، سواء أكان في أصل الفعل أو في أجزائه ، وذلك لأنه من باب الامتناع بالاختيار وهو لا ينافي الاختيار ، فإذا كان السهو الصلاتي من قبيل القسم الأول فلا بأس به سواء أكان السهو في الصلاة أو عن الصلاة ، وأما إذا كان من قبيل القسم الثاني فيشمله قوله تعالى : ﴿فويل للمصلّين﴾ أعمّ من السهو في أصل الصلاة أو في جزئها وشرطها .

التفسير : ليست كل عبادة مرضيّة للرب تعالى وموجبة لقربه وثوابه ، بل للعبادات شرائط عامة وشرائط خاصة ، لا تقبل ، بل لا تصحّ العبادة في بعض الموارد من دون رعاية تلك الشروط ، فما يستفاد من هذه الآية المباركة أن من أهمّ الشرائط الشرطان المذكوران : أحدهما الاهتمام بالصلاة ، وثانيهما الإخلاص فيها ، فإنه مع عدم رعاية هذين الشرطين ليست غير مقربة فحسب ، بل هي مبعدة عن الله تعالى ، فالويل لهذا المصلي . ونزيد ما ذكرناه توضيحاً أنه يستفاد من الآية الشريفة أمور :

الأول : أنه ليست كل عبادة مقربة لله ، بل كما أن للعبادة شروطاً للصحة وبدونها تكون العبادة باطلة ، كذلك تكون لها شروط للقبول ، وبالإخلال بها تسقط العبادة عن حيّز القبول ، والعبادة غير المقبولة لا تكون مقرّبة قطعاً ، وهذا ما نراه بالوجدان في عباداتنا ، فإن للقرب من الله سبحانه آثاراً تظهر في العبد ، فلذلك شُبّه المؤمن في بعض الروايات بالحديدة المحماة ، إشارة الى أن لقرب النار أثراً في الحديد ، وأن الحديد

المظلم البارد يتأثّر من قرب النار ، فيتنوّر بنورها ويأخذ من حرارتها ويظهر فيه آثارها ، كذلك المؤمن إذا قرب من الله سبحانه يظهر فيه آثاره تعالى وصفاته ، وقد أشير إلى ذلك في كثير من الروايات ، منها الرواية المعروفة المتفق عليها بين العامة والخاصة في القرب بالنوافل . فعلى ذلك لا بدّ أن يكون للعبادة أثر في القرب ، وذلك ما ننويه في أول الصلاة ونشترطه في صحة الصلاة وهو الإتيان بها بقصد القربة ، فننوي أننا نصلي هذه الصلاة قربة إلى الله تعالى أي لنتقرب إلى الله . فإذا وجدنا في أنفسنا أنه ليس من آثار القرب إلى الله فينا شيء علمنا بالضرورة أن عبادتنا لم تكن مقربة لنا ، لفقدها آثارها التي تكون مترتبة على العبادة الصحيحة لا محالة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1] فإذا صلّينا خمسين سنة ورأينا أن صلاتنا لم تنهنا عن الفحشاء والمنكر علمنا أنها ليست بالصلاة لضرورة قضية منطقية ، وهي عكس نقيضها ، فإن عكس النقيض لقضية النار حارة مثلاً أن ما ليس حاراً فليس بنار ، فيكون عكس نقيض الآية ما لم تنه فليست بصلاة . فإذا لم تكن صلاة فليست بمقرّبة ، كما ورد في الرواية : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده عن الله إلاّ بعداً » والحاصل أنه لا يلزم أن تكون كل عبادة ظاهراً مرضية لله تعالى ، بل يمكن أن يكون الإنسان مصلياً ومع ذلك يكون له الويل .

الثاني : يستفاد من الآية الشريفة أن من أهمّ الشرائط في الصلاة الاهتمام بها وبآدابها وشرائطها ، حتى لا يقع فيها سهو ، وهو كذلك ، فإن الروايات في باب حضور القلب في الصلاة أكثر من أن تذكر ، وأنه لا يقبل الله من الصلاة إلا بقدر ما أقبل العبد في الصلاة على الله .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

فعن الصادق عليه السلام : « إذا أحرمت في الصلاة فأقبل إليها فإنك إن أقبلت أقبل الله إليك ، وإن أعرضت أعرض الله عنك » . فربما لا يرفع من الصلاة إلا ثلثها أو ربعها أو سدسها بقدر ما أقبل المصلي عليها، وأن الله لا يعطي الغافل شيئاً» .

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: « يا أبا ذرّ ركعتان مقتصدتان في تفكّر خير من قيام ليلة والقلب ساه » . والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

الثالث : يستفاد من الآية الشريفة أن الصلاة وكذلك كل عبادة لا بدّ أن يؤتى بها لله سبحانه وبغير رياء ، فإن الرياء مبطل للعمل ، ومن أتى بالصلاة رياء فالويل له ، وربما يستفاد من الآية أن الرياء مطلقاً مانع من قبول الصلاة ، سواء أكان في الصلاة أو في غيرها . فالويل للمرائي حتى إذا كان من المصلين بغير رياء .

وللرياء بحث طويل ، ولأصحاب الفن فيه مطالب جليلة ذكرنا شيئاً منها في رسالتنا في هذا الموضوع « الرياء والعجب » المطبوعة في بيروت .

﴿وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ﴾ :

الماعون : فاعول من المعن والمَعْنْ : الشيء القليل ، فإن قلنا بأن المراد منه الزكاة كما فسّر بذلك فلأن الزكاة قليل من كثير ، ويؤيّد كون المراد منه الزكاة تقارنه بالصلاة كما هو دأب القرآن في كثير من الموارد .

قال في المنجد : المُعان والمعونة والمعون بمعنى العون والمساعدة وأما الماعون فقد ذكره المنجد في مادة مَعَنَ وفسّره بكلّ ما انتفع به وبالمعروف وبالزكاة ، فعلى هذا من المحتمل وقوع سهوٍ من المفسر الكبير الطباطبائي

حيث قال : الماعون كل ما يعين الغير في رفع حـاجة من حـوائج الحيـاة ، كالقرض تقرضه والمعروف تصنعه ومتاع البيت تعيره . قال وإلى هذا يرجع متفرقات ما فسر به فكأنه أخذه من عون وهو خلاف ما ذهب إليه المنجد .

* * *

سُورَةُ الكَوْثَر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر﴾

صدق الله العليّ العظيم .

من بدء ظهور الإسلام إلى اليوم منذ أربعة عشر قرناً والقرآن العظيم يتحدّى ويخاطب العالم ويقول ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[1] وإذا لم تقدروا على الإتيان بمثله ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[2] : فيتنازل في التحدي كمّاً وكيفاً ، أي مع قطع النظر عن المحتوى والمعاني تكون السور العشر في لطافة البيان وأسلوب الألفاظ والجاذبية من المحاسن اللفظية مثل القرآن ، وإن عجزتم عن دلك أيضاً ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾[3] وقال تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾[4] . . .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨. (٢) سورة هود الآية ١٣ .

(٣) سورة يونس الآية ٣٨ . (٤) سورة البقرة الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ .

فالقرآن في هذا التحدي لم يخصص بالسور الطوال أو المتوسطة ، بل تحدى مطلقاً ، فيشمل الإطلاق السور القصار أيضاً ، وربما يتصوّر أن المعارضة مع القرآن في السور القصار أسهل منها في السور الطوال ، ولكن كما يقول بعض أهل الكلام : إن المعارضة في السور القصار أشكل وأصعب،كما يقول مصطفى صادق الرافعي في كتاب إعجاز القرآن . وعلى أيّ حال : فمن السور القصار ، أو أقصر سورة في القرآن هذه السورة المباركة ، التي جميع آياتها أربع آيات بمقدار سطر واحد ، وكان في زمان نزول القرآن أبطال الكلام من الشعراء والخطباء ، بلغ العرب في لسانهم وبلاغتهم الذروة العليا ، ومن ذلك الزمان إلى يومنا هذا جاء مليارات من الخطباء والكتاب والمبرزين ، واليوم أيضاً موجودون وفيهم نوابغ البلاغة والكلام في اللغة العربية وغيرهم ، بل ومن أعداء الإسلام من مترجمي التوراة والإنجيل ، ومؤلفي الكتب والمجلات وسائر الكتب التبليغية ضدّ الإسلام ، أو من غير العرب كالفرس وغيرهم ، فنسأل لماذا لا يكتبون سورة واحدة كسورة التوحيد أو الكوثر ، ولو بمعاضدة بعضهم بعضاً وتعاونهم، لأن القرآن لم يخص بالتحدي شخصاً واحداً وقال « وادعوا من استطعتم » وعوضاً عن الأموال الهائلة التي تصرف في الدعاية ضد الإسلام والجهود التي تتحمّل في سبيل المعارضة ، أليس من الأحسن أن يأتوا بمثل سورة واحدة من السور القصار ويستريحوا من معارضة الإسلام ؟ وتنحل مشكلة المعارضة ويخرج الإسلام من الساحة إلى الأبد ؟ هل توجد معجزة أوضح وأحسن من هذا بين معجزات جميع الأنبياء ؟ أليست هذه معجزة ؟ إن القرآن أخبر قبل أربعة عشر قرناً بأن هذا لا يكون لأنه قال **﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾** فعلى أي حال لسنا في مقام إثبات معجزيّة

القرآن ، ولكن حيث إن هذه السورة المباركة مشتملة على معجزات قدّمنا هذا المختصر تمهيداً .

فنقول : اتّفق المفسرون على أن السورة الشريفة نزلت حين قال بعض الكفار للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أبتر » فنزلت السورة جواباً لهم تخبر النبي بالإهانة التي صدرت منهم في غيبته ، وتؤكّد للكفار أن النبي متّصل بمبدأ الوحي ، وتكون سلوة له بإعطائه الكوثر ، وبالانتقام من أعدائه ، وتأمره بالشكر في مقابل هذه الموهبة العظيمة بالصلاة والنحر .

وأما القائل والمتكلم بهذا اللفظ فقد اختلفت الأقوال فيه ، والمشهور أنه العاصي بن وائل . ففي الدر المنثور أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد رسول الله القاسم ، ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية ، فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمي قد انقطع نسله فهو أبتر ، فأنزل الله ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ .

وفيه أخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه : توفي القاسم بن رسول الله بمكة ، فمرّ رسول الله وهو آت من جنازته على العاص بن وائل وابنه عمر ، فقال حين رأى رسول الله : إنّي لأشنأه ، فقال العاص بن وائل : لا جرم فقد أصبح الأبتر ، فأنزل الله ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ . وفي بعض الآثار أن الشانئ هو الوليد بن المغيرة ، وفي بعضها أبو جهل ، وفي بعضها عقبة بن أبي معيط ، وفي بعضها كعب بن الأشرف .

يقول الميزان : والمعتمد ما تقدم، ويؤيده ما في احتجاج الطبرسي عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث يخاطب به عمر بن العاص ، وأنك ولدت على فراش مشترك ، فتحاكمت فيك رجال قريش . منهم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وعثمان بن الحارث والنضر بن الحارث بن كالدة والعاص بن وائل ، كلهم يزعم أنّك ابنه ، فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسباً وأخبثهم منسباً وأعظمهم بغية ، ثم قمت خطيباً وقلت : أنا شانىء محمد . وقال العاص بن وائل إنَّ محمداًرجل أبتر لا ولد له فلو قد مات انقطع ذكره . فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿**إنّ شانئك هو الأبتر**﴾ . . الحديث .

كانت العرب ترى أن أولاد البنت ليسوا أولاداً للآباء ، وإنما الأولاد هم أولاد الأبناء ، وكانت تقول :

بنونا بنو آبائنا وبناتنا   بنوهنّ أبناء الرجال العواهر

فعلى هذا قالوا في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ما قالوه ، وكانوا يرجون أن ينقطع نسل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعده لأنّه ليس له ولد ذكر ، فقال الله تعالى : ﴿**إنّا أعطيناك الكوثر**﴾ فبشّر الله تعالى نبيّه بالكوثر .

وأما تفسير السورة فنذكر أولاً اللطائف والبدائع الموجودة في السورة .

الأول : مع أن المتكلم هو الله وهو الصادق المصدق ، صدّر الكلام بحرف التحقيق والتأكيد ، وهو حرف « إن » ليفيد أنّ مضمون الجملة أمر محقق ومؤكّد .

الثاني : جاء بالضمير للمتكلم مع الغير لإفاة خصوصية وعناية زائدة وقال : إنّا أعطيناك .

الثالث : جاء بضمير المتكلم بصيغة الجمع ليفيد فائدة أخرى ، وهي عظمة المعطي ، ويفيد بذلك عظمة الإعطاء وما أعطاه ، وبعبارة أخرى وزيادة للتوضيح : إن المتكلم في القرآن هو الله ولكن مع ذلك يقول سبحانه بصيغة الرب والرحمن والخالق ، مثلاً يقول **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾**(١) **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾**(٢) **﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾**(٣) وغيرها من الآيات ، ولكن في هذا المورد عدل من الاسم إلى الضمير . هذا التعبير فيه نكتتان : الأولى أنه يعطي مزيد خصوصية وائتلاف بين المتكلم والمخاطب ، والثانية جاء بصيغة الجمع عوضاً عن الإفراد ، وهو يفيد أن المتكلم في مقام تعظيم نفسه ، ومن المعلوم أن المعطي إذا كان عظيماً وكان العطاء صادراً عن مقام العظمة يكون العطاء عظيماً ، ولا يحسن أن يذكر المتكلم نفسه بالعظمة ثم يذكر عطاءه القليل ، فعلى هذا من أول السورة وبدئها يعلن أنّ ما يعطي لنبيّه أمر خطير وعظيم .

الرابع : اختيار كلمة الإعطاء من بين الألفاظ الدالة على هذا المعنى ، فإن الإعطاء أعمّ مما يقبل الملكية وما لا يقبل ، فنفس الإعطاء يقال في إعطاء تمليك وإعطاء غير تمليك كالأموال والأولاد . مضافاً إلى أنه يفهم من الإعطاء أنه مجرد تفضل من الله سبحانه ، وإذا كان كذلك فلا يكون على حدّ استحقاق العبد بل يكون تفضلاً منه تعالى ، وفضله تعالى

---

(١) سورة القصص الآية ٦٨ .   (٢) سورة يونس الآية ٣ .   (٣) سورة طه الآية ٥ .

غير متناه .

الخامس : أنه أتى بصيغة الماضي لا المضارع والحال ، وهذا يعطي معنيين : **الأول** : لإعلام النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن وسائل سعادتك وعزتك مهيّأة من قبل ، حتى قبل ولادتك ، وليس هذا جزاء عملك وعبادتك حتى يكون محدوداً . **الثاني** : يعطي الاطمئنان للنبي بأنه محقّق الوقوع ، وكل ما يكون محقق الوقوع في المستقبل يؤتى بلفظ الماضي .

السادس : جاء بضمير المخاطب دون اسمه ولقبه وصفاته ، وهذا يعطي ثلاثة معان: **أولاً** : ليشرف النبي بشرف المخاطبة ويكرمه بهذه الكرامة ويكون بهذا كريماً . **وثانياً** : ليعلم أن هذا العطاء ليس من جهة مقامه ونسبه ونبوته ، لأن تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعليّة ، بل هو تفضل محض من الله ، فيؤكّد كونه غير محدود . **وثالثاً** : ضمير المخاطب المفرد يعطي خصوصية في الحب والودّ ، ويستعمل في المحاضرات بين الحبيب والمحبوب .

السابع : لفظ الكوثر صفة أخذ من الكثرة ويفيد المبالغة ، وما يتجاوز عن الحدّ في الكثرة كما يقوله الفخر وعبده سواء كان متعلقه المال أو الأولاد أو العلم ، وأمثال ذلك من الأمور الحسنة أو الأمور السيئة والشرور ، ولكن كثيراً ما يستعمل في الأمور الحسنة ، ومع قطع النظر عن موارد الاستعمال ، ففي الآية لا يمكن أن يكون إلا للأمور الحسنة والخير ، لأن المعطي هو الله والمعطى إليه هو حبيبه ونبيّه ، فلا يمكن أن يكون شرّاً ، ولم يذكر المتعلق والموصوف في الآية ليشمل جميع الأمور الخيريّة الكثيرة ، وهذه نبذة من اللطائف في آية واحدة من هذه السورة المباركة ،

ولا نزيد على ذلك حذراً من التطويل .

وأما المراد من الكوثر ، فقد وقع فيه اختلاف كثير بين المفسرين . وذكر الفخر على ما حكي خمسة عشر قولاً ، مع ذكر أسماء القائلين وأدلتهم ، ونحن نذكر شيئاً منها لتوضيح معنى الكوثر .

الأول : النبوة والكتاب : فحيث إن المخاطب هو الرسول الأعظم ، فأول نعمة تسبق إلى الذهن بمناسبة الحكم والموضوع هي الوحي ونزول القرآن ، ولذا نرى أنه قد ذكرت في القرآن النعم كلها من الوجود وتوابعه ، ولكن لم يذكر شيء منها بمثل ما ذكرت نعمة النبوة بالتجليل والتعظيم ، حيث لم يمنّ سبحانه وتعالى في شيء من نعمه حتى في الجنة والثواب الأخروي وقال : **﴿إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونْ﴾**[1] .

ونهى سبحانه عن المنّة في العطاء وقال : **﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾**[2] ومع ذلك في نعمة النبوة وما يرجع فيها من الهداية ونحوها ذكرها بلفظ المنّة وقال : **﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَىَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يتلوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾**[3] . وقال أيضاً **﴿قُلْ لاَ تَمُنّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمَانِ﴾**[4] .

والحق أن يكون كذلك، لأنّ الإنسان وهو خلاصة الكون غاية خلقه

---

(١) سورة التين الآية ٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٤ .

(٤) سورة الحجرات الآية ١٧ .

هي المعـرفـة والعبـادة . قـال تعـالى : ﴿وَمَـا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ﴾[1] وهذه الغاية لا تتأتى إلا من قبل النبـوة ، ولا يمكن الوصـول إلى هذا الهدف إلا بوسيلة النبي والقرآن . والقرآن هو الكتـاب الذي نجى العـرب الذين كـانوا في ذلـك الحد من الانحـطاط وسفـك الـدمـاء وقتـل النفوس ونهب الأموال ، فأعطاهم العزّة والشرف ، وسوَّدهم على غيرهم في مدّة قليلة ، وهكذا اليوم بعد أربعة عشر قرناً هم في التقدم ، فكما أنه قبل أربعـة عشر قرنـاً تـحـدى المشركين في مكـة الـذين كـانـوا في عهـدهم وعصـرهم أساتـذة الفن ، ونوابـغ للبـلاغـة والفصـاحـة ، وكـانـوا أمـراء الكلام ، ثم في المدينة تحدّى عـلـمـاء اليهود الـذين كانـوا عالمين بأخبـار الأمم وأحكام الأديان والشرائع ، وطلب منهم أن يأتوا بسورة من القرآن ، وحتى اليوم وهو ينادي ويتـحـدى الحضارة الموجودة ، مع ما لها من التقدم في العلم والأدب والسيـاسة ، وإلى الآن لم يـوجـد أحـد يـأتي بمثـل سـورة الكوثر . فلذلك أول ما يسبق إلى الـذهن من الكوثـر هو النبـوّة والقرآن ، اللذان وهبهما الله سبحانه نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم .

الثاني : كثرة الأتباع والأشياع . وهـذا الوجـه أيضاً كـالأول مناسب لعنـوان المخاطب ، وليس معنى كثـرة الأتباع والأشيـاع إلا تقدّم أمـر النبوة ورسالة القرآن الكريم ، فكـما أن الله سبحانـه بعث النبيّ وأنزل القـرآن ، جعل أفئدة النـاس تهوي إليـه ، وجعل القـرآن مؤثراً ونـافذاً في القلوب ، وجعله مغناطيس الأرواح . وهنا منـاسبة أخـرى ، وهي أنه حيث ذكـر في السورة المباركة أعداء النبي ، ومن المعلوم أن العداء ما كان لشخص النبي بل كانوا معادين لدعوته ورسالته ، فمن المناسب أن الله سبحانه يسـلّي نبيّه

---

(١) سـورة الـذاريـات الآيـة ٥٦ .

بتقدم دعوته وكثرة أتباعه ، ويعلم الكفار أن ما تنتظرون من انقطاع دعوته بموت ولده لا مجال له ، بل يكون أعوانه وأتباعه يوماً بعد يوم أكثر فأكثر ، حتى يأتي يوم على خلاف ذاك اليوم الذي كان المسلمون فيه قليلين والإسلام ضعيفاً ، يكون فيه الإسلام قوياً ، وعدد المسلمين يبلغ مليارات ، ويكون مورداً لتوجه العالم إليه ، كيومنا هذا بحمد الله .

الثالث : العلم والفضيلة : ربما يتصور أن يكون الشخص غير معتقد بالوحي والنبوة وعالم ما وراء الطبيعة ، ولكن من المستحيل أن يطلع عالم منصف على ما حواه القرآن الكريم والأحاديث النبويّة من المعارف والعلوم ولا يخضع في مقابل عظمته وعظمة من أتى بها . يقول الفيلسوف المادي شبلي شميل في أشعاره المعروفة

إني وإن أنكرت دين محمد   هل أكفرنّ بمحكم الآيات

ونحن اليوم نرى أنه لم يبق من معجزات الأنبياء في المجتمع البشري أثر ، ونحن أيضاً لا نستطيع أن ندعو الناس إلى الإسلام بتسبيح الحصى في كفّه الكريمة ، أو شقّ القمر بإشارة من أصبعه ، ولكنه ليس في الشرائع الإلهية والكتب السماوية ما يدعو الناس إلى الحقائق العلمية إلا الإسلام والقرآن ، فإنه بتعاليمه الرشيدة يهدي البشر إلى سبيل النجاة ، ويجلب أنظار العالمين نحوه ، وليس بين الأديان دين قد كتبت حول عظمته وأهمّيته مئات من الكتب من غير المنتحلين إلى ذلك الدين سوى الإسلام والقرآن . فعلى المسلمين أن يعرفوا قدر هذه النعمة العظمى ، ويشكروا الله سبحانه على هذه الموهبة السماوية .

هذا بالنسبة إلى العلم أما بالنسبة إلى الفضيلة فإن أخلاق الرسول

الكريم ومحامد أوصافه وصدقه وأمانته كانت إلى حدّ سمي « محمداً الأمين » وهذا من إحدى موجبات تحقق الناس من صدق دعواه، وانجذابهم إلى الإسلام في زمانه وبعد عصره ، من الذين اطلعوا على مكارم أخلاقه من خلال التاريخ وكتب السيرة ، وهذا المعنى للكوثر ، أي معنى العلم والفضيلة يناسب الآية التالية لها ، بل الآيتين ، بأن العلم والمعرفة ملازمان للفضيلة ،وهذا هو الأسلوب الذي اتخذه القرآن الكريم لتربية الناس فيقول : ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[1] والحكمة في لسان القرآن المناهج العلمية والعملية ، كما يقول في سورة بني إسرائيل (الإسراء) بعد بيان أن ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ . . . أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً . . فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ . . . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ . . . وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابنَ السَّبِيلِ . . وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا . . . وإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً . . . وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ . . . وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ . . . وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى . . . وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ . . . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ . . . وَأَوْفُوا الكَيْلَ إذَا كِلْتُمْ . . . وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً . . . ذلِكَ مِمَّا أَوْحَى إلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ .

والصلاة : وهي رأس العبادات الروحية والقلبية والبدنية . والنحر : وهو من أفضل التكاليف المالية والوظائف الاجتماعيّة مرتبطان مع العلم والفضيلة ارتباطاً كاملاً . وأيضاً نتيجة هذين العاملين هي العظمة وحسن

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

الشهرة بين الناس ، وبقاء الذكر والخلود ، فيكون جواباً للأعداء الَّذينَ تكلموا فيه حتى ما قالوه من قولهم « الأبتر » .

الرابع : كثرة الأولاد : إنّ كثرة الأولاد من النعم الإلهية العظمى ، والولد الصالح الذي يكون ناصراً لأبيه وقرة عينه في الحياة الدنيا ، وموجباً لبقاء اسمه بعد الموت ، وسبباً لوصول الخيرات والبركات إلى روحه ، قال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾**[١] .

قال الفيض رحمه الله : يلحق بهم من صلح منهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم ، تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم ، وليكونوا مسرورين بهم آنسين بصحبتهم ، وهكذا قوله تعالى : **﴿الَّذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ . . . إلى قوله وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَاتِهِمْ﴾**[٢] . والذرية الصالحة من دعاء عباد الرحمن **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيِنٍ﴾**[٣] ودعاء زكريا **﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾**[٤]. والرواية المعروفة : إذا مات ابن آدم انقطع من الدنيا عمله إلا في ثلاث ، أحدها : وولد صالح يدعو له . ولذلك يقال له إنه من الباقيات الصالحات ، وهذا الوجه يناسب شأن النزول ، ومضمون السورة أيضاً يناسبه مناسبة تامة .

فإن أعداء النبي زعموا أنه ينقطع ذكره بموته ، فبشّره الله سبحانه بأن ذرّيته تكون كثيرة تبقي ذكره ، ويكون أعداؤه « أبتر » وبلا عقب

---

(١) سورة الرعد الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ . (٢) سورة غافر الآية ٧ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٧٤ . (٤) سورة آل عمران الآية ٣٨ .

فيموت ذكرهم ، والذرية الصالحة نعمة سألها الأنبياء العظام وإبراهيم عليه السلام : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[1] ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَىٰ الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ﴾[2] ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾[3] وغيرها من الآيات . ولكن الله سبحانه أعطى هذه النعمة العظمى لنبيّنا من دون السؤال والإلحاح ، ومن بنتٍ واحدة ، البنت التي لم تكن تعدّ في الجاهلية من الأولاد ، وخصوصاً البنت التي توفيت في أوائل شبابها وقد بلغ حبّه سبحانه لنبيّه إلى حدّ تكفّل هو الرد على أعدائه .

واليوم لا يوجد على وجه الأرض أحد يكون أولاده مثل أولاد رسول الله معلومين ومعيّنين ، مع قطع النظر عن الأفراد الذين اختفى نسبهم ، وكان أجدادهم في زمن خلفاء الجور أخفوا نسبهم خوفاً منهم ، كما أن أحداً في زماننا أثبت سيادته عند آية الله البروجردي واعتمّ بالعمامة السوداء كعلامة للسيادة ، مضافاً إلى المقتلة التي وقعت في دولة بني أمية وبني العباس في آل محمد ، وقضية حميد بن قحطبة مشهورة ، ومن جملتها حادثة كربلاء التي لم يبق بعدها من آل النبيّ صلّى الله عليه وآلهوسلّم سوى عليّ بن الحسين عليه السلام على المشهور .

ومع ذلك كلّه فإن الله سبحانه أعطى هذه البركة لذرية النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . والنكتة المهمة أن هذه البركة والزيادة لا تختص بالعدد والكم فقط ، بل في الكيفية أيضاً ، لذلك فإنها ذرية منهاالأئمة المعصومون ، وإلى يومنا هذا من العلماء والحكماء والكتاب والزهّاد والعبّاد والفقهاء ومراجع التقليد ، وخلاصة نوابغ البشرية العلمية والأدبية

---

(١) سورة هود الآية ٧١ . (٢) سورة إبراهيم الآية ٣٩ . (٣) سورة الصّافّات الآية ١١٣ .

والسياسية والاجتماعية ، والمجاهدين في سبيل الله ، وفي طريق الحق وتحقيقه ، وشهداء طريق الحرية والديانة ، على النحو الكلي ، مفاخر البشرية في جميع القرون ، كانت من هذه الذرية الطاهرة .

الخامس : الحوض أو النهر في الجنّة : جميع التفاسير من السنة والشيعة ذكروا هذا الوجه للكوثر ، وذكروا له خصوصيات كورود الماء من النهر إلى الحوض ، أو من الحوض إلى النهر ، وأوصافاً عجيبة من أن منبعه سدرة المنتهى ، وأركانه تحت العرش ، وحصاه من الدر والياقوت والمرجان ، وماءه أحلى من العسل، وأبيض من اللبن ، والكؤوس التي على حافته بعدد نجوم السماء ، وغير ذلك ، وساقيه أمير المؤمنين عليه السلام يقول السيد الحميري في قصيدته :

وأزمعوا غدراً بمولاهم	تبّاً لما كانوا به أزمعوا
لا هم عليه يردوا حوضه	غداً ولا هم فيهم يشفعوا
حوضاً له ما بين صنعاء	إلى أيلة أرض الشام أو أوسع
ينصب فيه علم للهدى	والحوض من ماء له مترع
يفيض من رحمته كوثر	أبيض كالفضة أو أسطع
حصاه ياقوت ومرجانة	ولؤلؤ لم تجنه أصبع
بطحاؤه مسك وهاماته	تهتز فيها مونق مونع
فيه أباريق وقدحانه	يذب عنه الرجل الأصلع
يذبّ عنه ابن أبي طالب	ذباً كجربا ابل شرّع
والعطر والريحان أنواعه	ذاكٍ وقد هبت به زعزع
ريح من الجنة مأمزرة	ذاهبة ليس لها مرجع

إلى آخر الأبيات .

وفي الأمالي عن ابن عباس قال : لما نزلت على رسول الله ﴿إنّا

أعطيناك الكوثر﴾ قال له علـيّ بن أبي طالب : مـا الكوثـر يا رسـول الله ؟ قـال : نهر أكرمني الله تعـالى به . قـال عليّ عليـه السلام : إن هـذا النهـر شريف فانعته لنا يا رسول الله ، قال : نعم يا علي ، الكوثر نهر يجري تحت عرش الله تعالى ، مـاؤه أشد بيـاضاً من اللبن وأحـلى من العسل وألـين من الزبد ، حصاه زبرجد وياقوت ومرجان ، حشيشه الزعفران ، ترابه المسـك الأذفر ، قواعده تحت عرش الله عز وجل ، ثم ضرب رسول الله على جنب أمير المؤمنين وقال : يا علي ، هذا النهر لي ولك ولمحبيك من بعدي .

وفي المجمع عن النبي صلّى الله عليـه وآله وسلم أنـه سئل عنـه حين نزلت السورة فقال : نهر وَعَدَنيه ربّي عليه خير كثير وهـو حوضي تـرد عليه أمّتي يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء فتختلج القرن منهم فأقول يا ربّ إنهم من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السـلام قال : أنـا مع رسـول الله مع عترتي على الحوض ، فمن أرادنـا فليأخـذ بقولنـا وليعمل عملنـا ، فإن لكل أهل نجيباً ، ولنا نجيب ولنا شفاعة ، ولأهل مودتنا شفـاعة فتنـافسوا في لقـائنا عـلى الحوض ، فـإنـا نـذود عنـه أعـداءنـا ونسقي منـه أحبـاءنـا وأولياءنا ، من شرب منه شربة لم يـظمأ بعـدها أبـداً حوضنـا فيه مشعبـان وينصبـان من الجنة ، أحـدهما من تسنيم والآخـر من معين ، عـلى حافتيـه الزعفران ، وحصاه اللؤلؤ وهو الكوثر .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عبـاس أنه قـال : الكوثـر الخير الكثـير الـذي أعطاه إيـاه ، قال أبـو بشر : قلت لسيدي ابن جبـير : فـإن نـاسـاً يزعمون أنه نهر في الجنة ، قال : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .

أقـول : حكي عن الطنـطاوي في تفسيره أنـه قال : إن الكـوثـر في حـديث النبي كنايـة عن العلم ، والكنايـة هي استعمال لفظ وإرادة معنـاه اللازم مع عدم منافاة إرادة المعنى الملزوم ، والأول أيضاً كقولنا : زيد كثير الرماد ، فإن المراد جوده وكثرة ضيوفه ، وذلك لا ينافي إرادة معنـاه الأصلي أيضاً ، فهذا القول كناية عن جود زيـد . فهذا التـأويل في الـرواية تـأويل حسن ، ويمكن أن يكون الكوثر في السورة كناية عن العلم أيضـاً ، بالمعنى الذي ذكرناه للكنايـة ، وهذا القبيـل من التأويـل والتفسير يـوجد كثيـراً في كلمات أئمة الدين ، فمثلاً ورد عن الصادق عليه السلام في تفسير ﴿**اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[1] هي الطريق إلى معرفة الله ، وهما صراطان : صراط في الـدنيا وصـراط في الآخرة،فـأمّا الصـراط في الدنيـا فهو الإمـام المفترض الطاعة ، من عرفه في الـدنيا واقتـدى بهداه مـرّ على الصـراط ، الذي هـو جسر جهنّم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمـه عن الصراط في الآخرة ، فتردى في نار جهنّم .

وعنـه عليـه السـلام : إن الصـراط أمـير المؤمنـين . وزاد في روايــة أخرى : ومعرفتـه ، وفي أخرى : أنّها معـرفة الإمـام ، وفي أخرى : نحن الصراط المستقيم .

والقمّي عنـه : الصـراط هـو أدقّ من الشعـر وأحـدّ من السيـف ، فمنهم من يمـرّ عليه مثـل البرق ، ومنهم من يمـرّ عليه مثـل عدو الفـرس ، ومنهم من يمرّ عليه ماشياً ، ومنهم من يمرّ عليه حبـواً ، ومنهم من يمرّ عليـه متعلقاً ، فتأكل النار منه شيئاً وتترك شيئاً .

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٥ .

وفي رواية أخرى أنه مظلم ، يسعى الناس على قدر أنوارهم .

يقول المحقق الفيلسوف الفيض الكاشاني : ومعاني الكل واحد عند العارفين بأسرارهم ، وبيانه على قدر فهمك ، إن لكلّ إنسان من ابتداء حدوثه إلى منتهى عمره انتقالات جِبِلِّيَّة باطنيّة في الكمال ، وحركات طبيعيّة ولفظانيّة تنشأ من تكرار الأعمال ، وتنشأ منها المقامات والأحوال ، فلا يزال ينتقل من صورة إلى صورة ، ومن خُلق إلى خُلق ، ومن عقيدة إلى عقيدة، ومن مقام إلى مقام ، ومن كمال إلى كمال ، حتى يتصل بالعالم العقلي والمقرّبين ، ويلحق بالملأ الأعلى والسابقين إن ساعده التوفيق وكان من الكاملين ، أو مع أصحاب اليمين ، إن كان من المتوسطين ، أو يحشر مع الشياطين وأصحاب الشمال إن تولاه الشيطان وقارنه الخذلان في المآل ، وهذا معنى الصراط المستقيم منه من إذا سلكه أوصله إلى الجنّة وهو ما يشتمل عليه الشرع ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ﴾[1] وهو صراط التوحيد والمعرفة ، والتوسط بين الأضداد في الأخلاق ، والتزام صوالح الأعمال ، وبالجملة صورة الهدى الذي أنشأه المؤمن لنفسه ، ما دام في دار الدنيا مقتدياً فيه بهدى إمامه ، وهو أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف . في المعنى مظلم: لا تهدي إليه إلا من جعل الله له نورا يمشي به في الناس ، يسعى الناس عليها على قدر أنوارهم .

وروي عن الصادق عليه السلام : إن الصورة الإنسانية هي الطريق المستقيم إلى كل خير ، والجسر الممدود بين الجنة والنار ـ إلى أن قال قدّس سرّه ـ وقد تبينّ من هذا أن الإمام هو الصراط المستقيم ، وأنه يمشي سوياً

---

(١) سورة الشورى الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.

على صراط مستقيم ، وأن معرفته معرفة الصـراط المستقيم ، ومعرفـة المشي على الصراط المستقيم ، وأن من عرف الإمام ومشى على صراطه سريعـاً أو بطيئاً بقدر نوره ومعرفته إيّاه فأُمر بدخـول الجنة والنجـاة من النار ، ومن لم يعرف الإمام لم يدر ما صنع ، فزلّت قـدمه فتـردّى في النار . ذكـرنا هـذا نمـوذجاً ، ولما فيه من الفائدة ، والأمثلة كـذلك كثيـرة جداً في أمـور الآخرة والدنيا .

فعن الصـادق عليـه السـلام في قـولـه تعـالى ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾[1] قال : أي أن المتقـين كمن هو خـالد في ولايـة عدو آل محمـد ، وولاية عدوّ آل محمد هي النار من دخلها فقد دخل النار .

أو كلمة النور مثلاً ، وقد ورد في الروايات الكثيرة أن المراد منـه الإمام في قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[2] يعني إماماً تأتمّـون به ، وعلى هذا القيـاس فمصاديق مـا ذكرنـاه كثيرة جـداً في القرآن في المـواضع المختلفة .

فحينئـذ ننظر إلى أوصـاف الكوثـر فنرى أنها تنـطبق على العلم كثـير الانطباق فـإنه العلم حيـاة للقلوب اليقظى ، كما أن الماء حيـاة للأجسـام النامية ، ويطلق كثيراً على العالم ، البحر ، فيقال بحر العلوم ، أو عالم متبحّر ، وكذلك المطالب العلميّة تشبّه بالجواهر التي تستخرج من البحر .

حكي عن شيـخ المفسّـرين أبي الفتـوح في تفسـير سـورة « النجم » أشعار عن الصادق عليه السلام يقول :

في الأصـل كنّا نجـوماً يستضـاء بنا وفي البـريّـة نحن اليـوم بـرهـان

---

(١) سـورة محمـد الآيـة ١٥ . (٢) سورة الحديد الآية ٢٨ .

نحن البحـور التي فيهـا لغـائصهـا   درّ ثـمـين ويـاقـوت ومـرجـان

فتأويل الكوثر بالعلم من أحسن التأويـلات والتشبيهات ، فقـد ورد هذا في القرآن والأحاديث كثيراً نذكر شيئاً منها .

في البصائر عن نصر بن قاموس قـال : سألت أبـا عبد الله عن قـول الله عزّ وجلّ : ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾[1] . قال: يا نصر ، إنه ليس حيث يذهب النـاس ، إنما هـو العالم ومـا يخرج منـه ، وورد في الحديث أن الإمـام الغيث الهاطـل ، وفي زيـارة القائم عليه السلام : السلام عليك يا عين الحياة .

وعن جابر في قوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ﴾ إلى قولـه ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾[2] عن الباقر عليه السلام : إن قوم مـوسى لما استسقـوا موسى فاستسقى لهم فسمعت ما قال الله عز وجلّ ، ومثل ذلك جاء المسلمون إلى جدّي النبيّ فقال تعرفنا من لـلأمّة بعـدك . وساق الحديث . إلى أن قـال الله سبحانه : إذا زوجت علياً من فاطمـة خلقت منها أحـد عشر إمامـاً من صلب عليّ يكونون مع علي اثني عشر إمامـاً ، كلهم هداة لأمتـك ، يهتدي بهم كل أمة بإمام منهم ويعلموا كما علم قوم موسى مشربهم .

وهكذا ورد في الأخبار في قوله تعالى :﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْـوَانُهُ﴾[3] أنـه العلم وأنّه مختلف فنونه .

وفي تفسـير القمّي عن الرضـا عليه السـلام في قولـه تعـالى : ﴿قُـلْ أَرَأَيْتُم إنْ أَصْبَحَ مَـاؤُكُمْ غَـوْراً فَمَنْ يَـأْتِيكُمْ بِمَـاءٍ مَعِـينٍ﴾[4] قـال مـاؤكم

---

(١) سورة الواقعة الآيتان ٣٠ ـ ٣٣.   (٢) سورة البقرة آية ٦٠.

(٣) سورة النحل الآية ٦٩.   (٤) سورة الملك الآية ٣٠.

أبوابكم والأئمة أبواب الله بينه وبين خلقه ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ قال من يأتيكم بعلم الإملم .

وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام قال في هذه الآية : إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد؟

وعن الباقر عليه السلام قال : هذه الآية نزلت في القائم عليه السلام ، يقول الله عزّ وجلّ : إذا أصبح ماؤكم غائباً عنكم لا تدرون أين هو فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السموات والأرض وحلال الله وحرامه ؟ الخبر .

وفي رواية طارق بن شهاب عن علي عليه السلام قال : الإمام الماء العذب على الظمأ .

وفي كنز الفوائد عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[1] قال : يعني لو استقاموا على الولاية لأذقناهم علماً كثيراً يتعلمونه من الأئمة ، وفي رواية أخرى عن الباقر عليه السلام قال في الآية أيضاً : يعني لأشربنا قلوبهم الإيمان .

﴿فصلِّ لربّك وانحر﴾ :

أمر الله سبحانه نبيّه بالصلاة ونحر البدنة ، وذلك بعدما ذكر سبحانه في الآية الأولى ما أعطاه من الخير الكثير ، والنعم الكثيرة التي لا تحصى . فأمره في هذه الآية بأداء شكرها ، لأن شكر النعم موجب لبقائها ومزيدها : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2] كما أن الكفران للنعم موجب لزوالها .

---

(١) سورة الجن الآية ١٦ . (٢) سورة إبراهيم الآية ٧ .

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[1] .
فأراد الله عز وجل أن يزيد في نعمه لحبيبه ويديمها له ، فلذلك أمره بشكرها . وأيضاً أن النبي صلّى الله عليه وآله هو أسوة للأمة وإمام ومقتدى لها ، فإذا قام الإمام والأسوة بشكر نعم الله عملاً فتتخذه الأمة أسوة لنفسها ، وتعلم أن شكر النعمة كما أنه وظيفةٌ عقلية وإنسانية ، فإن شكر المنعم من الأمور التي فطرت عليها فطرة البشرية ، ولا يستثنى منه أحد من أفراد البشر ، كذلك هو وظيفة شرعية بحكم **﴿ما آتاكم الرسول فخذوه﴾** والإتيان من الرسل أعم من القول والفعل ، ويستفاد من الفاء في قوله « فصل » أن هذه الوظيفة الشرعية لا بدّ وأن يؤتى بها بعدما أعطى الله سبحانه أحداً من عباده نعمة بلا فصل ، ومن دون مسامحة في الإتيان تؤدي إلى التأخير في الشكر .

وإذا كان معنى الآية ما ذكرنا من إيجاب الشكر للنعم التي أعطى الله سبحانه لنبيّه ، لماذا لم يذكر الشكر في الآية ، ولم يقل فاشكر لربك بل قال فصل لربك ؟ وذلك لأن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ، فإن الشكر إما بالقلب ، وهو أن يعلم أن تلك النعم من الله سبحانه لا من غيره ، وإما شكر باللسان وهو أن يمدح المنعم ويثني عليه ، وإما شكر بالجوارح ، وهو الخضوع لله والتواضع له ، والصلاة جامعة لهذه الأقسام كلها ، فإن اشتراط حضور القلب في الصلاة ، وأن الله لا يقبل منها إلا بقدر ما أقبل ، يوجب أن يكون المصلي عند قوله الحمد لله ربّ العالمين . وبقية الأثنية حاضر القلب ومتوجهاً إلى معانيها ، ومقبلاً على الله سبحانه بقبولها

---

(١) سورة النحل الآية ١١٢ .

والاعتراف بها ، وأماالشكر باللسان فواضح ، وهكذاالشكر بالجوارح ، فإن القيام والركوع والسجود كلها أعمال من الجوارح خاضعة لله وتواضعاً له تعالى ، فالصلاة جامعة لجميع أنواع الشكر مع ما لها من المزايا الأخر .

ثم قال تعالى ﴿لربّك﴾ هذا القيد يعلّمنا أن روح الصلاة هو الخلوص في النية ووقوعها لله سبحانه ، والأذكار والأعمال كلها بمنزلة الجسم لها ، والخلوص بمنزلة الروح ، هذا وفيه أيضاً تعريض لأعداء النبي ، حيث إن عبادتهم وصلاتهم كانت للأصنام ولغير الله ، وتعريض أيضاً للمكذبين بالدين الذين ذكرهم الله تعالى في السورة التي هي قبل هذه السورة . الذين هم يراؤون في صلاتهم ، وأما الإتيان بلفظ الرب هنا ، مع أنه ربما يبدو في النظر أن الأنسب بملاحظة الآية السابقة حيث قال إنا أعطيناك الكوثر ـ أن يقول : فصلّ لنا ، فالعدول إلى الرب مشعر إلى تربية الله سبحانه نبيّه تربية خاصة امتاز بها عن جميع من سواه ، كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أدّبني ربّي فأحسن تأديبي » . ثم إضافة الرب إلى كاف الخطاب ، مع أن الله هو ربّ العالمين ، وآثار ربوبيته وتربيته ظاهرة في جميع ذرّات الوجود ، حاكية عن العناية الخاصة من الله سبحانه لنبيّه ، ويعطي الرحمة والشفقة الخاصة له صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهكذا يؤكّد ويهيج المحبة والإخلاص منه صلّى الله عليه وآله وسلّم لربّه تبارك وتعالى .

قوله تعالى ﴿وانحر﴾ :

ذكر المفسرون للنحر في الآية معاني أخر غير نحر البُدْنِ ، منها رفع اليدين عند التكبيرات ، ومنها رفع اليدين في الدعاء عند النحر ، ومنها وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة ، حتى أن بعضهم روى ذلك عن

عليّ عليه السلام ، ولكن هذه المعاني التي ذكروها في المقام ليس لها مناسبة كثيرة مع الآيات ، وبالخصوص المعنى الأخير ، فإنه ليست له مادة اشتقاق ولا شاهد في اللغة ، فكيف لنا قبول الرواية عن عليّ عليه السلام مع أن عمل أهل البيت كان على خلافه ، ووردت روايات كثيرة بأنه مبطل للصلاة؟ ولكن العامة جعلوها ذريعة لما يفعلونه في الصلاة من التكتف ، حتى أن صاحب التأويلات النجمية لم يرض أن يترك هذا المعنى ، ولم يرض بالقول به أيضاً ، فجمع بين المعنيين بقوله انحر البدن من إنانيتك وانيتك بوضع اليمنى الروحانية على يدك اليسرى الجسمانية ، على نحرك المشروح بسيف نص ألم نشرح لك صدرك . أعاذنا الله من الزلل ، وطهّرنا من دنس الجاهلية والعصبية . فالأنسب لمسلك القرآن في استعماله الألفاظ في المعاني العميقة الشاملة هو : النحر بمعنى نحر البدن ، التي هي خيار أموال العرب ، وأحبها عندهم ، وقد قال تعالى : ﴿**لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[1] وقد روي ذلك بعدة طرق عن رسول الله . إذا أمعنّا النظر في الوظائف الشرعية والأحكام الإلهية نراها لا تخلو من أحد القسمين :

الأول : وظيفة العبد مع الله الخالق .

الثاني : وظيفته مع المخلوق ، والوظائف الراجعة إلى نفسه أيضاً داخلة في القسم الثاني . وفي القرآن الكريم النموذج الكامل والجامع للوظيفة الأولى ، أي وظيفة العبد مع الله ، وهي الصلاة والنموذج الكامل بالنسبة إلى الوظيفة الثانية وهي الزكاة ، والمراد من الزكاة هو مطلق المعاملة المادية ، لا الحقوق المختصة بالغلّات الأربع والأنعام الثلاثة والنقدين ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

فإنها قسم منه ، فإن هذه الكلمة قد استعملت كثيراً في الآيات التي وردت قبل تشريع الزكاة بالمعنى المخصوص ، بل هي موجودة في لسان القرآن حتى قبل الإسلام كقوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾[1] . ومن الواضح أن المقصود الأصلي من هذا العمل كما يدل عليه معناه اللغوي هو تزكية القلب والروح من حبّ المال وحب الدنيا ، الذي هو رأس كل خطيئة ، وأيضاً تزكية المال من الحقوق المتعلقة به للمستحقين والمستضعفين ، مضافاً إلى أن هذا العمل يكشف أيضاً عن المحبة والشفقة على الآخرين ولأفراد نوعه ، وأن يسعى في سبيل راحتهم ونجاتهم من الفقر بمقدار وسعه .

فبناء على هذا ، فالنحر الواقع في هذه السورة المباركة عقيب الصلاة له جميع مزايا الزكاة وفوائدها ، والصلاة والنحر يشيران إلى هدف واحد . ويمكن أن يطرح هنا سؤال ، وهو أنه إذا كان المراد من النحر الزكاة فلماذا لم يذكر الزكاة وبدلت بالنحر ؟ ذكر المفسرون في شأن ذلك أموراً :

الأول : أن الإبل هي أعز الأموال عند العرب والأمر بنحرها للتوجيه إلى أن كمال الإيمان والخلوص يستدعي الإنفاق من أعزّ الأموال ، كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2] وقوله : ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾[3] .

الثاني : أن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذه السورة قد جُعل في مقابل الكفار، وحيث أنه كانت صلاتهم وقرابينهم للأصنام ، فالله

(١) سورة مريم الآية ٣١. (٢) سورة آل عمران الآية ٩٢.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٧ .

سبحـانه تعـريضاً بهم قـال لنبيّه : ﴿صلِّ لربّك وانحر﴾ فتكـون صلاتـك وقربانك لله ، فمن هذه الجهة فالزكاة لا تناسب المقام .

الثـالث : أن هذه السـورة المباركـة مكيـة ، ونـزلت في وقت ضعف المسلمين وفقرهم وفقر النبي ، وقد وعـد الله نبيّه بـإعطائـه الخير الكثـير ، فعلى هذا الحكم بالنحر الذي هو مخصوص بالأغنيـاء عادة ، يكـون كمبشر بزوال الفقر وحصول المال والثروة ، وقد تحققت هذه البشارة .

﴿إنّ شانِئكَ هُوَ الأبتر﴾ :

الشانـئ اسم فاعـل من الشنآن كسـرطان بمعنى الحقد والعـداوة ، ولم تستعمـل هذه المـادة في القرآن إلا في مـوارد ثلاثـة : مورد في هـذه السورة ومـوردان في سـورة المـائـدة **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـآنُ قَـوْمٍ أَنْ صَـدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾**[1] **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾**[2] .

﴿هو الأبتر﴾ :

الأبتر هو الـذي يكون بـلا عقب وبلا ذكـر بعد مـوته ، وهـذه الآية مشتملة عـلى معجزة وتنبؤ عجيب ، وإخبـار بالغيب بـأن الله في هذه الآيـة يؤكـد بأن عـدو النبي هو الأبـتر سواء كـان المراد منـه العاص بن وائـل أو الوليد أو أبو جهل أو غيـرهم . فإن الـوليد مـع الأولاد العشرة لـه**والثروة** والمال الكثير ، بحيث سمي بالوحيد ونزلت الآيـات في حقه : **﴿ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾**[3] . وهكذا أبو جهل عاصٍ وأبو لهب مع ما كان لهم من المال ومن العزّة ، لم يبق لهم في التاريخ شيء إلا ذكر أسمائهم ، فإنها تذكر

---

(١) سـورة المائـدة آية ٢ . (٢) سـورة المائـدة الآيـة ٨ .
(٣) سورة المدثر الآية ١١ .

باللعن والسب واللؤم ، ولكن ذراري فاطمة عليها السلام مع كثرتهم في الشرق والغرب أعزاء ومحترمون ، وهكذا دينه صلّى الله عليه وآله وسلّم قد انتشر في الشرق والغرب ، وقبله الأبيض والأسود ، وربما تذكر هنا نكتة أخرى : وهي أن النعم لا تتم للإنسان ولا تهنأ مع وجود عدوّ له ، وإنما تمام النعمة وهناؤها فيما خلصت للإنسان . وبعدم وجود عدوٌ له فالله سبحانه في السورة المباركة في الآية الأولى بشّر نبيّه بإعطائه الخير الكثير ، وفي الآية الثانية أمره بالصلاة والنحر أداء لشكر هذه النعمة وفي الثالثة بشّره بقلع جذور الفساد ، وانقطاع نسل المفسدين ونسيان ذكرهم ، حتى يتم لنبيه النعمة ولا يكون فيها أي نقص والحمد لله .



سُورَةُ الكَافِرُون (١٠٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونْ* لاَ أَعْبُدُ مَـا تَعْبُدُونَ* وَلاَ أَنْتُمْ عَـابِدُونَ مَـا أَعْبُد* وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ*﴾ صدق الله العليّ العظيم

قال المفسّرون : إن هذه السورة المباركة نزلت حينما عَرَضَ السلم على النبيّ الأعظم جمع من أشراف قريش ، كحارث بن قيس السبهمي والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، وأسود بن عبديغوث ، والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف وغيرهم فقالوا لرسول الله : لكي لا يقع خلافٌ بيننا اعبد أنت آلهتنا سنة واشترك معنا في العبادة ، ونحن نعبد إلهك سنة ونصلّي بصلاتك ونعبد مثل عبادتك ، وتبقى هذه الطريقة بيننا فيرتفع الخلاف ويكون التعاون والعون بيننا ، ونعيش كلّنا في سلم وصلح ، ويكون في هذا الطرح أيضاً فائدة أخرى، وهي أنه إن كان الحق معك كنا قد اشتركنا في دينك ، وإن كان الحق معنا فقد شاركت أنت معنا .

في الـدر المنثور أخـرج ابن جريـر وابن أبي حـاتم وابن الأنبـاري في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري لقي الوليد المغيرة والعاص ابن وائـل والأسود بن عبـد المطلب وأميّـة بن خلف رسول الله فقـالوا : يـا محمد ؛ هلمّ فلنعبد ماتعبد، وتعبد ما نعبد ، فلنشترك نحن وأنت في أمـرنا كلّه ، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذين أنت عليه كنت قد أخذت منـه حظّاً ، وإن كـان الذي أنت عليـه أصحّ من الـذي نحن عليه كنّـا قد أخذنا منه حظّاً ، فأنزل الله : ﴿**قل يا أيّها الكافرون** . . .﴾ .

ما يستنبط من هذا الطرح أمران .

الأول : إن الـذين طـرحـوا ذلـك لم يكـونـوا عــلى يقـين من دينهم وطـريقتهم ، بـل كـان دينهم دينـاً تقليـديّـاً أخـذوه عن آبـائهم كـما يقـول القرآن : ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُون**﴾[1] و ﴿**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾[2] . وغير ذلك من الآيات الكريمة .

الثاني : القياس على النفس ، وهذا المطلب قد وجده العلماء القدماء بالحسّ والتجربـة ، وأثبت العلماء الروحيـون والنفسيون في العصر الحـاضر أن الإنسـان يقيس غيره على نفسه . وللعـارف الروحي قصـة مفصلة في ذلك وملخّصها : أنه كان لبقّال ببغاء ، وهو طائر يسمع كلام الناس ويعيده ، فاتفق يوماً أن هرة حملت عـلى فأرة في الـدكان ، فخـاف الببغاء وطـار من مكـانه ، فضـرب بجناحـه قارورة للبقـال كان فيهـا دهن اللوز ، فسقطت القارورة وانكسرت ، وجرى الدهن الذي كان فيهـا على الأرض ، فـدخل البقّـال دكّانـه فوجـد القارورة مكسـورة والدهن مـ ـوبـاً ومسكـوبـاً عـلى

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣ . (٢) سورة البقرة الآية ١٧٠ .

الأرض ، فغضب لذلك ، فضرب بيده على رأس الببغاء ضرباً أسقط شعر رأسه فصار أقرع ، ومضت أيام ، ورأى الببغاء يوماً مسكيناً وفقيراً كان أقرع ، فصاح به هل كسرت أنت أيضاً قارورة دهن اللوز ؟! .

ثم يستفيد العارف من هذه القصّة استفادات عرفانية وحكمية عجيبة ، ويقول من ضمنها إن المسكين قاس على نفسه ، فظنّ أن كلّ أقرع يكون علة كونه أقرع أنه كسر القارورة وصبّ الدهن على الأرض والغرض أنّ هذا القياس كأمرٍ فطري موجود في الجميع تقريباً ، ونتيجة هذا القياس أن الإنسان يحكم بحقّ الأشخاص بالخير أو بالشرّ دون أن يلتفت إلى منشأ حكمه وقضائه . مثلاً الأفراد الخيّرون يحسنون الظن بغيرهم ، ومن هذه الجهة كثيراً ما يغترّون بغيرهم من الأشرار والخبثاء .

وقد ذكر بعض المفسرين أن علة اغترار آدم وحوّاء بإبليس أنّه قاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين ، فإنهما لم يكن في تصوّرهما أنه يمكن أن يحلف أحد بالله كذباً ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « **المؤمن غرّ كريم** » . قال في مجمع البحرين : أيٌّ ليس بذي مكر ، فهو ينخدع لانقياده ولينه ، وبالعكس من هذا يكون الأمر في الأفراد الشريرين وغير المعتقدين بالله ، فإنهم يسيئون الظن بغيرهم ، كما يقول عليه السلام بعد ما ذكرناه في المؤمن : **والمنافق خبٌّ لعين أي خدّاع** ، وقال في موضع آخر من النهج : الشرير لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه بطبع نفسه .

وبالجملة كان الطرح المذكور نتيجة هذا القياس لأن أشراف قريش وصناديدهم لا يعتقدون أن ما يقول رسول الله وأصحابه صادر عن إيمانهم وأخلاقيّاتهم ، بل كانوا يزعمون أن رسول الله وأصحابه كانوا

يتكلّمون بما يظهرون لأجل الدنيا والمعاش فيها فمثلهم، كما قال في حقّنا أبو عبد الله عليه السلام :

« النَّاس عبيد الدّنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يديرونه حيثما درّت معايشهم ، فإذا محّصوا بالبلاء قلَّ الديّانون » .

ولو أن أشراف قريش كانوا مدركين ما يقوله رسول الله وأصحابه ، لعلموا أن ما طرحوه من الأمور المستحيلة ، ولكنهم قاسوهم بأنفسهم وقالوا ما قالوا . هذا مضافاً إلى أن رسول الله لو فرض محالاً أن يقبل بقولهم في عبادة آلهتهم ، فإنهم بعدما كانوا ينجحون في مخططهم سيرفضون عبادة الله ، فإنه لا عهد للكافرين والمشركين ، كما قال الله تعالى : **﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾**[1] . و **﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُون﴾**[2] و **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**[3] و **﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونْ﴾**[4] .

وهذا كما نراه اليوم من الكفار والاستكبار العالمي وأذنابه ، من عدم وفائهم لعهودهم ، فإذا كان المشركون ناجحين في مخططهم هذا وقد رفضوا بعد انتصارهم عبادة الله ، فتسقط بذلك عظمة دعوة الرسول وعظمة الإسلام ، ولكن الكافرين والمشركين لا يفقهون أن الله سبحانه سيحفظ عبده ونبيّه من شرورهم وكيدهم ، فإذا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يرى أن ما اخترع المشركون من السلم والتوافق أمر مستحيل في حقه ، ومن جانب آخر يرى أن هؤلاء كلهم أشراف قريش وصناديد القوم ،

---

(١) سورة التوبة الآية ٧ . (٢) سورة البقرة الآية ١٠٠ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٥٥ . (٤) سورة الأنفال الآية ٥٦ .

ومخالفتهم في الظروف الموجودة وفي حال أن الإسلام لم يستقرّ ولم يأخذ موضعه ربما توجب مشاكل جديدة في نفوذ الإسلام وتقدّمه ، فماذا يصنع رسول الله وكيف يجيبهم بما لا يؤلمهم ولا يؤذيهم ، فلا يكونون أشدّ عداء له ؟ فلذلك لم يجبهم رسول الله ، وانتظر الوحي حتى يجيء الأمر من الله سبحانه في هذا الوقت الحسّاس ، فنزل جبرائيل عليه السلام بالسورة المباركة ، وأمره سبحانه أن يجيبهم بكل خشونة وصراحة ، أن هذا الطرح من قبلكم غير قابل للتنفيذ وغير ممكن من قبلي ومن قبلكم ، فمشى رسول الله إلى المسجد الحرام ، وقرأ السورة المباركة على جمع من الأشراف والأعيان من قريش ، فيئسوا منه وأخذوا يؤذونه وأصحابه . هذا ما يرجع إلى شأن نزول السورة . وأما تفسيرها :

﴿قل يا أيّها . . .﴾ :

لا بدّ من التأمل والتدبر في تفسير هذه السورة في أمرين :

الأول : في سرّ تكرار المعنى ، **والثاني** : في سرّ اختلاف السياق في أحد العنوانين ، ووحدته في العنوان الآخر .

أمّا الأوّل فقد قيل إنه لتكرار المعنى ، واختاره المفسّر الكبير الطباطبائي ، وذلك كقوله تعالى : **﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾**[1] أو **﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ* ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر﴾**[2] .

ويمكن النظر في ما ذكره من جهة أنّه أوّلاً ليس هناك قرينة على كونه تكراراً ، كما هي موجودة في الآيات المستشهد بها ، وهي كلمة « ثمّ »

---

(١) سورة التكاثر الآيتان ٣ ـ ٤ .

(٢) سورة المدثر الآيتان ١٩ ـ ٢٠ .

وثانياً تغيير الأسلوب والسياق ربما يكون ظاهراً في أنّه ليس للتكرار ، بل في جهة أخرى ، فلو كان للتكرار فقط فلا موجب لتغيير الأسلوب .

وقال الفيض رحمه الله : قيل في سبب التكرار الأول في ما يستقبل فإن « لا » لا تدخل إلاّ على مضارع بمعنى الاستقبال ، والثاني في الحال أو في ما سلف ، وكلامه هذا غير مفهوم لي . لأنّه على فرض صحة قوله فلا يحلّ مشكلة التكرار ، لأنا نفرض أن الآية الأولى وهي ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ للاستقبال والثانية ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ للحال أو ما سلف ، فما وجه التكرار بعد ذلك ؟ وقال مثل ذلك الطباطبائي ، ولكن كلامه لعله أصحّ من كلام الفيض حيث قال :

وقوله ﴿**لا أعبد**﴾ نفي استقبالي فإن « لا » لنفي الاستقبال ، كما أن « ما » لنفي الحال ، والمعنى لا أعبد أبداً ما تعبدونه اليوم من الأصنام ، فعلى ذلك يكون معنى جميع الآيات نفياً استقبالياً لأنها كلها مصدرة بلا ، فيبقى إشكال التكرار على حاله ، وبعد التأمل في الآيات تتبيّن موارد للسؤال :

الأول : وجه التكرار **والثاني** : وجه تغيير الأسلوب ، وهذا السؤال الثاني ينحل إلى أسئلة .

الأول : ما وجه تغيير الجملة الفعلية بالجملة الاسمية ، حيث قال في الأولى ﴿**لا أعبد**﴾ وفي الثانية ﴿**ولا أنا عابد**﴾ .

الثاني : ما وجه تغيير الفعل المضارع إلى الفعل الماضي في الآيتين إلى الكفار ، فقال في الأولى : ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ وفي الثانية ﴿**ما عبدتم**﴾ وبعبارة أخرى ، ما وجه العدول من المضارع كما في الآية الثانية

إلى الماضي كما في الآية الرابعة . ولم يقل ولا أنا عابد ما تعبدون .

الثالث : ما وجه وحدة السياق في مورد الكفار ، أي في الآية الثالثة والخامسة .

الرابع : ما وجه الإتيان بالجملة الاسمية في الكفار ، ولم يقل وما تعبدون ما أعبد .

أما السؤال الأول فأحسن ما يمكن أن يقال هو أن « ما » في الجملتين الأوليين موصولة وفي الأخيرتين مصدرية ، فيكون المعنى هكذا بأنه لا شركة بيننا وبينكم لا في المعبود ولا في العبادة وطريقها . أما في المعبود فإني أعبد الله الذي لا إله إلا هو ولا شريك له في الذات والصفات ، وأنتم تعبدون الآلهة التي تنحتونها، وأما في طريق العبادة أيضاً كذلك لا شركة بيننا وبينكم ، فإنكم تصلون حول الكعبة بالبكاء والتصدية ، أي بالتصفير والتصفيق . وفي العيون عن الرضا سميت مكة مكة لأن الناس يمكّون فيها ، وكانوا يقولون لمن قصدها قد مكا ، وذلك قول الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وتَصْدِيَةً﴾[1] .

فالمكاء الصفير ، والتصدية صفق اليدين ، قيل إنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة يشبكون بين أصابعهم ويصفرون فيها ويصفقون ، وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله في صلاته يخلطون عليه .

هذا بالنسبة إلى أصل التكرار ، فعلى ما ذكرناه يرتفع التكرار من البين ، وعلى هذا لا بأس أن تكون الجملة الأولى لنفي الحال والاستقبال ، بمعنى : لا يمكن لي قبول ما طرحتم من عبادة آلهتكم لا في

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٥.

الحال ولا في المستقبل ، ويكون معنى الجملة الثانية : ولا أنا عابد ما عبدتم، إني رسول الله ، وليس من شأني ذلك ، فأي زمان عبدت ما عبدتم وأشركت ما أشركتم ؟ فإني قبل نزول الوحي والبعث بالرسالة حينما كنتم تعبدون الحجارة والأخشاب كنت أعبد الله ، فكيف بالحال وأنا مبعوث من قبل الله ؟!

وبهذا البيان يظهر وجه السؤال الثاني والثالث ، أي تغيير الجملة الفعلية بالاسمية وتغيير الفعل المضارع إلى الماضي . وبقي الوجه الثالث ، وهو وحدة السياق في مورد الكفار ، ولا أنتم عابدون ما أعبد بالجملة الاسمية ، وهذا أيضاً يعلم ممّا ذكرنا في معنى ولا أنا عابد ، فكأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : لستم في أي وقت من الأوقات ـ بسوء اختياركم وشقاوتكم وعدم استعدادكم ـ عابدين ما أعبد من دون أن تشركوا شيئاً ، حتى في وقت مذاكرات الصلح أيضاً تتكلمون بكلمات الشرك .

وبقي شيء آخر ، وهو أن معبود الكفار جاء في مورد بصيغة المضارع : ما تعبدون ، وفي مورد بصيغة الماضي : ما عبدتم ، ولعل الوجه في ذلك هو الإشارة إلى أن معبودكم يتغير بتغير الأزمنة كما كان دأبهم ، فربما رأوا حجراً يعجبهم فيتخذونه صنماً ، أو خشباً كذلك ، أو شيئاً من الطعام ، ثم يأكلونه إذا احتاجوا إليه ، فهذا التغير في المعبود هو علة تغيير السياق في الآية بالنسبة إلى معبودهم ، فقال مرة ما تعبدون ، وأخرى ما عبدتم ، مع أن كليهما جملة فعلية .

* * *

سُورَةُ النَّصر(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوّاباً*﴾

صدق الله العليّ العظيم .

ذكر المفسّرون عموماً في شأن نزول هذه السورة المباركة أن فتح مكة هو شأن نزولها ، وإن ذكر بعضهم شأناً آخر أيضاً ، ولكن فتح مكة مورد إجماعهم ، فالسورة المباركة مبشرة إما بفتح مكة اختصاصاً ، كما ذكره الطبرسي وأبو الفتوح ، وإما أعمّ منه ومن غيره من الفتوحات كما ذكره غيرهما . وإن كان فتح مكّة في نظرهم أيضاً مقدّماً على بقية الوجوه ، وذلك لأنّه بعد فتح مكّة كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، لأنّ المشركين والكفار بعد فتح مكّة رأوا من أنفسهم عدم المقاومة في مقابل الإسلام ، فاضطرّوا إلى التسليم وإظهار الإسلام ، إمّا اعتقاداً بأنّ الإسلام هو الدين الحقّ وأن تلك الانتصارات ليست أمراً عادياً وإنّما النصر من عند الله ، وإمّا التسليم للخوف من قدرة جنود الإسلام وجند الله ، كأبي سفيان وغيره .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر** . وعلى أيّ حال ، وبعد فتح مكّة دخل الناس في دين الله أفواجاً ، فليس المراد من النصر والفتح جنسهما حتى ينطبق على جميع المواقف التي أيّد الله فيها نبيّه ، ولا صلح الحديبية الذي سمّاه الله فتحاً مبيناً كما قيل ، لعدم انطباق الآية الثانية عليها ، ويؤيّده وعد النصر الذي نزل في الآيات النازلة في الحديبية . ﴿**إنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . . . وَيَنْصُرُكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً**﴾[1] .

فمن المحتمل جدّاً أن يكون الوعد بنصر عزيز مرتبطاً بصلح الحديبية ، والفتح المبين ، وهو نصره تعالى نبيّه على قريش حتّى فتح مكّة بعد مضيّ سنتين من فتح الحديبية ، وأيضاً بهذا الفتح انتهى أمر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ووظيفته ، ولا بدّ له من الاستعداد للقاء ربّه والصعود إلى العالم الأعلى ، وهذا الاستعداد بالاستغفار والتسبيح . فهذه السورة المباركة كانت مبشّرة بفتح عظيم يقع بنصر الله تعالى ، وإعلاماً لانتهاء وظيفة الرسالة وقرب ارتحاله صلّى الله عليه وآله ، ولذلك تنبّه اليه بعض من كان عارفاً بأساليب الكلام .

فعن مقاتل في المجمع : لمّا نزلت هذه السورة قرأها صلّى الله عليه وآله وسلّم على أصحابه ففرحوا واستبشروا ، وسمعها العبّاس فبكى ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : ما يبكيك يا عمّ ؟ قال : أظنّ أنه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله . قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّه لكما تقول . فعاش بعدها سنتين ما رُئِيَ بعدها ضاحكاً مستبشراً ، وروي هذا المعنى في عدة روايات بألفاظ مختلفة ، ووجه دلالتها كما ذكرنا هو فراغه

---

(١) سورة الفتح الآيتان ١ ـ ٣.

صلّى الله عليه وآله وسلّم ممّا عليه من السعي والمجاهدة وتمام أمره ، وعند الكمال يرغب في الزوال .

وفي المجمع عن أمّ سلمة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالآخرة لا يقوم ولا يقعد ، ولا يجيء ولا يذهب ، إلا قال : سبحان الله وبحمده ، استغفر الله وأتوب إليه . فسألنا عن ذلك فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أمرت بها . ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح . . .

فيا حبّذا بمتابعي الرسول الأعظم الذين اتخذوه أسوة لأنفسهم أن يتأسّوا برسول الله إذا ظنّوا أنّهم في السنين الأخيرة من عمرهم ، فيستعدوا للقاء الله ، وإن كان كبر السن ليس معياراً لقرب الأجل ، ولكن احتمال الموت في الشيوخ أقرب وأكثر من الشباب . فينبغي لمن يظنّ بنفاد أيامه واقتراب أجله المداومةعلى هذا الذكر الشريف، تأسّياً برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

﴿إذا جاء﴾ :

إذا في العربيّة لانتظار وقوع أمر محقّق قطعي ، بخلاف (إن) فإنها لأمر مشكوك ، لقوله تعالى ﴿إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[1]. وبخلاف (لو) فإنها لأمر محال ، كقوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[2] فإذا لانتظار أمر محقق الوقوع وغير مشكوك فيه ، والتعبير بالمجيء في قوله تعالى لتفهيم قرب زمان الوقوع وتحقّق الفتح ، فكأنّ النصر والفتح مسافر يتوقّع مجيئه عن قريب .

---

(١) سورة محمد الآية ٧. (٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٢ .

﴿نصر الله والفتح﴾ :

النصر : بمعنى النجاة والغلبة ، وقد استعمل هذا المعنى في القرآن في موارد كثيرة ، كقوله تعالى :﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[2] .

والفتح : بمعنى تعرف موطن العدوّ وإشغال مركزه وموضع دفاعه ، أو بمعنى فصل الخصومة وقطع الدعوى ، كقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾[3] فإذاً يمكن أن يتحقق النصر بدون الفتح كغزوة بدر ، أو يكون فتحاً بلا حرب ، والتسلط على النفوس كقضية بني النضير ، حيث استملك المسلمون كلَّ ما كان لهم من المنازل والأملاك والأموال ، وهاجر بنو النضير بما تمكّنوا من أخذه من الأموال المنقولة ولكن في فتح مكّة كان النصر والفتح معاً .

﴿ورأيت الناس﴾ :

إن العرب كانت تنتظر موقف الكعبة والآلهة التي فيها مع جند الإسلام المظفّر ، ولعل أكثر القبائل كانوا يزعمون أن جيش الإسلام أيضاً تكون مسيرتهم مسيرة جيش الحبشة وأصحاب الفيل ، وينزل عليهم العذاب ، وأيضاً كانوا يترصّدون قريشاً مع ما لها من العظمة والقدرة ماذا تصنع وما يكون ردّ فعلهم لجند الإسلام ، ولمّا رأوا ذلة آلهتهم ومهانتها ، وكذلك ذلة قريش وخضوعهم للإسلام علموا أن الدين من قبل الله وهو الدين الحق ، وأن ما كانوا يعبدون من دون الله

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٣ . (٢) سورة التوبة الآية ٢٥ . (٣) سورة الأعراف الآية ٨٩ .

باطل ، وعلموا أيضاً أنه لا يمكن مقاومة جند الإسلام وجند الله ، فمن المصلحة الدنيوية أن يدخلوا في السلم كافّة ، ولذلك كانوا يدخلون في دين الله أفواجاً ، بخلاف ما سبق من الفتوح إذ كان الداخل في الإسلام أفراداً وأشخاصاً.

﴿فسبّح بحمد ربّك﴾ :

قال الزمخشري في الكشاف : إن العرب تقول شربت الماء باللبن . معنى هذه العبارة أي جمعت بين الماء واللبن في الامتزاج والشرب ، فبناء على هذا يكون معنى الآية الأمر بالجمع بين التسبيح والحمد ، ويمكن أن تكون الباء في « بحمده » للسببية ، فيكون معنى الآية التسبيح بسبب الحمد ، ويمكن أن يكون بحمد ربّك حالاً بمعنى أن سبح حال كونك حامداً للربّ ، كما يقال اخرج بسلامك ، والفرق بين الحمد والمدح أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري ، والمدح هو مطلق الثناء .

فإذاً لا بدّ من التوجه إلى أن مظاهر الحسن والجمال في عالم الوجود الذي يخصّ حمد الله تعالى ، كلها فعل اختياري لله سبحانه .

* * *

سُورَةُ المَسَد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ* وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ*﴾

صدق الله العليّ العظيم .

إنّ مضمون هذه السورة مبيّن لشأن نزولها ، ويدلّ بوضوح أنها نزلت في أبي لهب وزوجته ، وقد ذكر المفسّرون في علّة نزول هذه السورة أن أبا لهب قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في موردٍ أوفي موارد : « تبّاً لك » وهذا القول من الله جواب له .

وقد اختلف المفسّرون في تعيين ذلك المورد ، وقال بعضٌ منهم المحدث الفيض الكاشاني والطبرسي في المجمع عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[1] صعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على الصفا فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لَك ؟ فقال : « أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدوّ مصبحكم وممسيكم ما كنتم تصدّقوني ؟» قالوا : بلى. قال : « فإنّي نذير لكم بين

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

يدي عذاب أليم » . قال أبو لهب : تبّاً لك ، ألهذا دعوتنا جميعاً ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿تبّت يدا أبي لهب وتبّ﴾ . . .

ما يستفاد من التواريخ والتفاسير المتعددة كالطبري ومروج الذهب وسيرة ابن هشام وغيرها أن هذا الخبيث تكلّم بهذا الكلام غير مرّة ، وأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم دعا أقاربه في بيت أبي طالب عليه السلام مرّتين وفي المرة الأولى قام أبو لهب من المجلس وفرّق المدعوّين ، ولم يتكلّم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بشيء ، وفي المرة الثانية لمّا أظهر رسول الله دعوته قام هذا اللعين أيضاً وتكلّم بكلمات سوء واستهزأ برسول الله ، وجَرَّأَ غيره على الاستهزاء برسول الله ، مع أنّ عموم المؤرّخين ذكروا أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جاء بمعجزة في ذلك المجلس بصحّة دعواه . وهي أنّه :

لما أحضر الطعام قام المشركون يستهزئون برسول الله بأن هذا طعام نفر واحد ، ولكن مع ذلك أكل جميع المدعوين من الطعام والشراب وشبعوا ، ولم ينقص شيء محسوس منهما ، ولكن على عادة سائر المشركين « حينما دعاهم الرسل إلى قبول الحق » قالوا : إن محمداً قد سَحَرَنا . ولم يبايع في ذلك المجلس أحد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلا عليّ عليه السلام .

يقول الفيلسوف الشهير والمؤرخ الإنكليزي « كارليل » في كتابه « الأبطال » : إن أمر نبوة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم كان أعظم من أن يدركه هؤلاء ، ويقول : إنه لا يمكن لأحد في ذلك اليوم أن يدرك بأن اليدين اللتين تصافحتا في ذلك اليوم إحداهما لرجل عمره أربعون سنة ، والأخرى لطفل أو شاب عمره ست عشرة سنة أو أقل على حسب

اختلاف التواريخ ، سيغيّران عن قريب مسيرة تاريخ البشرية .

وبعد هذه الدعوة في بقية الموارد أيضاً ـ ومن جملتها الصفا ـ تعرّض هذا اللعين لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وربّما يقال ، والقائل لعلّه أحد المبشرين المسيحيين لماذا أنزل الله سبحانه هذه السورة في ذمّ أبي لهب وزوجته بتصريح باسمه ، مع أنه من دأب القرآن عدم التصريح بالاسم بالنسبة إلى الذين خالفوا رسول الله وآذوه ؟

فنقول في جواب هذا الإشكال : إن ذكر اسم أبي لهب صراحةً يمكن أن يكون لعدّة أمور :

الأول : إن مخالفة أبي لهب لرسول الله كان لها أثر عميق في روحيّة المخالفين ، حيث إنّه كان من قريش ومن بني هاشم ، وكان مثرياً ، وكان شيخاً ، وكان عمّ رسول الله ، فهو من أهل بيت رسول الله ، فمخالفته تعتبر في نظر الناس مخالفة مبدئيّة وأساسيّة ، بخلاف مخالفة أبي سفيان الأموي وأبي جهل المخزومي وأمثالهما ، إذ كان بين القبائل خلافات منذ سنين ، فربما تُحمَلْ مخالفتهم لرسول الله أيضاً على المخالفة القوميّة ، ولكن مخالفة مثل أبي لهب وهو عمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لا تَقبل هذا المحمل .

وأمّا زوجته أم جميل أخت أبي سفيان وعمة معاوية ، فلها مع رسول الله وأهل بيته عداوة قديمة وموروثة أموية ، وكانت مسلّطة على زوجها أبي لهب ، وحتى على أبنائها ، ولذلك نرى أن أبناءها بعدما أظهر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رسالته طلّقوا بنات النبي دون أيّ

تقصير منهنّ ، فهي مضافاً إلى تحريك زوجها وأبنائها على مخالفة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كانت بنفسها تؤذي النبي فتجمع الأشواك وتحملها وتنشرها بالليل في طريق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهذا أحد معاني « حمّالة الحطب » وروي أيضاً أنها كانت تَنُمَّ على رسول الله وتنقل أحاديثه الى الكفار فتؤذي بذلك النبيّ ، ولعل هذا معنى آخر كنائي لقوله تعالى : ﴿**حمّالة الحطب**﴾ .

لأن النزاع الذي يقع نتيجة النميمة بين الأشخاص كنار تشتعل بينهم ، والنمّام فيهم كحامل الحطب لإشعال نار الحرب والنزاع .

الثاني : إنّ أبا لهب بنزول هذه السورة قد عُرِّفَ لجميع الطوائف والقبائل بالخباثة ، وكانت السورة كإعلان عامّ عليه ، فعرفوا عداءه ومخالفته ، وخصوصاً أن زوجته قد عرّفت بالسورة ، وكان الناس يعرفون عداء بني أميّة لبني هاشم ، وأن الآيات القرآنية كانت مورداً للتوجّه من الأعراب لفصاحتها ، وكانت تنتشر بينهم سريعاً ، ويفتضح أبو لهب وامرأته ، ويعرف هذا من كان له علم بعادات العرب وخصوصاً في الجاهليّة ، وأن بيتاً واحداً من الشعر ربما كان مؤثراً في سقوط شخصيّة أحد أو قبيلة ، أو اعتلائها في المجتمع ، فالتصريح باسمه يسقطه في المجتمع بالكليّة .

الثالث : إنّ من الأصول والقواعد المهمّة والأساسيّة في الإسلام إعلان المساواة ، وإلغاء جميع الامتيازات ، ماليّة ومقاميّة وقوميّة ، فالإسلام يؤكّد ويكرّر أنّه لا فخر لأحد على أحد ، وكلّ الناس عند الله متساوون ولا امتياز لأحد إلا بالإيمان والتقوى ، والقرآن الكريم يبينّ هذه الحقيقة في صور مختلفة ، ويقررها ويثبتها ، وعلى هذا طرد أبي لهب مَعَ مَا لَهُ من

الامتيازات الماليّة والمقامية والقوميّـة خصوصـاً أنّه سيّـد هاشمي وقرشي ، وابن عبـد المطلب وعمّ رسـول الله ، يكـون درسـاً كبيـراً للمسلمـين بـأن يحترموا الإيمان فقط ، ولا يعتنوا بالامتيازات غير الإيمان والإسلام .

الـرابـع : إن الأراذل من النـاس يستـغلّون حَـسَنَ السـلوك والمحبّة ، ويزيـدهم غروراً وخشـونة في الغـالب ، وبالعكس من ذلـك إذا رأوا الخشـونة وشـدّة العمل يـرجعـون ، فمثلهم كمثـل الكلب ، إذا قـام أحدهم في وجهه يرجع ، وأما إذا فرَّ منه يتابعه ، كما ذكره الإمام القائد في بعض كلماته وشبّه المستكبرين بذلك .

فأبو لهب ، مع أنّه لم يترك مخالفتـه وعداوتـه لـلنبـيّ ، ومـات على الكفـر والشرك ، كـما أخبر عنـه القـرآن بعـد غـزوة بـدر ، ولكن بشهـادة التاريخ بعـد نزول هـذه السورة لا يُـرى له نشـاط وحرارة ، والتسـابق في الأعمـال المخالفـة ضدّ رسـول الله صلّى الله عليـه وآلـه وسلّم ، ولا ينقـل التاريخ اسمه بعد هذا إلاّ قليلاً ضمن أعداء رسول الله بصورة عادية .

الخامس : إن نزول هذه السورة المباركة كان عبرة لغير أبي لهب من المخـالفين ، كي لا يغتـروا بضعف الإسـلام وقلّة عـدد المسلمـين ، ولا يتكلوا على حلم رسول الله ورعايته الرحم والقوميّة والقبائليّة ، حذراً من أن تنزل في شأنهم آيات يُفتضحون بها في المجتمع .

هـذه جملة ما يمكن أن يكـون علّة للتصريح باسم أبي لهب في القـرآن الكريم .

وأمّا تفسير السورة المباركة :

﴿تبّت يدا أبي لهب وتبّ﴾ أمور :

الأول : التّباب : كسراب بمعنى الخسران والهلاك ، أو الخسران الذي ينجّر إلى الهلاك ، وأيضاً هو الخسران بمعنى الضرّ والضلالة والتضييع والنقص .

وعلى هذا بناء على جواز استعمال ألفاظ القرآن في أكثر من معنى ، يمكن أن تكون جميع هذه المعاني مقصودة ، بمعنى أن يقال : خسرت وهلكت وضلّت ونقصت يدا أبي لهب . وهذا المعنى على فرض أن يكون (تبّت) دعاء عليه ، و(تبّ) خبره ، ومعنى هذه العبارة في لسان العرب أن الدعاء يفرض محققاً، كما يقال : « أصلحك الله وقد أصلحك » وقال بعضٌ : إن كليهما دعاء ، وقال بعض آخر إن كليهما خبر .

الثاني : ما المقصود من « يدا » في السورة :

قال بعض إن (يدا) زائدة ، وربما يستعمل هذا اللفظ زائداً في كلام العرب ، كما يقال « يد الدهر » و« يد الرزايا » والمقصود نفس الدهر والرزايا ، وقال بعض آخر : حيث إنّ اليد وسيلة للعمل والنشاط والكسب . وبدونها ليس أحد قادراً على العمل ، فهي كناية عن نفس الشخص . ولها معان أخر لا تخلو عن مجاز وكناية وفي النتيجة تكون زائدة .

ولكن اللغة تذكر لليد معاني كالمنجد يقول : اليد : الكف . . . واليد أيضاً : النعمة والإحسان واليد أيضاً : الجاه والقدر والقدرة والسلطان ، واليد بمعنى الملك . هذا في يدي : أي في ملكي .

فعلى هذا يكون لفظ « يدا » في قوله تعالى غير زائد . بل لها كمال المناسبة ، لأن أبا لهب كان يتّكل ويتدلّل بنعمته وقدره وسلطانه وملكه ،

فإن نسب أبي لهب وإن كان شريفاً ولكن شـرافة النسب لا تفيـد إذا كانت مقرونة بالفقر والفاقة ، وأما إذا قرنت بالمال والثروة فتعطي لصـاحبها مقـاماً أعلى ، فحينئذ كان أبو لهب يعتمد على ملكه وقدره وثروته ، ولكن هـلاكه وخسرانه كانا نتيجة ذلك المال والجاه والثروة ، فلذلـك يذكـره القرآن أولاً بلفظ « يدا » ثم يخبر أن يديه قد خسرتا . وليس أن يديه فقط قد خسـرتا بل هو أيضاً قد هلك وخسر .

وأمّا أبو لهب فاسمه عبد العزّى ، ولكن الله لم يذكره باسمه ، ولعلّه لكي لا يـذكر للصنم عبـد في القـرآن لفـظاً أيضـاً ، وإن كـان المـراد منـه المسمى ، وقد قيل بأن وجهه كان أحمر كلهيب النار ، فسمّي بذلـك . كما يقال لصاحب الفضل أبو الفضل ، ولصاحب الخـير أبو الخـير ، وأحسن ما قيل في ذكره في الآية لا باسمه أنّ في ذلك تهكّـماً وطعناً فيـه ، لأنّ أبا لهب يشعر بالنسبة إلى لهب النار كـما ذكرنـا في أبي الفضل وأبي الخـير ، فلما قيل ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ فُهِم منه أن قولـه ﴿تبّت يدا أبي لهب﴾ في معنى قولنا تبّت يدا جهنمي ملازم لها .

﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ :

(ما) الأولى نافية . و(ما) الثـانية : إمـا موصـولة أي الـذي كسبه بأعمالـه وهو أثـر أعمالـه . أو مصدريّـة والمعنى كسبه وهـو عمله . فمعنى الآيـة « ما أغنى عنـه لا مالـه ولا عمله » . والفرق بـين المال ومـا كسب ، قيل : إن الأول ما كان موروثاً والثاني ما كان اكتسـابيّاً ، أو أنّ الأول رأس المـال والثاني الفـائدة والمنفعـة ، وقيل : الأول الأغنـام والثـاني إنتـاجهـا ، والأحسن أن يؤخذ المال بمعناه العام الشـاملِ وأعمّ من المـوروث والمكتسب ورأس المـال ونفعـه وذي النفس وغيـره . ومـا كسب كـل كسب أعم من

التجارة والسعي والعمل في سبيل المقام والدفاع عن العقيدة وفي سبيل الكفر والشرك ومخالفة الحق وكتاب الله ورسوله وغيرها . وأنّ هذه كلّها لم تنفعه وابتلي بالخسران الأبدي والشقاوة الدائمة .

﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ :

﴿سيصلى﴾ وقرأ بالضم أيضاً **﴿ناراً ذات لهب﴾** أي سيدخل .

﴿وامرأته حمّالة الحطب﴾ :

عطف على ضمير الفاعل المستكنّ في « سيصلى » أي ستصلى امرأته حمّالة الحطب وهي إمّا وصف مقطوع عن الوصفية للذمّ ، أي أذم حمالة الحطب أو حال من امرأته وله معنى لطيف :

هذه المرأة اسمها أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان وعمة معاوية ، وسميت بحمّالة الحطب إما لأنها كانت تحمل الحطب ذا الشوك ، وأغصان الشوك وغيرها ، وتطرحها في الليل في طريق رسول الله لتؤذيه بذلك ، وهذا المعنى معنى حقيقي له . أو أنّه معنى مجازي من النميمة . فإنها كانت نمّامة على رسول الله . فالنزاع والعداوة قد شبّهت بالنار بين الأفراد وفي المجتمع ، بحيث أن النمام له دور في اشتعال هذه النار ، فكأنّه حمّال حطب هذه النار كما ذكرنا .

والنميمة من الأفعال القبيحة ، ومن آفات اللسان العظيمة ، وقد ورد في الآيات والروايات ذمّها ، قال الله تعالى :

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[1] .

---

(١) سورة القلم الآيتان ١٠ ـ ١١ .

وقال تعالى :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[1] . قيل الهُمَزة : النمام . واللُّمَزة : المغتاب .

وقال تعالى :

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[2] كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح كانت تخبر أنه مجنون .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم :

لا يدخل الجنّة نمّام وفي حديث آخر **لا يدخل الجنّة قتّات** . والقتّات هو النمّام .

وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم :

أحبّكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكتافاً الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشّاؤون بالنميمة بين الأحبّة المفرّقون بين الأحزاب الملتمسون للبراء العثرات .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم :

ألا أخبركم بشراركم . قال : المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبّة الباغون للبراء العيب .

ومن طريق الخاصة ما رويناه عن الصادق عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام :

شراركم المشّاؤون بالنميمة المفرّقون بين الأحبّة المتّبعون للبراء

---

(١) سورة الهمزة الآية ١ .　　(٢) سورة التحريم الآية ١٠ .

المعايبة .

وعن الباقر عليه السلام :

الجنّة محرّمة على المغتابين والمشّائين بالنميمة .

أمّا حدّ النميمة ، فقد قال الأستاذ الأعظم الشيخ الأنصاري (قدّس سرّه) في كتابه المكاسب :

النّميمة محرمة بالأدلة الأربعة وهي نقل قول الغير إلى المقول فيه . كأن يقول : تكلّم فلان فيك بكذا أو كذا ، قيل هي من نمّ الحديث من باب قتل وضرب أي سعى به لإيقاع فتنة أو وحشة وهي من الكبائر .

قال الله تعالى :

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ اولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾(١) .

والنمّام قاطع لما أمر الله بصلته ومفسد . قيل وهي المراد بقوله تعالى : **﴿وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ﴾**(٢) . وقد تقدّم في باب السحر قوله في ما رواه في الاحتجاج في وجوه السحر ، وأن من أكبر السحر النميمة ، يفرق بها بين المتحابّين ، وعن عقاب الأعمال عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم :

من مشى في نميمة بين الاثنين سلّط الله عليه في قبره ناراً تحرقه وإذا خرج من قبره سلّط الله عليه تنّيناً أسود ينهش لحمه حتى يدخل النار .

وقد استفاضت الأخبار بعدم دخول النمّام الجنة ، ويدل على حرمتها

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧ .   (٢) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

مع كراهة المقول عنه لإظهار القول عند المقول فيه . جميع ما دلّ على حرمة الغيبة ، وتتفاوت عقوبته بتفاوت ما يترتّب عليها من المفاسد . انتهى موضع الحاجة مما ذكره الشيخ (قدّس سرّه).

وقال بعض علماء الآخرة : وكل من حُمِلَتْ إليه النميمة وقيل له إن فلاناً قال فيها كذا وكذا فعليه بستة أمور .

الأول : أن لا تصدقه ، لأنّ النمّام فاسق وهو مردود الشهادة . قال الله تعالى :

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾(1) . . . الآية .

الثاني : أن تنهاه عن ذلك وتنصحه وتقبّح له فعله . قال الله تعالى :

﴿وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرْ﴾(2)

الثالث : أن تبغضه في الله فإنه بغيض عند الله ، ويجب بغض من يبغضه الله .

الرابع : أن لا تظنّ بأخيك الغائب السوء لقول الله عزّ من قائل :

﴿اِجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ﴾(3) .

الخامس : أن لا يحملك ما حكى لك على التجسّس والبحث ليتحقق ، قال تعالى : ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾(4) .

السادس : أن لا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمّام ، فلا تحكي نميمة فتقول فلان قد حُكي له كذا وكذا ، فتكون به نمّاماً ومغتاباً ، وتكون

---

(1) سورة الحجرات الآية ٦ . (2) سورة لقمان الآية ١٧ .
(3) سورة الحجرات الآية ١٢ . (4) سورة الحجرات الآية ١٢ .

قد أتيت بما عنه نهيت .

وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه وأخبره بخبر عن غيره ، فقال له الحكيم : قد أبطأت عن الزيارة وأتيتني بثلاث جنايات : بغّضت إليّ أخي . وشغلت قلبي الفارغ . واتّهمت نفسك الآمنة .

وقال بعضهم : النميمة مبنيّة على الكذب والحسد والنفاق وهي (أثافي)

الأثافي : جمع الأثفية وهي الحجارة التي تنصب وتجعل عليها القدر .

وبالجملة فشرّ النمام عظيم ينبغي أن يتوقى منه .

قال حماد بن سلمة : باع رجل عبداً فقال للمشتري ما فيه عيب إلا النميمة قال : قد رضيت ، فاشتراه، فمكث الغلام أيّاماً ثم قال لزوجة مولاه : إن زوجك لا يحبّك ، وهو يريد أن يتسرى عليك ، وأنا أسحره لك في شعره ، فقالت كيف أقدر على أخذ شعره فقال : إذا نام فخذي الموسىٰ واحلقي من قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبّك ، ثم قال للزوج إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك ، فتناوم ، فجاءته المرأة بالموسى فظنّ أنها تقتله فقام فقتلها ، فجاء أهلها فقتلوا الزوج ، فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر بينهما .

﴿في جيدها حبل من مسد﴾ :

المسد : حبل مفتول من الليف ، والجملة حال ثانية من امرأته ، قال الطباطبائي (قدّس سرّه): والظاهر أن المراد من الآيتين أنها ستتمثّل في النار التي تصلاها يوم القيامة في هيئتها التي كانت تتلبّس بها في الدنيا ،

وهي أنها كانت تحمل أغصان الشوك وغيرها تطرحها في الليل في طريق رسول الله تؤذيه بذلك ، فتعذب بالنار وهي تحمل الحطب وفي جيدها حبل من مسد .

***

سُورَةُ الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ* اللهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُو أَحَدٌ*﴾ صدق الله العليّ العظيم .

ذكر المفسّرون في شأن نزول هذه السورة وجوهاً ترجع كلها إلى أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم سئل عن توصيف الله فنزلت هذه السورة ، والسائلون إما اليهود أو المشركون أو جمع من نصارى نجران ، وعلى أي حال النتيجة واحدة .

ففي الكافي والتوحيد عن الصادق عليه السلام أن اليهود سألوا رسول الله فقالوا : انسب لناربك،فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ثم نزلت : **﴿قل هو الله أحد﴾** إلى آخرها .

هذه الحقيقة ، أي حقيقة التوحيد التي تتضمنتها هذه السورة المباركة هي أعظم أركان الدين ، وهي وإن كانت متكررة في موارد كثيرة من القرآن ، لكنها من جهة الأهمية خصصت لها سورة مستقلة مشتملة على ألفاظ موجزة ومعان عالية ، يحفظها كل مسلم ويقرأها في صلاته وغيرها ،

وللعلماء والمفسرين حول هذه السورة مطالب جليلة ، وأجلّ ما رأيته ما كتبه الإمام القائد الخميني دام ظلّه في تفسير هذه السورة ، وألّف فيه ما لم يؤلف مثله فيما علمناه .

ونحن نذكر من تفسيرها ما يناسب أفهام المستمعين الكرام فنقول :

صدِّرت السورة المباركة بكلمة « قل » لأنّ المخاطب هم المشركون الذين ينكرون توحيد الله ، فلذا لا بدّ أن يجيبهم رسول الله ، ولذلك قال تعالى لنبيّه : « قل » .

هو : من الوجوه التي ذكروها في معناه أنه ضمير شأن ، كان من المتداول في لسان العرب أنهم إذا أرادوا أن يبيّنوا معنى ذا أهمية ، ويتكلموا بكلام مهمّ ابتدأوا الكلام بضمير، وعلى حسب الاسم الذي بعده من التذكير والتأنيث يأتون بالضمير المذكّر أو المؤنّث ، فإذا كان الضمير مذكّراً يسمونه بضمير الشأن أو الحديث ، كهذه الآية أو قوله تعالى ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً**﴾[1] فإنه ضمير هو في أنه ضمير شأن وحديث ، وإذا كان الضمير مؤنثاً يسمونه بضمير القصة كقوله تعالى : ﴿**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[٤] أو قوله تعالى : ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ**﴾[٣] فإن ضميري هي وها ضميرا قصةٍ.

الشأن في اللغة بمعنى القصد ، شأن شأنك أي قصد قصدك . وبمعنى ما عظم من الأمور والأحوال ، كقوله : فإن لك عند الله شأناً من الشأن ، فيكون معنى الآية قل يا رسول الله إن المقصود والأمر المهم أو

---

(١) سورة طه الآية ٧٤. (٢) سورة الأنبياء الآية ٩٧.

(٣) سورة الحج الآية ٤٦.

الحديث والخبر أن الله أحد . فالسامع بعدما سمع الضمير يتوجه إلى ما وراءه من الحديث المهم فيتهيأ لاستماعه ، هذا أبسط ما قيل في معنى هو . وقيل مطالب أخرى وبالخصوص في البعد العرفاني لا يناسب ذكرها المقام .

﴿الله﴾: علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال .

إنّ أسماء الله تعالى جميعاً مشتقّة كالخالق والرازق والرحيم والرحمن وغيرها . . . ومن بين جميع الأسماء اختص الله بالله سبحانه وجُعل علماً واسماً خاصاً به ، ولكن مع ذلك نرى في كتب التفسير أن له أيضاً مبدأ اشتقاق تارة من أَلِهَ بمعنى العبادة ، وأخرى من وَلِهَ أي حزن حزناً شديداً حتى كاد يذهب عقله ، وتحيّر من شدة الوجد فهو والِه ، أو من وَلِه الصبي إلى أمه : فزع إليها ، أو وَلهت الأم إلى ولدها حنّت إليه ، والكل مناسب . وربما يستفاد من اللغة أن الله الذي أصله وَلِه بمعنى تحيّر لا المعاني الأخرى لِوَلِه ، فحينئذ معنى الآية إما عَبَدَ أَو تحيّر فأصله إله ، فزيد عليه الألف واللاّم فصار الله . كذا قيل .

ولكن لا بدّ لنا أن نلتفت إلى أن الله الذي أصله إله لمعنى عَبَدَ وتَحَيَّر كيف صار علماً للذات المستجمع لجميع صفات الكمال ؟ وتوضيح هذا المطلب :

إن حقيقة العبادة وهي الخضوع والخشوع التامان الكاملان على نحو العبودية ، وشكر الإحسان والإنعام والإكرام ، وهذا الخضوع بمعناه الجامع الحقيقي لا ينبغي أن يكون إلا لمن كانت قدرته تامة وكرمه وإحسانه وإنعامه تاماً ، ويكون واجداً لجميع صفات الكمال ، فحقيقة العبادة تقتضي أن يكون المعبود كاملاً من جميع الجهات ، وهذا المعنى وإن لم يذكر

في مورد من القرآن ولكن يستفاد ذلك من مجموعة عدة من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾[1] ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾[3] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ﴾[4] . ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾[5] . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[6] . ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾[7] وغير ذلك من الآيات .

وأما إذا كان الاشتقاق من أَلِه بمعنى تحيّر فالأمر واضح لأن التحيّر التام لا يكون إلا في من استجمع جميع صفات الكمال .

﴿أحد﴾ : قال العلاّمة الطباطبائي : أحد: وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد ، غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ، ولذلك لا يقبل العدّ ولا يدخل في العدد ، بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثان وثالث إما خارجاً وإما ذهناً بتوهم أو بفرض العقل ، فيصير بانضمامه كثيراً ، وأما الأحد فكل ما فُرض له ثانياً كان هو هو لم يزد عليه شيء . واعتبر ذلك في قولك ما جاءني من القوم أحد فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر ، كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما إذا قلت ما جاءني

---

(١) سورة مريم الآية ٤٢ .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٦٦ ـ ٦٧ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ١٧ .
(٤) سورة قريش الآيتان ٣ ـ ٤ .
(٥) سورة يونس الآية ١٨ .
(٦) سورة البقرة الآية ٢١ .
(٧) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .

واحد منهم ، فإنّك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ، ولا ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر ، ولإفادته هذا المعنى لا يستعمل في الإيجاب مطلقاً إلا فيه تعالى .

قال بعض المفسرين : إن عدم قبول الكثرة للأحد ليس مقتضى معناه اللغوي بل هو ثابت في الله سبحانه بدليل آخر ، واستشهد لذلك بقوله تعالى : ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ حيث أطلق أحد على غيره تعالى فتدبّر .

في توحيد الصدوق بإسناده عن علي بن محمد بن عبيد قال : دخلت على الرضا عليه السلام فقال لي : قل للعباسي يكف عن الكلام في التوحيد وغيره ، ويكلم الناس بما يعرفون ، ويكف عما ينكرون ، وإذا سألوك عن التوحيد فقل كما قال عزّ وجلّ : ﴿**قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد**﴾ . وإذا سألوك عن الكيفية فقل كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ ، وإذا سألوك عن السمع فقل كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿**هو السميع العليم**﴾ ، فكلّم الناس بما يعرفون ، انتهى .

فعلى هذا نترك أدلة توحيد الله إلى مقام آخر ومجال أوسع .

﴿**الصمد**﴾ :

قد ذكروا للصمد معاني :

الأول : الموجود الذي لا جوف له ، وروي هذا المعنى بطرق كثيرة في عدة روايات ، وقال بعض المفسرين منهم الفخر الرازي : إن هذا المعنى حيث إنه مخصوص بالأجسام فلا بدّ أن يراد منه المعنى المجازي ، من قبيل

أنه لا يؤثر فيه أو لا يأكل ولا يشرب وغير ذلك .

الثاني : السيد المقصود الذي لا يقضى دونه أمر .

الثالث : المكان المرتفع .

الرابع : السداد . صمَدَ القارورة جعل لها سداداً .

وغير ذلك من المعاني،وعلى أي حال وبأي معنى كان . ذكر عبده نكتة أدبية وهي أن تعريف الصمد يعطي أن المقصود والملجأ هو إله فقط وليس لأحد غيره أن يكون مقصداً ومقصوداً، وبعد ما شرح هذا المعنى شرحاً مفصلاً استنتج أنه ليس لموجود غير الله استقلال في أمر من الأمور ، وهنا روايات كثيرة في معنى الصمد نذكر بعضها تيمّناً وتبركاً . ولكلٍ ما استفاد منه .

قال الباقر عليه السلام : حدّثني أبي زين العابدين عن أبيه الحسين ابن‌علي عليه السلام قال : الصمد الذي لا جوف له ، والصمد الذي قد انتهى سؤدده ، والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد الذي لا ينام ، والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال .

قال عليه السلام كان محمد بن الحنفية يقول : الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره ، وقال غيره : الصمد المتعالي عن الكون والفساد ، والصمد الذي لا يوصف بالتغاير ، قال : الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه آمر وناهٍ .

وسئل عليّ بن الحسين عليه السلام عن الصمد فقال : الصمد الذي لا شريك له ، ولا يؤوده حفظ شيء ، ولا يعزب عنه شيء . وغير ذلك

من الروايات التي فسّرت الصمد بمعان كثيرة ويظهر من هذه الروايات أنهم عليهم السلام كانوا يدركون من الصمد معنى لا يمكن أن يعبر عنه بلفظ مفرد أو جملة واحدة ، فيعبرون عنه بلوازم ذلك المعنى .

وهناك رواية شريفة نذكرها تيمّناً ونختم بها هذا البحث رواها الفيض في الصافي والصدوق في التوحيد ، قال الراوي : سمعت الصادق عليه السلام يقول : قدم وفد من فلسطين على الباقر عليه السلام ، فسألوه عن مسائل فأجابهم ، ثم سألوه عن الصمد فقال تفسيره فيه: الصمد خمسة أحرف فالألف دليل على إنّيته ، وهو قوله عزّ وجلّ ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ﴾[1] وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس . واللام دليل على إلهيته بأنه هو الله ، والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان ولا يقعان في السمع ، ويظهران في الكتاب دليلين على أنّ إلهيته بلطفه خافية لا تدرك بالحواس ، ولا تقع في لسان واصف ، ولا أذن سامع ، لأن تفسير الإله هو الذي أَلِهَ الخلق عن درك ماهيته وكيفيته بحسن أو بوهم ، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواس ، وإنما يظهر ذلك عن الكتابة دليلاً على أن الله تعالى أظهر ربوبيته في إبداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة ، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه ، كما أن لام الصمد لا يتبين ولا يدخل في حاسة من حواسه الخمس ، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف ، ومتى تفكّر العبد في ماهية الباري وكيفيته أَلِهَ فيه وتحيّر ، ولم تحط فكرته بشيء يتصور له ، لأنه عز وجل خالق الصور ، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عزّ وجلّ خالقهم ومركب أرواحهم وأجسادهم ، وأما الصاد فدليل على أنه عز وجل

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨ .

صادق ، وقوله صدق ، وكلامه صدق ، ودعا عباده إلى اتباع الصدق ، ووعد بالصدق دار الصدق ، وأما الميم فدليل على ملكه ، وأنه ملك الحق لم يزل ولا يزال ولا يزول ملكه ، وأما الدال فدليل على دوام ملكه ، وأنه عز وجل دائم متعال عن الكون والزوال ، بل هو عز وجلّ مكوّن الكائنات الذي بتكوينه كل كائن . ثم قال :

لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجلّ حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد ؛ وكيف لي ذلك ولم يجد جدّي أمير المؤمنين حملة لعلمه . حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر : سلوني قبل أن تفقدوني ، فإن بين الجوانح منّي علماً جمّاً ، هاءٍ هاه ألا لا أجد من يحمله ، ألا وإني عليكم من الله الحجة البالغة ، فلا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور .

ثم قال الباقر عليه السلام : الحمد لله الذي منّ علينا ووفّقنا لعبادة الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وجنبنا عبادة الأوثان حمداً سرمداً وشكراً واصباً .

وفي هذه الرواية من الأسرار ما لا يدركه إلا الراسخون في العلم ، وقد وقع مثل هذا التفسير عنهم عليهم السلام في عدة موارد ، منها ما في تفسير كهيعص ، ومنها ما في تفسير طه ، عن الصادق عليه السلام قال : معناه يا طلب الحق الهادي إليه ، وهكذا في حم معناه الحميد المجيد ، وفي حم عسق معناه الحكيم المثيب العالم السميع القادر القوي . وفي رواية : وعلم كل شيء في حم عسق . ولعل هذا من شعب علومهم التي لا منتهى

لها ، والبحر الذي لا ينفد ، وبهذا ربما ينحلّ معنى الآية الشريفة : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1] منضمة إلى قوله ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[2] . فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : أنا والله الإمام المبين أبيّن الحق من الباطل ورثته من رسول الله .

وفي المعاني عن الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله : ﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ قام أبو بكر وعمر من مجلسهما وقالا : يا رسول الله هو التوراة ؟ قال لا ، قالا فهو الإنجيل ؟ قال لا . قالا فهو القرآن ؟ قال لا . فأقبل أمير المؤمنين فقال رسول الله هو هذا ، إنه الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء .

وفي الاحتجاج عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديث قال : معاشر الناس ما من علم إلا علمنيه ربّي وأنا علمته عليّاً وقد أحصاه الله ، وكل علم علمته فقد أحصيته في إمام المتقين وما من علم إلا علمته علياً .

أقول : لا يذهب عليك أنه ما أجاب عليه السلام الشخصين حيث سألا : فهو القرآن ؟ قال لا ، لا ينافي قوله تعالى ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ويظهر هذا بالتأمل في معنى الإحصاء[3] ومعنى في كتاب فتدبّر .

﴿لم يلد ولم يولد﴾ : ربّما يقال لماذا لم يقدم «لم يولد» على «لم يلد» مع أن الجريان الطبيعي يقتضي أن يقال أولاً لم يولد ثم لم يلد . فنقول : إن ذلك من جهة أن ما يدعيه المشركون وأهل الكتاب أن لله سبحانه ولداً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾[4] . والآية الشريفة

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ . (٢) سورة يّس الآية ١٢ .

(٣) أحصى الشيء : أي عدّه وضبطه . المنجد . (٤) سورة التوبة الآية ٣٠ .

ردّ على عقيدتهم . وكما تقول الـوثنية في بعض آلهتهم أنهم أبنـاء الله ، وكما قـالت اليهـود نحن أبنـاء الله وأحبّـاؤه ، وبعـد ردّ هـذه العقيـدة حيث إن المشركين وأهل الكتاب زعموا مولودين إلهاً واتخذوهما أربـاباً من دون الله ، بيّنت الآية أن المولود لا يليق بالألوهية ، وأن الله سبحانه لم يولد ولا ينبغي أن يقال لعيسى أو عزير أو غيرهما إنه إله ، وإلا فلا نعرف أحـداً يـعـتـقـد بأن الله سبحانه مولود بغيره ، بل كما ذكـر في محله أن التوحيـد أمر فـطري للبشر ، وكل أحد يتوجّه بفطرته إلى الله سبحانه ، ثم يجعـل له شـريكاً أو شفيعاً أو ابناً أو بنتـاً أو صاحبـة له تعـالى ، ثم يعتقد للمنتسب إليـه تعالى الألوهية ، ولم يكن أحد من المشركـين يعتقد أن الله تعـالى مولـود . فالآيتـان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئاً بتجزيه في نفســه فينفصل عنـه شيء سنخه بأي معنى أريد من الانفصال والاشتقاق ، كما يقول به النصـارى في المسيح وتنفيان عنه أن يكون متولداً من شيء آخـر . ومشتقاً منـه بأي معنى أريد من الاشتقاق ، كما تقول الوثنية ، ففي آلهتهم من هو إله أبـو إله ومن هي إلهة أم إله ومن هو إله ابن إله .

﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ :

الكفء والكفـء والكِفـء كالشكر والصبر والفكر ، وكَفُوء كصبور الكفوء كصدور وكفيء كشريف وكفيئة كشريفة كلها بمعنى النـظير والعديـل والمثل والمسـاوي ، فلم يكن له تعالى كفـو يعـدلـه في ذاتـه وفعله ، وهـو الإيجـاد والتدبير ، ولم يقل أحد من المليين وغيرهم بـالكفو الـذاتي بأن يقـول بتعدد واجب الوجود عز اسمه ، وأما الكفو الفعلي وهو التدبير فقد قيل بـه كآلهـة الوثنية من البشر ، كفرعون ونمرود من المدعين للألوهية .

ولمفسّر الميزان قدّس سرّه هنا كلمة لطيفة وهي أن ملاك الكفاءة عندهم (أي الوثنيين) استقلال من يرون ألوهيته في تدبير ما فوض إليه تدبيره ، كما أنه تعالى مستقلّ في تدبير من يدبره ، وهم الأرباب والآلهة ، وهو ربّ الأرباب وإله الآلهة وفي معنى كفاءة هذا النوع من الإلّه ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات ، فإنه كفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالى ، وهو محتاج من كل جهة ، والآية تنفيها .

وهذه الصفات الثلاث المنفية ، وإن أمكن تفريع نفيها على صفة أحديّته تعالى بوجه ، لكن الأسبق إلى الذهن تفرعها عن صفة صمديّته .

أما كونه لم يلد ، فإن الولادة التي هي نوع من التجزي والتبعض بأي معنى فسرت لا تخلو من تركيب في من يلد ، وحاجة المركب إلى أجزائه ضرورية ، والله سبحانه صمد ينتهي إليه كل محتاج في حاجته ولا حاجة له .

وأمّا كونه لم يولد فإنّ تولد شيء من شيء لا يتم إلا مع حاجة من المتولد إلى ما ولد منه في وجوده ، وهو سبحانه صمد لا حاجة له .

وأمّا أنه لا كفؤ له فلأن الكفؤ سواء فرض كفواً له في ذاته أو في فعله ، لا تتحقق كفاءته إلا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى في ما فيه الكفاءة ، والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كل من سواه من كل جهة مفروضة .

فقد تبينّ أن ما في الآيتين من النفي متفرع على صمديّته تعالى ، ومآل ما ذكر من صمديته تعالى وما يتفرع عليه إلى إثبات توحده تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله ، بمعنى أنه واحد لا يناظره شيء ولا يشبهه . فذاته

تعالى بذاته ولذاته من غير استناد إلى غيره واحتياج إلى سواه ، وكذا صفاته وأفعاله وذوات من سواه وصفاتهم وأفعالهم بإفاضة منه ، على ما يليق بساحة كبريائه وعظمته ، فمحصل السورة وصفه تعالى بأنه أحد واحد .

ومما قيل في الآية إن المراد بالكفؤ الزوجة ، فإن زوجة الرجل كفؤه ، فيكون في معنى قوله ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً﴾[1] . وهو كما ترى . انتهى ما ذكره المفسر الكبير الطباطبائي قدّس سرّه .

أقول : ومما ذكره قدّس سرّه يظهر معنى الرواية الشريفة على ما في التوحيد عن الصادق عليه السلام عن آبائه : إن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد ، فكتب إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فلا تخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه ، ولا تتكلموا فيه بغير علم ، فقد سمعت جدّي رسول الله يقول : من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ، وإن الله سبحانه فسّر الصمد فقال : الله أحد الله الصمد . ثم فسّره فقال : لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

***

(١) سورة الجن الآية ٣

سُورَةُ الفَلَق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ* وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ* وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ* وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ*﴾
صدق الله العليّ العظيم

أسباب النزول

ذكر المفسّرون في سبب نزول هاتين السورتين أن عبيد بن أعصم اليهودي أو هو مع عدة من البنات سحروا النبيّ صلّى الله عليه وآله على وتر فيه إحدى عشرة عقدة وجعلوه في بئر ، فمرض النبيّ من أثر ذلك السحر حتى أتاه جبرائيل وأخبره أن فلاناً سحرك . فأرسل النبي صلّى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام فوجد الوتر ، فجاء به إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله ،وكان جبرائيل قد أنزل يومئذٍ المعوذتين على النبيّ فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام : اقرأهما على الوتر ، فكان أمير المؤمنين كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى فرغ منها وكشف الله عن نبيّه سحرهم .

هـذه خلاصـة ما ذكـروه في سبب نزول السـورتين ، وبعضهم ذكـر القصة بجزئياتها التي لا تليق بشخصيّـة الرسـول صلّى الله عليـه وآله ، من قبيلِ أن النبيّ صلّى الله عليه وآله كان يقول : كنت أفعل شيئاً وأتخيّـل أنني ما فعلَته أو العكس . مع أمثلة ذكروهـا يمكن أن يكون في نقلهـا إهانـة له صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وبعض المحققين من مفسّـري الشيعـة كـأبي الفتـوح ، ومن السنّـة كعبــده ، رأوا أن سبب النــزول هــذا غـير صحيــح ؛ وأشكلوا عليــه بإشكالات ، واستندوا في ذلك الى القرآن الكريم ، حيث يقول في مقام ذمّ الكفّــار للمسلمـين : ﴿إنْ تَتَّبِعُــونَ إلاّ رَجُـلاً مَسْحُــوراً﴾ . ولا يجــوز للمسلمين أن يقولوا في حقّ نبيّهم ما قاله الكافـرون . فقبول سبب النـزول هذا تصديق لقول الكفّار . ويقـول القرآن الكـريم : ﴿وَلا يُفْلِحُ الساحِـرُ حَيْثُ أتى﴾ فهـل توجـد وسيلة أعظم وأخـطر للكفار ولأعـداء الإسلام من هـذه النسبة ، بـأن ينسب للرسولِ أنـه قال كنت أفعـل الشيء وأظنّ أنّي لم أفعله أو لم أفعـل الشيء وظننت أنّي فعلتــه ، وأمـثـال هــذه المطالـب السخيفـة . لهذا قـال عبده إن سبب النـزول هـذا بـاطـل من أصله وغـير صحيح لأنّه :

أولاً : صحة هذه الروايات ليست مقبولة عند الكل ، خصوصاً مـع التنبيه بأن محل وقوع القصة في المدينـة والسورتـان مكّيّتان عـلى قول الأكـثر والأشهر .

ثـانياً : لـو فرض أن الـروايـة صحيحـة فهي خبـر واحـد ولا يمكن الاعتماد في العقائد على خبر الواحد .

مضافاً إلى أن الرواية معارضة صراحة للقرآن الكريم .

ومضافاً إلى أنها مخالفة للقول بعصمة الأنبياء عن الخطأ في القول والفعل ، والتي هي مورد إجماع المسلمين ومن الضروريات . ولكن المفسّر الكريم أبا الفتوح الرازي على ما حكي ، بعدما ذكر من الإشكالات قال : يمكن أن نقول إن السحرة أرادوا أن يسحروا النبيّ صلّى الله عليه وآله لإيذائه ولكن ما ضرّه سحرهم شيئاً ؛ والله سبحانه أعلمه بذلك وأخبر النبيَّ صلّى الله عليه وآله عن هذا الأمر الخفي ، وعلى هذا يكون هذا الحدث من آيات نبوته وأدلة ارتباطه بالغيب والوحي .

ويمكننا أن نقول : إن ما لا بدّ لنا من قبوله والالتزام به هو عدم تأثير السحر وكلّ شيء آخر في روح النبيّ صلّى الله عليه وآله وفكره وعقله بحيث يوجد الاختلال ـ والعياذ بالله ـ في عقله . ولكن لا بأس بأن نقول إن السحر قد أثّر في جسمه وصار مريضاً ، كما قال الطنطاوي والمفسّر الكبير الطباطبائي وغيرهما . فلا بأس بالالتزام بذلك ، فكما أنّه يؤثّر السلاح في جسمه الشريف صلّى الله عليه وآله وسلّم أو بعض الأمور في صحّته الشريفة فيصير مريضاً ، كذلك يكون السحر مؤثراً فيه .

وقد ورد في آية ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .﴾ أن معناها أنهم يكادون يصيبونك بالعين ، إذ روي أنّه كان في بني أسد عيَّانون فأراد بعضهم أن يعينه فنزلت الآية السابقة ، وفي الحديث : «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر» . وفي المجمع : جاء في الخبر أن أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين فأسترقِ لهم ؟ فقال : «نعم ، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين» .

وهذا التوجيـه الذي ذكـرناه يصـحّ لو سلّمنا :

أولاً : بسبب النزول ولا نرده ، ولا نستطيع أن نرده كلياً

وثانياً : تفسير النفاثات في العقد بالسحرة . وسيجيء البحث فيها إن شاء الله عزّ وجلّ .

﴿قل أعوذ بربِّ الفلق﴾ :

الفلق بسكون اللاّم : كفـرق وفتق وفجر لفـظاً ومعنى بمعنى الشق . والفلق بالتحريك : الصبح ، والخلق كله ، وبيان الحق بعد إشكـال ، وله معـان أخر لعلهـا ترجـع إلى معنى واحـد وهـو خـروج النـور من الـظلمـة كالصبح ، قـال تعالى : **﴿فـالِقُ الإصباح﴾** . وكـالخلق كله لأن فيه جميعـاً نوعاً من الفتق ، قال تعالى : **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ السَمٰواتِ وَالأرْضَ كانَتـا رَتْقاً فَفَتَقْنَـاهُمـا﴾** . وقيـل إن أحـد معـانيـه : جهنّم ، وعـلى هـذا يكـون من الأضداد ، لأن جهنم ظلمة لا نور فيها ، وفي الدعاء : «**أعوذ** بك من نار نورها ظلمة» . والمعنى الجامع الذي يناسب المقام أشدّ المناسبـة هو الـذي ذكرناه ، فان المستعيذ يستعيذ بربّ الفلق الذي أخرج النور من الظلمة أن يخرجه من ظلمات الشرور إلى نور الفلاح والنجاة .

﴿مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ﴾ :

من شرّ ما يحمل شرّاً من الإنس والجن والحيوانات وسائـر ما لـه شرّ من الخلق ، فـإن اشتمال مـطلق ما خلق عـلى الشرّ لا يستلزم الاستغـراق وذلـك نظير قـولـه صـلّى الله عليـه وآلـه : «إتّق شرّ من أحسنت إليه» . فتدبّر .

وهنا نقطة ذكرها عبده على ما حكي وهو أن الله سبحانه لم يقل من شرّ الخلق ولا من شرّ خلقه مع أن الأول أخفّ في الآية تلفّظاً والثاني لفظاً وكتابة ، وذلك لأنّ الشرّ لا يجيء من قبل الخلق بما أنه فعل لله تعالى ، فإن فعله كله خير، وإنما الشر من المخلوق . فتدبّر جيّداً ، فإنّ ما ذكره من أصول العلوم العرفانية الإلهية ، قال تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ .

﴿وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ﴾ :

المعنى الأصلي للغسق : السيلان ، كما ذكره بعضهم ، وبهذا المعنى استعمل غسّاق في شراب أهل النار ، قال تعالى : ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً إلاّ حَمِيماً وغَسَّاقاً﴾ والمراد بالبرد ما يروّحهم وينفّس عنهم حرّ النار ، وهكذا في قوله تعالى ﴿هٰذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسّاقٌ﴾ والغسَّاق ما يسيل من صديد أهل النار . وبهذه المناسبة أطلق الغاسق على الليل فإن الشرور والمساوئ تكون فيه أكثر منها في النهار ، وهكذا أطلق على مطلق الظلمة ، ولعله بهذه العناية أي أخذ معنى السيلان في الظلمة أيضاً أطلق في قوله تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ اللَّيلِ﴾ . وقد فسّر بنصف الليل ، فكأنّ نصف الليل غاية الظلمة وسيلانها .

والوقوب بمعنى الدخول ، وقب الرجل أي جاء ، وليس مطلق الدخول على الظاهر بل نوع من الدخول لا يترك مكاناً إلا دخله ، كمن يدخل منزلاً للتفتيش فيدخل جميع زواياه وغرفه ويمرّ على كل شيء فيه ، وكالسيل الذي يدخل مكاناً ولا يترك موضعاً إلا جرى فيه ، فيكون المعنى ، أعوذ بالله من شرّ كلّ ما يهجم ويضرّ بهجومه، ومن شرّ الليل وشرّ

كـلّ ظلمة ، كـما أن الوحـوش والسباع تخـرج في الليل من أوكـارها وتضرّ الناس ،والأغنام وغيـرها ، وكـما أن المرضى يكـونون في الليـل أشـدّ حـالاً ويشعرون بالوجع أكـثر منهم في النهار . وبـالجملة فالشـرور في الليل أكـثر خصوصاً بـالنسبة للبـدويّين الـذين كانـوا هم المخاطبـين بالقـرآن في عصر النزول ، وكانوا أكثر عدداً ؛ وكان أكثر هجوم القبائل والقتـل والقتال فيهم في الليل ، وهكذا الاستعاذة من جميع أنواع الظلمة كظلمة الكفـر والشرك وعدم الإيمان والاعتقاد ، وظلمة فساد الأخلاق وسيّئات الأعمال ، وظلمـة الظلم والجور والخيانة وهتك النواميس وغير ذلك ، فإن هذه الـظلمات إذا شاعت وذاعت في المجتمع كما في هذا العصر فلا بدّ للمؤمن من أن يعتصم ويتحرّز منها بالالتجاء إلى الله ، ويستمدّ منه تعالى العون للتخلّص منها .

﴿وَمِنْ شَرِّ النَفَّاثاتِ في العُقَدِ﴾ :

النفث بمعنى النفخ والبصاق أو هو مع البصـاق ، والعقد جمـع عقدة كنكت جمـع نكتة وغُـرف جمع غـرفة . ومعنـاه واضح ، فـالمعنى النسـاء أو النفوس التي تنفث في العقد وتلقي عليها شيئاً من البصاق ، نظير السحـرة إذ يـظهـرون أنّهم بهـذا العمـل يعقـدون البعض في أمـورهم ، أو بفكهم العقد يظهرون أنّهم يفكون العقد من أمور الناس .

أقول : مسألة السحر والكهـانة من الأمـور التي لا مجال لإنكـارها ، وللسحـر أقسام عـديدة ، وقـد تعرض العلماء لتفصيلهـا وليس هنا مـوضع ذكـرها ، وللسـاحرين أعمـال عجيبة ، وفي الأزمنـة القديمـة كـان السحـر رائجاً ، وفي العصر الحاضر نظراً إلى تقدم العلوم التجريبية ، تركته العلوم الغـربية . فتفسـير الآيات بمعنـاها الـظاهر لا إشكـال فيه ، ولقـد فسـرت

الآيات بمعان أخر ، منها أن المراد بالنفاثات في العقد النساء اللاتي يذهبن بعقول الرجال بالمحبة والعشق كما نقل عن أبي تمام :

السالبات الفتى عزيمته بالسحر والنافثات في عُقَدِهْ

ونقل الطباطبائي في تفسيره ، ولعله أخذ عن المجمع : وقيل : المراد بالنفاثات في العقد اللاتي يملن آراء أزواجهن إلى ما يرينه ويرونه ، فالعقد هو الرأي والنفث في العقد كناية عن حلّه ، ولذا يقال للعزم والتصميم عقد القلب ، وجمعه عقد . فعلى هذا فسخ التصميم ونقض العهد يسمى النفث ، وهذا المعنى لا بأس به (وإن كان الطباطبائي - قدّس سرّه - استبعده) وذلك لأنه معنى فيه التعليم والتوعية ، ولعلّ هذا المعنى أحسن من معنى السحر ، فإن سحر النفاثات في العقد إن كان يؤثر في بعض الأشخاص وبعض الموارد وبعض الأزمنة ، فضرر النساء السالبات عن الشباب العزم والتصميم ،وجعلهم مفتونين ومسحورين بهن، وجرهم إلى مقاصدهن وهواهنّ وأفكارهن الشيطانية عام لجميع الأزمنة وجميع الشباب ، بل غير الشباب أيضاً . وفي القرآن أيضاً مع أنه جعل كيد الشيطان ضعيفاً ، نقل عن قول عزيز مصر : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فالنساء-وبالأخصّ في عصرنا الحاضر - من أعظم وسائل الفساد والإفساد وإشاعة الفحشاء والمنكرات والجنايات ، وكثيراً ما يصرفن الرجال عن أفكارهم العالية والإصلاحية والعزائم المفيدة ، ويؤدين بهم إلى الفساد والانحطاط ، ويجعلنهم أعضاء زائدة في المجتمع ، بل الأعضاء الفاسدة التي تضرّ بحال المجتمع ، فكم من امرأة جرّت زوجها لهواها ودفعته إلى الخيانة والسرقة والاحتكار والربا في الكسب والتجارة ، رغم جميع الفضائل النفسانية ، اتّباعاً لميلها ورقابتها لمرأة أخرى مثلاً ، فليس جزافاً ما قاله

رسول الله صلّى الله عليه وآله :«إن الزوجة الصالحة للرجل خير من الدنيا وما فيها . .» .

وقال بعض المفسّرين : إنّ العقد والعقدة هو العقد الذي يكون في الخيط أو الحبل ، ويقال أيضاً لكل علاقة ورابطة ؛ كما قال تعالى للرابطة الشرعية بين المرء وزوجه عقد النكاح ، أو يقال للإيجاب والقبول في المعاملات كعقد البيع وعقد الإجارة وغيرها .

ونفّاثات : جمع نفّاثة ، وتاء نفّاثة للمبالغة ، وتطلق على الرجل والمرأة كالعلاّمة لا للتأنيث .

والمقصود من النفّاثات هم النمّامون الذين يحلُّون روابط الإلفة والمحبة بين الإخوان ويقطعون حبل المودّة بينهم ، والسرّ في التعبير عن النمّامين بالنّفاثات في العقد ، أنّ الله سبحانه كأنّه شبّههم بالسحرة الذين يجعلون الناس في الشبهة والخطأ بالشعبذة والحيلة والألفاظ غير المفهومة ، ويحرفونهم عن الطريق المستقيم ويخلقون فيهم أفكاراً وعقائد خاطئة .

والنّمام . . من جهة أنه يسعى إلى النزاع بين الإخوة بالسر والخفاء والمكايد الخفيّة يشبَّه بالساحر والمشعبذ ، ولذلك أطلق عليهم لفظٌ يختصّ بالسحرة والمشعبذين ، ولكن لا مانع من شمول إطلاقه على النمّام أيضاً ، فمن جهة المعنى والحقيقة صحيح ، وهذا المعنى يناسب سياق الآيات ، لأنّه أمر بالاستعاذة من الظلمة الشديدة الهاجمة في الآية السابقة . والنمّام يريد أن يجعل الظلمة في قلوب الإخوان ، وكذلك الآية التي بعدها ؛ فإن النمّام والحسود ارتضعا من ثدي واحدة ، وكلاهما يسعيان لإغراء الناس وإضرارهم . إضافة إلى أن منشأ النميمة هو الحسد غالباً ، كما ذكره علماء

الأخلاق . وخلاصة القول : إن العقد يمكن أن يكون بمعنيين :

الأول : العزم والتصميم .

الثاني : الارتباط وما يوجب الارتباط .

وكذلك النفاثات يمكن إطلاقها على الرجال أيضاً ، فعلى هذا يمكن لنا أن نقول : إنه لو كان العقد بمعنى العزم والتصميم ، فالنفاثات يمكن أن تطلق على النساء والرجال والدول الذين يكون عملهم هو منع العمل الصالح ؛ إما بترويج الفساد أو بالدعايات الباطلة ، فيسوقون المجتمع إلى حضيض الفساد والهلاك والدمار .

ولو كان العقد بمعنى الرابطة وموجباتها فالفرد أو القوم أو الدولة أو الحكومة التي أرادت أن تخل في إرادة قوم أو مجتمع أو أناس إما بالنميمة أو غيرها فالآية تشملهم .

فالنفاثات مضافاً إلى المعنى المشهور ، لها المعاني التالية :

الأول : النساء اللاتي يسلبن من الشباب والرجال عزائمهم وتصميماتهم بتجمّلهنّ ودلالهنّ ، ويسقنهم إلى الفحشاء والمنكرات .

الثاني : النمّامون الذين يحلّون روابط الناس ، ويجعلون قلوبهم مظلمة بالنسبة لإخوانهم .

الثالث : عموم الأفراد الذين يشيعون الفاحشة ويروّجون المفاسد الأخلاقية والاجتماعية ، ويقطعون روابط الناس ، ويجعلونهم منحطّين خُلقياً ، فعلى هذا فإن جميع البلدان القوية والاستكبار العالمي التي تسعىٰ إلى استعباد الدول الضعيفة وتروّج فيها عوامل الفساد ، وعمّال الاستكبار

والحكّام الرجعيين وعملاءهم ، كلّهم من النفاثات في العقد، ولا بدّ من الاستعاذة بالله من شرورهم . وقال بعض العارفين : ومن شرّ النفّاثات أي القوى النفسانية من الوهم والتخيّل والغضب والشهوة ونحوها، التي تنفث في عقد عزائم السالكين بإيهانها بالدواعي الشيطانية وحلّها ونكثها بالوساوس والهواجس ، فهذا نموذج قليل من شمول معاني القرآن الكريم وعمق معاني آياته .

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ :

الحسد : أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنّى زوالها عنه ، والحسد حرام مطلقاً إخفاؤه أو إظهاره .

وأمّا الغبطة فلا بأس بها ، بل هو راجح كما قال الصادق عليه السلام : « المؤمن يغبط ولا يحسد والمنافق يحسد ولا يغبط » .

إنّ الحسود ومن هو مبتلٍ بهذا المرض الروحي لو كان مسلطاً على نفسه ، ولم يعمل شيئاً للمحسود ، فلا ضرر فيه غير العناء والمشقة لنفسه ؛ فإن هذا المرض يؤذيه دائماً ولكن لا يضر غيره في هذه الصورة ، فلهذا قيدت الاستعاذة في الآية الكريمة بصورة العمل إذا عمل شيئاً . وقال تعالى : ﴿مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾ . أي عمل بحسده وأظهره في الخارج ، وأما إذا لم يظهره فليس ضرره إلا على نفسه ، ولهذا قيل : « الحسد يأكل الجسد » . وقيل : « الحسد منصف لأنه يبدأ بصاحبه». وقال عليه السلام :«لله درّ الحسد فما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله» . وقيل : « الحسود لا يسود » . وذلك لأن ضرره لنفس الحسود . وأما إضراره الغير فغير معلوم ، قال الصادق عليه السلام : « الحاسد مضرّ بنفسه قبل أن

يضرّ بالمحسود كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم عليه السلام الاجتباء » وقال عليه السلام : « العجب لغفلة الحسّاد من سلامة الأجساد ». وقال صلّى الله عليه وآله : « صحّة الجسد من قلّة الحسد ». وقال عليّ عليه السلام : « يكفيك من الحاسد أنه يغتم في وقت سرورك ». وقال لقمان لابنه : « إياك والحسد فإنه يتبين فيك ولا يتبين في من تحسد ».

وقال الشاعر ونعم ما قال :

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله ‏ ‏ ‏ كالنار تأكل نفسها : إن لم تجد ما تأكله

وأما إذا خرج الحسد إلى مرحلة العمل فحينئذ يكون الحاسد أخطر من كل عدو لأنه لا يظهر حسده بل يخفيه ، والمحسود لا يعلم أن عدواً مثله من ورائه يتشبث بإذلاله وإضراره بشتّى الوسائل ، فهو يسعى إليه ليلاً ونهاراً ولا يفتر حتى ينتصر على المحسود ، أو يعجز عن العمل وتنتهي قواه ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الحسد داء عياء لا يزول إلا بهلاك الحاسد أو بموت المحسود ».

وإذا لم يكن قادراً على شيء فيُخرج من عينه لهيباً جهنّمياً يحرق المحسود وماله من الأموال وغيرها ؛ ولذلك نقل المحدث الفيض ـ قدّس سرّه ـ رواية في تفسيره أنه قال في هذه الآية : أما رأيته إذا فتح عينيه وهو ينظر إليك فهو ذاك . وقال المفسّر الكبير الطباطبائي في تفسيره الميزان : « وقيل الآية تشمل العائن ، فعين العائن نوع من حسد نفساني يتحقّق منه إذا عاين ما يستكثره ويتعجّب منه ».

وتأثير العين وآثارها المضرة لا تحتاج إلى توضيح ، وهو من

المسلمات ، وبالأخص في يومنا هذا مع ما نرى من التقدم في العلوم النفسية والروحية والتنويم المغناطيسي ، فقد ثبت أن النفوس القويّة أعمّ من أن تكون سليمة أو خبيثة ، تقدر من طريق العين أن تؤثر في الأشخاص والموجودات الخارجية ؛ فقد سمعت أنه يوجد في الهند من المرتاضين من يوقف القطارات الحديدية عن الحركة ، فكما أن النفوس العالية تؤثر في الأشخاص والأشياء آثاراً حسنة ، كذلك النفوس الخبيثة تؤثر أثر السوء ـ وكلّ إناء بالذي فيه ينضح ـ. وقد وردت في الروايات أدعية كثيرة للحفظ من الحسد وآثاره السيئة ، وعن الصادق عليه السلام : « كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يتعوّذ كلّ يوم من ستّ : من الشكّ والشرك والحميّة والغضب والبغي والحسد ».

وعلى أي حال فالحسد مرض مهلك ومن الموبقات ، فإن خطره على أصل الإيمان ، كما في الرواية عن الصادق : « إن الحسد يأكل الايمان كما تأكل النار الحطب ». ونعوذ بالله من أن يقع الإيمان في خطر فتنقطع عن صاحبه جميع وسائل الرجاء ، فإن من مات على غير إيمان فلا تشمله شفاعة الشافعين ، وقال أبو عبد الله (عليه السلام) : « آفة الدين الحسد والعجب والفقر ». وفي الكافي عنه : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : قال الله تعالى لموسى عليه السلام « يا بن عمران لا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ، ولا تمدّنّ عينيك إلى ذلك ، ولا تتبعه نفسك ، فإن الحاسد ساخط لنعمي ، صادّ لقسمي الذي قسمت بين عبادي ، ومن يكن كذلك فلست منه وليس منّي ».

وقال الصادق عليه السلام : « الحاسد مضرٌّ بنفسه قبل أن يضر المحسود ، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محلّ حقائق

العهد والاصطفاء . فكن محسوداً ولا تكن حاسداً ، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف لثقل ميزان المحسود ، والرزق مقسوم ، فماذا ينفع الحسد الحاسد ، وماذا يضر المحسود الحسد ؟ والحسد أصله من عمل القلب وجحود فضل الله تعالى ، وهما جناحان للكفر . وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد ، وهلك هلاكاً لا ينجو منه أبداً » .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « ألا إنه قد دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم وهو الحسد ، وليس بحالق الشعر لكنه حالق الدين » .
وللحسد قصة عجيبة وقعت في زمان موسى الهادي ببغداد ، رواها المجلسي في بحار الأنوار (مجلد ٧٠ صفحة ٢٥٩) وهي أنه كان رجل من أهل النعمة ، وكان له جار من دون حاله ، وكان يحسده ويسعى بكلّ مكروه يمكنه ، ولا يقدر عليه ، وقال : فلمّا طال عليه أمره وجعلت الأيام لا تزيده فيه إلّا غيظاً ، اشترى غلاماً صغيراً فربّاه وأحسن إليه ، فلما شبّ الغلام واشتدّ وقوي عصبه ، قال له مولاه : يا بني إني أريدك لأمر من الأمور جسيم ، فليت شعري كيف تكون لي عند ذلك ، قال : كيف يكون العبد لمولاه ، والمنعَم عليه للمحسن إليه ، والله يا مولاي لو علمت أن رضاك في أن أتقحم النار لرميت بنفسي فيها ؛ ولو علمت أن رضاك في أن أغرق نفسي في لجّة البحر لفعلت ذلك؛ وعدّد عليه أشياء ، فسرّ بذلك من قوله وضمّه إلى صدره وأكبّ عليه يترشّفه ويقبّله ، وقال : أرجو أن تكون ممن يصلح لما أريد . قال : يا مولاي إن رأيت أن تمنّ على عبدك فتخبره بعزمك هذا ليعرفه ويضمّ عليه جوانحه ، قال : لم يحن ذلك بعد ، وإذا كان ذلك فأنت موضع سرّي ومستودع أمانتي .

فتركه سنة ثم دعاه فقال : أي بني . . قد أردتك للأمر الذي كنت أرشّحك له . قال له : يا مولاي مُرْني بما شئت ، فوالله لا تزيدني الأيام إلاّ طاعة لك ، قال : إن جاري قد بلغ منّي مبلغاً أحبّ قتله ، قال : فأنا أفتك به الساعة ، قال لا أريد هذا ، وأخاف ألاّ يمكنك ، وإن أمكنك أحالوا ذلك علي ، ولكنّي دبّرت أن تقتلني أنت وتطرحني على سطحه ، فيؤخذ ويقتل بي .

فقال له الغلام : أتطيب نفسك بنفسك ، وما في ذلك تشفٍّ من عدوّك ! وأيضاً فهل تطيب نفسي بقتلك ، وأنت أبرّ من الوالد الحدب ، والأم الرفيقة ؟ قال : دع عنك هذا ، فإنما كنت أربّيك لهذا ، فلا تنقض عليّ أمري فإنه لا راحة لي إلا في هذا ، قال : الله الله في نفسك يا مولاي ، وأن تتلفها للأمر الذي لا يُدرى أيكون أم لا يكون ، فإن كان ، لم تر منه ما أملت وأنت ميت ، قال : أراك لي عاصياً ، وما أرضى حتى تفعل ما أهوى . قال : أما إذا صحّ عزمك على ذلك فشأنك وما هويت لأصير إليه بالكره لا بالرضى ، فشكره على ذلك ، وعمد إلى سكين فشحذها ودفعها إليه ، وأشهد على نفسه أنه دبّره ودفع إليه من صلب ماله ثلاثة آلاف درهم ، وقال : إذا فعلت ذلك فخذ في أي البلاد شئت ، فعزم الغلام على طاعة المولى ، بعد التمنّع والالتواء . فلمّا كان في آخر ليلة من عمره ، قال له تأهّب لما أمرتك به ، فإني موقظك في آخر الليل ، فلمّا كان في وجه السحر ، قام وأيقظ الغلام ، فقام مذعوراً ، وأعطاه المدية ، فجاء حتى تسوّر حائط جاره برفق واضطجع على سطحه ، فاستقبل القبلة ببدنه ، وقال للغلام : هيّا وعجّل ، فترك السكين على حلقه وفرى أوداجه ، ورجع إلى مضجعه ، وخلاّه يتشحّط بدمه .

فلمّا أصبح أهله خفي عليهم خبره ، فلمّا كان في آخر النهـار أصابـوه على سطح جاره مقتولاً . فأخذوا جـاره وأحضروا وجـوه المحلة لينظروا إلى الصورة ، ورفعوه وحبسـوه وكتبوا بخبـره إلى الهادي ، فـأحضره فـأنكر أن يكون له علم بذلك ، وكان الرجل من أهل الصلاح ، فأمر بحبسه ومضى الغلام إلى أصبهان .

وكان رجل من أوليـاء المحبوس وقـرابته هنـاك ، وكان يتـولى العطاء للجند بأصبهان ، فرأى الغلام وكان عارفاً به ؛ فسأله عن أمر مولاه ، وقد كان وقع الخبر إليه ، فأخبره الغلام حرفاً بحرف ، فأشهد على مقالته جماعة وحمله إلى مـدينة السـلام ، وبلغ الخبر الهـادي فأحضر الغـلام فقصّ عليـه أمـره كله ، فتعجّب الهادي من ذلـك ، وأمر بـإطـلاق الـرجـل المحبـوس وبإطلاق الغلام أيضاً . انتهى .

وروي أن في السماء الخامسة مَلَكاً يمرّ به عمـل عبد لـه ضوء كضـوء الشمس فيقـول : قف فأنـا ملك الحسـد ، اضـرب وجـه صـاحبـه فـإنـه حاسد .

وفي وصيّة الصادق عليه السلام لأبي جعفـر النعمان الأحـول : « إنَّ أبغضكم إليّ المترئّسون المشّاؤون بالنمائم ، الحسدة لإخوانهم ليسوا منّي ولا أنا منهم ، إنّما أوليائي الذين سلّموا لأمرنا واتبعوا آثارنا واقتـدوا بنا في كـل أمـورنا » ثـم قـال : « والله لو قـدَّم أحدكم مـلء الأرض ذهباً عـلى الله ثم حسد مؤمناً لكان ذلك مما يكون به في النار » .

أعاذنا الله وإخواننا منه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

سُورَةُ النَّاسِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ *﴾ . صدق الله العليّ العظيم .

في هذه السورة ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى : الربّ ، الملك ، الإله .

الربّ : بمعنى المالك أي من يملك عالم الخلق والإنسان والحيوان والجن والملك وكل ذلك مملوك له ، وله معان أخر .

قال الإمام القائد الخميني (دام ظلّه) :

إنّ في الربّ اعتبارات ثلاثة ، فإذا كان بمعنى المتعالي الثابت والسيد فهو من الأسماء الذاتية ، وإن كان بمعنى المالك والصاحب والغالب والقاهر فمن الأسماء الصفاتية ، وإن كان بمعنى المربّي والمنعم والمتمّم فمن الأسماء الأفعالية . وله ـ دام ظلّه ـ تحقيق في ذلك يطلب من كتاب (الآداب

المعنوية للصلاة) في تفسير سورة الحمد في قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

والملك: بمعنى سلطان مملكة الوجود ، الذي قهر بسلطانه الكائنات فقرّر فيها نظام الوجود ، وأجرى فيها القوانين الطبيعيّة ، وجعل الأحكام والشرائع بحكمته البالغة ، وبيده العزّة والذلّة والموت والحياة والثواب والجزاء ، وبعبارة موجزة : أزمّة الأمور طرّاً بيده .

والإله: من أله بمعنى تحيّر ، وهو الذي تحيّرت فيه عقول العقلاء وكلّت فيه أفكار المتفكّرين ، كما قيل فيه :

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا
أنت حيّرت ذوي اللبّ وبلبلت العقولا
كلّما أقدم فكري فيك شبرا فرّ ميلا

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام : « ضلّت فيك الصفات وتفسّحت دونك النعوت وحارت في كبريائك لطائف الأوهام الخ . . . » وبمعنى المعبود أيضاً .

وبهذا البيان يعلم أن هذه الأسماء المقدّسة ربما تكون لبيان مراتب المعرفة ودرجات العرفان بالله ، فكأنّ الله سبحانه يقول : إن الانسان أوّلاً بمشاهدته آثار الربوبية والنموّ والتربية في الموجودات وفي نفسه ، يتذكر مربّيها وصاحبها ومنعمها ، ثمّ بعد ذلك ينظر بدقّة ويرى أنّ كلّاً من السماوات والأرض والشمس والنجوم . . . مسخّرات بأمره ، والنظام الكامل الأتمّ حاكم عليها ، كما نشاهده من اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الفصول والتدبيرات التي تشاهد في عالم الخلق من الذرّة إلى

الذروة ، ومن الثرى إلى الثريّا . فتزيد معرفته لمدبّرها ومالكها ، ثم بعد هاتين المرحلتين تزيد معرفته ويرى أن هذ الموجد والرازق والناظم والمدبّر يستأهل العبادة فيعبده .

وربّما يتوجّه هنا سؤال: وهو أنّ الله سبحانه مع أنّه ربّ جميع الموجودات كما في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . والعالَمون وهو الجمع المحلّىٰ بالألف واللام تفيد العموم ، أي جميع العوالم من الغيب والشهادة والملك والملكوت .

ومع أنه سبحانه ملك على الإطلاق ، وقد وسع كرسيّه السموات والأرض، والكرسي وهو الذي يجلس عليه الملك، وهذا التعبير وأمثاله في لسان القرآن والشرع من العرش والكرسي واللوح والقلم وغيرها كأنّها استعارات ومن باب التشبيه والكناية ، ومن قبيل تشبيه غير المحسوس بالمحسوس ، كقولنا : زيد كثير الرماد ، كما قاله بعض المفسّرين .

وكذلك الاسم الإله فإنه (سواء أكان بمعنى التحير أو التعبد كما ذكرنا) لا يخصّ بني آدم فقط بل جميع المخلوقات ، فهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴿إنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ إلاّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدَاً﴾ . فإذا كانت ربوبيّته تعالى وملكه سبحانه وألوهيَّته جلّ وعلا عامّة وشاملة لجميع الموجودات فما وجه إضافة هذه الأسماء في السورة المباركة إلى الناس ؟ ونجيب عن ذلك بأمور :

أولاً : إن المخاطب وإن كان هو الرسول صلّى الله عليه وآله بقوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ولكن الخطاب يشمل جميع المكلّفين ، وإنّما الرسول مشرّف بالخطاب ، وحيث إن جميع الناس مشمولون بالخطاب

ومكلفون بالاستعاذة فأضيفت هذه الأسماء إلى الناس .

وثانياً : بما أنّ الإنسان هو أكمل وأعظم وأشرف مظاهر هذه الأوصاف ، وأعلى مجلى مَن مجالي هذه الأسماء الإلهية فلذلك صار مضافاً إليه هذه الأسماء ؛ وذلك لأنَّ ظهور صفة الربوبية فيه ؛ فقد جعله الله سبحانه في أحسن تقويم ، ولقد تكفل سبحانه بتربيته الجسمية والروحية والفكرية إلى أن يصل إلى حدّ لا يمكن لأحد من خلقه الوصول إليه ، فصار خليفته في أرضه.

وأيضاً لظهور ملكه وسلطانه فيه صار متصرّفاً في جميع عوالمه ، فبإشارة منه (الإنسان) ينشق القمر في فلكه، ويكون قابضاً لتدبير عوالم الأمر والخلق كما ورد « بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزّل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض » . فظهور تربية الله في الإنسان، ومظهرية الإنسان لربوبيته تعالى أعلى وأكمل من جميع الموجودات ، وهكذا سلطانه تعالى، أو أن ظهور السلطنة التامة الإلهية وهو في يوم القيامة يختص بالإنسان، فكما أنه تعالى ملك يوم الدين فهو ملك الناس أيضاً .

وأما ظهور الأُلوهيّة فهو أيضاً في البشر أعلى وأكمل من جميع الموجودات، ويظهر ذلك من التدبّر في آيات تعليم الأسماء لآدم عليه السلام : ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَائِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ . إلى قوله ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها**﴾ وقد بلغ الإنسان بالعبودية مقاماً فاق مقام الملائكة المقرّبين ، فقال تعالى : ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ وقال الملك جبرائيل في ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وآله حينما تأخّر عنه : (لو دنوت أنملة لاحترقت) . فلهذه الخصوصيات في بني آدم

أضيفت هذه الأسماء المقدسة إلى الناس .

هذا إضافة إلى أن الإنسان في نظر الأديان والشرائع السماوية أشرف المخلوقات وأفضلهم ، فهو مع صغر جثّته عالم كبير بل أكبر العوالم ، وكتاب عظيم كتبه الله بيد قدرته ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال :

أتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر ؟
وأنت الكتاب المبين الذي   بأحرفه يظهر المضمر !

على أنه يمكن أن نقول : إنّ كل واحدة من كلمات «الناس» المتكررة في السورة تختص بمرتبة من مراتب الكمال الآدمي ، بمعنى أن الإنسان في قوله تعالى : ﴿بربّ الناس﴾ عبارة عن الأطفال المميّزين، حيث أنهم يدركون النعم الأولية لله تعالى، وهي الإيجاد والتربية والرشد والنموّ .

وفي ﴿مَلِكِ الناس﴾ المقصود من الناس العقلاء الذين ينظرون إلى عالم الكون بنظر أدقّ وأوسع ، فيرون النظام البديع وروابط أجزاء العالم بعضها ببعض ، ويشاهدون سلطان الله عليه .

وفي ﴿إلٰهِ النَّاسِ﴾ المقصود بالناس المؤمنون المتعبّدون لله تعالى الذين يرون في الموجودات آيات عظمته وقدرته فيعبدونه .

وفي ﴿صُدُورِ النَّاسِ﴾ المقصود بالناس هم العلماء الروحانيون لأن الوسوسة من الشياطين تكون للعلماء . فإن الشياطين يسعون إلى إغوائهم وإذلالهم ، وأمّا الجهّال فالعامل الأساسي لإذلالهم جهلهم ، وليس شيء أقوى من الجهل في الإضلال ، فلا يحتاج الجاهل إلى الوسوسة ، كما قال

عليّ عليه السلام : « الجهل أصل كل شيء ». و« الجهل معدن الشرّ ». وفي الدعاء: «أنا الجاهل عصيتك بجهلي، وارتكبت الذنوب بجهلي ، وسهوت عن ذكرك بجهلي ، وركنت إلى الدنيا بجهلي . . . »

والناس في آخر السورة هم شياطين الإنس في مقابل شياطين الجن ، الذين يهتمّون بإضلال الخلق .

فعلى هذا ليس تكرار كلمة الناس في السورة مجرد تكرار ، بل ﴿الناس﴾ في كل مورد بمعنى يغاير معناه في المورد الآخر .

وثالثاً : تكون إضافة الأسماء إلى الناس تعريضاً للآدميّين وتوبيخاً لهم ؛ فإنهم هم الذين اتخذوا أرباباً وملوكاً وآلهة غير الله من بين جميع المخلوقين ؛ فهذه الإضافة لتعلمهم أن الربوبية والسلطنة والألوهية مختصة به تعالى ، وألا يتخذوا من دونه أرباباً وملوكاً وآلهة .

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ :

الوسواس مبالغة أو اسم مصدر استعمل في معنى الفاعل للمبالغة وفي بعض كتب اللغة والتفاسير جعلوه اسماً للشيطان . والوسوسة عبارة عن أن الشيطان يلقي فكراً سيّئاً أو بلا فائدة وبلا خير في قلب أحد دون أن يسمع شيئاً، أو الخواطر الشريرة التي تخطر على بال . والخناس له معنيان :

الأول : أنه مبالغة في الخفاء .

والثاني : أنه مبالغة في التأخّر والتنحّي والانقباض ؛ وكلا المعنيين يناسب المقام .

أما مناسبة المعنى الأول فواضحة لأن الشيطان موجود خفي وغير مرئي ،كما قال الله تعالى : **﴿إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾** . وأما مناسبة المعنى الثاني فتتّضح بالتوجّه إلى ما روي عن سعيد بن جبير : «إذا ذكر الإنسان ربّه خنس الشيطان وولّى، وإذا غفل وسوس إليه». ومضمونه أن العبد إذا كان غافلاً فإن الشيطان يوسوس له ؛ فإذا ذكر الله فيتنحّى عنه الشيطان، وينتظر إلى أن يغفل العبد ثانية فيرجع ويوسوس له ثانية . وربما يستفاد مضمون هذه الرواية من الآية الشريفة : **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ، فَإذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾** .

ولكلّ من المعنيين نكتة أخلاقية: وهي أن الخنَّاس لو كان بمعنى التنحّي والتأخّر فإتيانه بصيغة المبالغة يشعر بأن الله سبحانه كأنه أراد أن يفهم الإنسان أنّ انتصار الشيطان على الإنسان إنما هو نتيجة ضعف عزمه وإرادته ، وإلا فدفعه أمر سهل ؛ فإنه بمجرد أن الإنسان يتذكّر ويرجع عن الغفلة فالشيطان يتنحّى ، وأنه لذلك كثير التنحّي والتأخر . وهكذا إذا قلنا بأن الخنّاس هو المبالغة في الخفاء، فيستفاد منه نكتة أخلاقية أخرى : وهي أن الشيطان يلقي الأفكار والنيّات الخبيثة والشريرة على الإنسان بحيث لا يشعر الإنسان بأنّها من الشيطان بل يرى أنّها من نفسه ، فتعجبه تلك الأفكار والنيّات لحبّه لنفسه ، فلا بدّ له من التفتيش الكامل في أفكاره ونيّاته ؛ فإنها ربما تكون من الشيطان ويعمل الإنسان عملاً يزعم أنّه من نفسه فيراه حسناً ، فيكون إذن مصداقاً لقوله تعالى : **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾** . وكم له من نظير في التاريخ وفي عصرنا الحاضر .

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ :

الصدر محل القلب . وليس المراد من القلب القلب العضوي ، أي قطعة اللحم التي هي في أيسر الصدر ، ولا ما هو مركز العشق والعواطف ، أي ما في مقابل الدماغ الذي هو مركز الفكر . بل المراد منه الروح والنفس اللتان ينتسب إليهما العشق والعاطفة والفكر . وقد ينسب في القرآن الإيمان والمحبة والعقل والتعقل إلى القلب ؛ كما قال تعالى : **﴿ولمّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** . **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾** . **﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** . فهذا مصطلح متداول عند العرب ، والقرآن نزل على اصطلاحهم .

﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ :

بيان إمّا من الوسواس أو من الخنّاس أو الذي يوسوس ؛ وعلى كلّ حال لا يتغيّر المعنى ، فالمعنى أنه كما يمكن الوسواس من الجن كذلك يمكن من الإنس والإنسان ؛ فالشيطان معنى يطلق على الجنّ والإنس كما في قوله تعالى : **﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَياطِينَ الجِنِّ والإِنْسِ﴾** وكقوله تعالى : **﴿وَإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ﴾** . فكما أن الجن يلقي الأفكار الخبيثة ، كذلك الإنسان الخبيث يلقي الأفكار الخبيثة إلى غيره . فيجرّه إلى شرّ المعصية . ويصدق على هذا الإنسان الخنّاس بكلا معنييه ؛ فإنه إن كان بمعنى الخفي ، فإن هذا الإنسان يخفي نيّته الخبيثة ويظهر نفسه على صورة إنسان خيّر ، ويخفي وصفه الشيطاني ، وإن كان بمعنى المتأخر والمتنحّي فهذا الإنسان كذلك ؛ فإنه بمجرد أن يرى في الطرف المقابل إيماناً وتصميماً ، وأنّه لا يخضع لتوجيهاته يغيّر جهته ويتنحّى عنه ، وربما يعتذر

عن وسوسته ويقول إني لم أقصد هذا ، وإنما كان قصدي كذا وكذا . . .

فالخنّاس بكلا معنييه ينطبق على الشيطان والإنس . وفي الكافي والعيّاشي عن الصادق عليه السلام :

« ما من مؤمن إلا ولقلبه أذنان في جوفه . أذن ينفث فيها الشيطان الوسواس . وأذن ينفث فيها ملك فيؤيّد الله المؤمن بالملك . وذلك قوله ﴿فأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ » . وعن القمّي عنه عليه السلام : « ما من قلب إلا وله أذنان على إحداهما ملك مرشد والأخرى مفتن ؛ فهذا يأمره وذاك يزجره » كذلك فإن الشيطان من الناس شيطان يحمل الناس على المعاصي كما حمل الشيطان من الجن .

ويمكن أن يكون « من الجنةوالناس » بياناً للناس في صدور الناس ، فعلى هذا يكون الناس مخفّف الناسي فحذفت ياؤه . وقد نقل هذا الوجه عن الكشاف . فذكر قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ شاهداً له فحذفت الياء من الداعي .

لا كلام في أن العرب يحذفون الياء في هذه المواضع ،وله شواهد من القرآن كقوله تعالى : ﴿مَنْ يُهْدِي اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أو : ﴿الكَبِيرُ الْمُتَعال﴾ أو: ﴿فإنِّي قَرِيبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ فإن الياء حذفت من المهتدي والمتعالي والداعي . وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية هكذا : الذي يوسوس في صدور الشخص الناسي من الجنة والناس / يعني / أن الخناس يوسوس الجن والإنس إذا نسيا الله سبحانه وتعالى .

ثم إن الجنّ في اللغة بمعنى الستر، وجميع مشتقاته تدل على هذا المعنى ، كالجنان (القلب) على وزن كمال والجنين والمجنون (الذي ستر

عقله) والجُنّة ما يستر به ، والجَنَّة روضة مستورة من الرياحين ونحوهما .وقد ذكر في القرآن ثلاثة أنواع من الموجودات غير المرئية **الأول** : الموجودات الشريفة الخيّرة وعُبّاد الله ، **الثاني** : الموجودات المضرّة المفسدة باسم الشياطين . **الثالث** : الموجودات التي فيها الخير والشر ، وفيها الكافر والمؤمن ، والمضرّ والنافع ، كأفراد البشر ومن غيره وهو الجنّ .

وعلى كلّ مسلم أن يعتقد بهذه الموجودات على ما وصفه القرآن الكريم . وبظنّي أن العلاّمة المجلسي قدّس سرّه يقول بارتداد منكر الجن مستدلاً أنّه من ضروريات الدين ، وإنكاره يلازم إنكار القرآن .

ولايقال :إنه ما الفائدة في اعتقادنا بأنّ الجنّ موجود أم غير موجود ؟

لأنّا نقول إن أقل فائدة نستفيدها من هذه العقيدة أن الإنسان يدقّق في أفكاره ويحقّق في تصميماته ويتفكّر في أبعادها المختلفة ، كي يتحقّق له أنه من الشيطان ووساوسه ، أو من إلهامات الملائكة الدالين على الخير ، كما ذكرنا في الروايات السابقة . فبمجرّد أن لا نرى موجوداً لا يسوغ لنا إنكاره ، أو ليس البشر قد مرَّت عليهم قرون متطاولة وهم لا يعلمون بوجود الجراثيم المضرّة مع أنّ آثارها كانت في جسم الآدميّين ظاهرة ؛ حتى أنه أطلق في بعض الروايات اسم الشيطان والجن على تلك الجراثيم؟

وبالجملة للاعتقاد بالملائكة والشياطين والعمل بأوامر الإسلام في هذا الموضوع فوائد للمعتقدين بها ، وإن كان تحقق هذا الاعتقاد في الفرد المتعصب المعاند يحتاج إلى الارتباط مع عالم الأرواح ، ونرى اليوم في كل مدينة من المدن العظيمة في أوروبا وأمريكا وآسيا وكذلك في إيران مجالس لإيجاد الارتباط مع الأرواح ، وقد ألفت في ذلك كتب كثيرة « لطيفة » .

إنّ الفخر الرازي في المقايسة بين السورتين ﴿**الناس ، والفلق**﴾ استفاد فائدة ينبغي أن تذكر ، وحاصلها أن في سورة الفلق ذكر اسم واحد لله تعالى (وهو ربّ الفلق) للاستعاذة من شرّ جميع المخلوقات والظلمات والنفّاثات في العقد والحاسد إذا حسد . وفي هذه السورة أي ﴿**قل أعوذ بربِّ الناس**﴾ مع أن الاستعاذة من شيء واحد (وهو الوسواس) ذكرت له ثلاثة أسماء : الربّ والملك والإله ، وذلك لأنَّ في سورة الفلق الاستعاذة لسلامة الجسد ، وفي هذه السورة الاستعاذة لسلامة الدين ، والضرر الديني ولو كان قليلاً أهم من الضرر الدنيوي ولو كان كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

* * *

مُحتوياتُ الكتاب